



تأليف

جراهام جرين

ترجمة

حسين محمد القباني

مراجعة

الدكتور ابراهيم جمعه

باشراف إدارة الثقافة العامة

بوزارة التربية والتعليم بمصر



نشرته مطابع الشعب

الألف كتاب

القوة والمجد

(٤٥)

بإشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم بمصر

مؤلف الرواية

عندما مر الكاتب العالمى سومرست موم بالقاهرة فى يناير عام ١٩٥٦ ، سأله أحد الصحفيين المصريين قائلا :

ـ من هو أعظم كاتب فى انجلترا فى الوقت الحاضر ؟

فأجاب الكاتب العالمى على الفور :

ـ انه جراهام جرين مؤلف رواية القوة والمجد .

ولد جراهام جرين عام ١٩٠٤ بمدينة بركهامستيد ، وكان والده ناظرا لمدرسة بركهامستيد هـذه ، وهو نفسه يمت بوشائج من القرابة الوثيقة الى الكاتب الانجليزى الاشهر روبرت لويس ستيفنسن .

وقد تولى وهو طالب بكلية باليول تحرير مجلة « اكسفورد آوت لوك » ثم التحق بعد ذلك بصحيفة نوتنجهام جورنال . واخيرا انضم الى أسرة تحرير جريدة التايمز ..

وكانت أول رواية ناجحة الفها هى رواية « الرجل بالداخل » THE MAN WITHIN وقد أتاح له نجاح هذه الرواية فرصة التفرغ للتاليف الادبى . وبعد أن وضع مجموعة من الروايات الناجحة ، اذا بهيفاجىء الوسط الادبى فى عام ١٩٤٠ بروايته هذه «القوة والمجد» THE POWER AND THE GLORY. وقد أجمع القراء والنقاد بأن جراهام جرين قد حقق بهذه الرواية كل ما كان مرجوا منه من خلق فنى رائع ، ولا عجب أن كانت هذه الرواية سببا فى أن يصبح أكبر كاتب معاصر فى انجلترا .

المترجم

الألف كتاب
(٤٥)



القوة والمجد

تأليف
جراهام جرين

ترجمة
حسين محمد القباني

مراجعة
الدكتور ابراهيم جمعة

نشرته
مطابع الشعب
القاهرة سنة ١٩٥٦

هذه ترجمة لكتاب :

THE POWER AND THE GLORY

GRAHAM GREEN

THE VANGUARD LIBRARY, LONDON.

تقديم

لقصة جراهام جرين : القوة والمجد

GRAHAM, THE POWER AND THE GLORY.

تعالج هــذه القصة الممتعة موضـــوع الخير والشر في الطبيعة الانسانية ، وتظهر مدى تغلغل الايمان بالله فى أعماق النفس البشرية ... ففى احدى المقاطعات النائية عن العمران فى جمهورية المكسيك أصدر حاكم المقاطعة أمرا يحرم على المواطنين ممارسة الشـــعائر الدينية ويقضى بهدم المعابد وتشريد رجال الدين أو ارغامهم على الزواج والحياة كما يعيش الافراد العاديون .

وكان يمثل القوة المادية لتنفيذ هذا القانون ضابط بوليس مختال بنفسه يعتقد أن العالم خلق مصادفة وانه لا توجد قوة علوية خلقته ونظمته ، ومن ثم أخذ يهيىء لسكان المقاطعة أسباب الحياة المادية التى تخلومن الايمان والروحانية ، وكان يمثل القوة الروحية والايمان العميق بالله راهب يدعى « مونتيز » .. أبى أن يخضع لقـــانون الزواج وأبى أن يفر كما فر غيره من رجال الدين وانما قرر البقاء فى الولاية متخفيا ليشعل نيران المقاومة فى نفوس الاهلين وليبقى شعلة الايمان مضرمة فى قلوبهم .

وتدور أحداث الرواية حول الصراع الرهيب بين « القـــوة » التى يمثلها الضابط الملحد « والعظمة » التى يمثلها الراهب المكافح . وفى سياق هذا الصراع المشوق لا تكاد تخلو صفحة فى هذه القصة من حكمة بليغة أو من فكرة طريفة تثير فى الذهن والنفس سلســلة من الخواطر ، أو من عبارة رائعة تحرك فى الاعماق معانى الاشمئزاز

من فكرة الالحاد ... والقصة زاخرة بالمواقف الاخاذة التى يقف القارىء أمامها مبهوتا مدهوشا ... نذكر من هذه المواقف الكثيرة أربعــة :

ذهب الراهب مستخفيا الى احدى القرى ليختبىء فيها ويلتمس الطعام والشراب والمأوى بعد أن أجهدته المطاردة فاستقبله أهــل القرية الفقراء بالترحاب رغم الخطر الذى يهددهم جميعا وطلبوا منه أن يقيم لهم القداس والشعائر الدينية التى حرموا منها طويلا ... ولكن رجال البوليس حاصروا القرية فى الصباح للقبض على الراهب ورغم أن السلطة كانت قد رصدت خمسمائة « بيزة » مكافأة لمن يرشد عن الراهب الهــارب ، فان أهل القرية الفقــراء بذلوا كل ما يستطيعون من جهد لاخفائه عن أعين رجال البوليس ، بل لقــد ضحوا ببعض الشبان ليكونوا رهائن فى يد الضابط الملحد ، رافضين أن يسلموا رمز الايمان والمجد الى أعدائه ..

والموقف الثــانى ، عنــدما قبض رجال البوليس على الراهب المتخفى بتهمة احراز مواد كحولية بدون ترخيص .. قبضوا عليه وهم لا يعلمون حقيقة شخصيته ثم زجوا به الى « زنزانة » مزدحمة بحثالة من المجرمين والقتلة والسكيرين .. وقد بلغ من عــذاب الراهب فى تلك الليلة وهو يجلس القرفصاء فى الزنزانة الرهيبة أن استبد به اليأس حتى كاد أن يكشف عن شخصيته الحقيقية لنزلاء الزنزانة كى يتيح لاحدهم فرصة الكشف عن حقيقته لرجال البوليس ويظفر بالمكافأة .. ولكن النزلاء ما كادوا يعرفون حقيقته حتى راحوا يعترفون له بذنوبهم ويطلبون اليه أن يلتمس لهم من الله الصفح والغفران ... ورفض كل واحد منهم حتى الرهائن الذين سيقوا الى الموت أن يرشدوا عن الراهب وهو يمر أمامهم فى الصباح الى غرفة التحقيق بتهمة احراز المواد الكحولية .

لقد فاق هذا الموقف كل ما يمكن أن يتصوره الانسان من قوة

تغلغل الايمان بالله فى أعماق النفوس البشرية حتى ولو كانت نفوس أولئك الذين ضلوا الطريق فى الحياة !

والموقف الثالث ، عندما استدعى الراهب الى الجلوس بجانب مجرم هارب أصابه رجال انبوليس اصابة قاتلة .. ورغم أن الراهب كان يعرف أنه كان فى هذه الدعوة كمينا للايقاع به فى أيدى رجال البوليس ، فانه أبى الا أن يقوم بواجبه نحو المحتضر الذى أبى أن يلتمس هذه المغفرة حتى لا يقع الراهب فى قبضة البوليس ، ولقد كانت آخر كلمات المحتضر قبل أن يلفظ أنفاسه الاخيرة « اهرب يا أبى .. لا شأن لك بى .. اهرب قبل أن يقبضوا عليك .. » ــ حتى المجرم القاتل فى ساعة الاحتضار ينسى نفسه ويحاول أن ينقذ رمز الايمان من أيدى أعدائه !

والموقف الرابع ، عن غلام يافع كان شديد الافتتان بالضابط الملحد . كان يبادله التحية كلما التقى به ويحاول أن يلمس مقبض مسدس الضابط الذى كان فى نظره يمثل القوة المادية .. وكان الضابط فخورا بهذا الغلام وأمثاله ، ويعتقد انهم « الجيل الجديد » الذى لن يؤمن بغير المادية . ولكن الاحداث تتطور ويستشهد الراهب برصاص الضابط وجنوده ويعرف الغلام حقيقة الامر من أبويه فيشعر أنه كان مخدوعا وان هذا الضابط ليس الا رمزا للشيطان .. ومن ثم لم يتردد فى أن يبصق عليه عندما رآه يمر تحت نافذته ذات مساء . ووقعت بصقة الازدراء على مقبض المسدس رمز القوة المادية ..

وفى نفس الليلة صحا الغلام على طرق خفيف يدق على الباب الخلفى لمنزله فلما فتح الباب شاهد راهبا آخر وفد الى الولاية ليحمل شعلة الكفاح فى سبيل الايمان بعد استشهاد الراهب « مونتيز » .

وهكذا ــ ليست قصة جراهام جرين « القوة والمجد » مجرد

متعة أدبية وحبكة قصصية يتسلى بها القارىء ، وانما هى – وأيم الحق – مجموعة من المتع الفلسفية التى لا مفر للقارىء من الوقوف عند كل منها ، يتأمل ، ويتأثر ، ويستمتع بانسياب الفكرة الفلسفية فى سياق السرد القصصى بصورة تثير كوامن الاعجاب .

والقصة ، بهذا الاعتبار ، كتاب فى فلسفة الحياة وفلسفة المادة والروح ، ينتهى منه القارىء بانتصار الروحانية على المادية ، وسيطرة الاولى على نفوس البشر . وتأصلها فى الغرائز الانسانية واستقرارها فى حنايا كل قلب – حتى قلوب القتلة الاثمين .. !

المراجع : **دكتور ابراهيم جمعة**

القاهرة فى فبراير ١٩٥٦

الجزء الأول

الفصل الأول

المنيـــاء

خرج مستر تنش يبحث عن اسطوانة الأثير ، تحت شمس المكسيك الحامية وفى غبار الطريق الابيض . . وكانت بعض عقبان الجو تطل عليه من سقف مسكنه فى دناءة واستهتار . . فتحرك فى قلبه دبيب الثورة عليها . . انه لم يصبح بعد رمة تصلح لطعامها ! ومن ثم انحنى وانتزع بأصابعه ذات الاظافر المشقوقة قطعة من حجر الطريق وقذف بها – فى وهن – نحو العقبان . . ، فشالت احداها طائرة نحو المدينة . . وحلقت فوق الساحة الصغيرة ، ثم فوق الاجزاء العليا من بعض المنشآت ، ثم فوق جوسقين « كشكين » لبيع المياه المعدنية ، ثم مضت نحو النهر ، ثم الى البحر . . انها لن تجد ثمة شيئا يؤكل . . فان كلاب البحر تعودت أن تلتمس الرمم فى ذلك المكان .

ومضى المستر تنش عبر الساحة ، والقى بالتحية على رجل كان يحمل بندقية ويجلس فى قليل من الظل بجانب جدار . ولكنه تبين أن الحالة هنا ليست كما هى فى انجلترا . . فان الرجل لم يرد عليه تحيته ، وانما راح يحدق فى مستر تنش بنظرات ملؤها الضغن ، وكأنما الرجل لم يتعامل من قبل مع هذا الاجنبى . . أو كأنما لم يكن مستر تنش هو صانع سنتيه الذهبيين ! ومضى مستر تنش فى طريقه والعرق يتفصد منه ، واجتاز مبنى الخزانة العامة الذى كان يوما ما كنيسة ، وفيما هو يمضى نحو رصيف

الميناء ، توقف فجأة وقد نسى السبب الذى من أجله غادر المسكن هل خرج ليشرب قدحا من المياه المعدنية ؟ فلم يكن ثمة مشروب غيرها فى هذه البقعة التى حرمت فيها ـ قانونا ـ المشروبات الروحية ما عدا البيرة . ولكن هذه ـ أى البيرة ـ مرتفعة الثمن ـ الا فى المناسبات الخاصة ـ بسبب احتكار الحكومة لبيعها .

واستبد بمعدة المستر تنش احساس من الغثيان رهيب .. لا .. ليست المياه المعدنية هى التى خرج من أجلها .. أنها اسطوانة الاثير بطبيعة الحال .. لقد وصلت السفينة الصغيرة الى الميناء ، فقد سمع صفيرها المدوى وهو راقد بعد تناول وجبة الغداء . ثم هب سائرا ومر فى طريقه بدكان الحلاق ، وعيادتين لطب الاسنان ، ثم وصل آخر الامر الى مكان على ضفة النهربين ادارة الجمرك ومخزن البضائع ..

وكان النهر يجرى فى بطء نحو البحر بين مزارع الموز ، وكانت السفينة « جنرال أبريجون » راسية على ضفة النهر لتفرغ حمولتها من صناديق البيرة .. مئات الصناديق كانت متراصة على الرصيف . ووقف المستر تنش فى ظل مبنى الجمرك وشرع يفكر « لماذا أنا هنا » ؟ ! أن ذاكرته تنض منه لفرط حرارة الجو .. وانه لينفس عن غضبه بالبصق فى شعاع الشمس ، ثم اذا هو يجلس على صندوق لينتظر ... فليس هناك ما يعمله ، وليس هناك من يأتى لزيارته قبل الخامسة ..

وكانت المركب « جنرال ابريجون » صغيرة لا يزيد طولها على الثلاثين ياردة .. يعلوها سياج من القضبان التالفة طوله بضعة أقدام ، وعلى جانبها زورق واحد للنجاة ، وثمة ناقوس معلق بحبل بال ، وفى مقدمتها مصباح زيتى ، وكان الواضح انها لن تستمر تمخر عباب المحيط أكثر من عامين أو ثلاثة ـ اذا لم تلتق بأعصار شمالى فى خليج المكسيك .. ففى مثل هذا اللقاء تكون النهاية . واذا حدث هذا فلن يكون بالأمر الخطير ، لأن المعتاد أن يؤمن كل

راكب على حياته ـ آليا ـ عند شراء تذكرة الركوب . وكان ثمة ستة ركاب يعتمدون على السياج بين مجموعة من الديكة الرومية المقيدة ويطلون على الميناء حيث مخزن البضائع ، وعلى الشارع الخالى المتلظى فى سعير الشمس ، وعلى دكان الحلاق وعيادتى طب الاسنان .

وسمع المستر تنش خرخشة جراب غدراة وراء ظهره ، فاستدار برأسه حيث رأى أحد ضباط الجمرك يتأمله فى غضب ويغمغم بكلمات لم يستطع المستر تنش أن يتبينها ... ومن ثم قال له « معذرة يا سيدى ! » .

وعاد الضابط يقول بصوت غير واضح « أسنانى .. ! »

فقال المستر تنش « .. نعم .. أسنانك ! »

ولم يكن للضابط أسنان .. وكان هذا هو السبب فى غموض كلماته . وكان المستر تنش هو الذى قام بخلعها جميعا . . ومرة أخرى أحس بهذا الشعور الرهيب من الغثيان .. لاشك أنه يعانى من مرض ما . . الديدان . . أو الزحار « الديسنطاريا » .

وقال للضابط « ان طاقم الاسنان يوشك أن يتم .. الليلة » .

وكان يعرف أنه غير صادق فى هذا الوعد .. نعم .. كان من المستحيل أن يفرغ من اتمام طاقم الاسنان فى تلك الليلة .. ولكن هكذا كان يعيش .. يؤجل كل شىء الى غد .. وها هو قد رأى الضابط قد رضى واقتنع ثم لعله ينسى ! .. وأيا كان الامر ، فماذا فى وسعه أن يفعل ! لقد دفع ثمن الطاقم سلفا .. وهذا هو كل شىء فى عالم المستر تنش : حرارة الجو . . والنسيان . . وتأجيل كل شىء الى غد .. والحصول مقدما على أجر العلاج !

وشرع يرسل نظراته عبر النهر المبطىء ـ الى البحر .. انه يرى زعنفة سمك القرش تمرق الى سطح الماء قرب مصب النهر كأنها منظار غواصة ... وكانت بعض السفن ـ على مر السنين ـ قد تحطمت فى مدخل النهر ، ثم حملت الامواج بعض أجزائها الى الضفاف ، فبدت مداخنها فوق سطح الماء كأنها فوهات مدافع

مصوبة الى الاهـداف البعيـدة .. عبر مزارع المـوز والاشـجار والمستنقعات .

وعاد المستر تنش الى التفكير فى اسطوانة الأثير . . لقد كاد ينساها .. وفغرفاه وهو يحصى زجاجات الشراب .. ان فى كل صندوق اثنتى عشرة زجاجة .. وعددالصناديق يبلغ مائة وأربعين .! وتجمع اللعاب فى شدقيه وهو يعاود الحساب .. انه يقول لنفسه بالانجليزية وبصوت مسموع : اثنتا عشرة أربع مرات تساوى ثمان وأربعين .. « يا الهى انه لشىء رائع .. » اثنتا عشرة مائة ، ست عشرة مائة وثمانون ..

وبصق على الارض وهو يحدق النظر ــ فى غير اهتمام ــ الى فتاة كانت تقف فى مقدم سطح السفينة « جنرال أبريجون » .. كانت فتاة ممشوقة القد ، تختلف عن نساء تلك المنطقة .. البدينات غالبا . . ذوات العيون العسلية . . والاسنان الذهبية . .

ان هذه الفتاة نوع آخر .. انها شابة كزهرة الربيع ــ يا الهى .! ألف وستمائة وثمانون زجاجة .. ثمن كل منها بيزة على الاقل !

وسمع شخصا وراءه يهمس له قائلا باللغة الانجليزية « ماذا تقول ؟ ! » فاستدار المستر تنش بسرعة وهو يسأل فى دهشة :

« هل أنت انجليزى ؟ ! » .

ثم لم يلبث أن عدل عن هذا السؤال حين رأى أمامه رجلا ضامر الوجه ، غير حليق الذقن ، ثم قال :

« أتتحدث الانجليزية ؟ ؟ »

وأجاب الرجل بالايجاب .. لقد كان يتحدث الانجليزية .. وكان واقفـا بجمـود فى الظل . . رجـل ضئيل الحجم ، يرتدى بذلة سوداء رثة ، ويحمل فى يده حافظة أوراق صغيرة وتحت ذراعه رواية بدت منها بعض صفحات ملونة بطريقة بدائية ..

وكانت عيناه ناتئتين ، وتبدو عليه سمات نشوة غامضة كأنمـا كان يحتفل ــ بمفرده ــ بعيد ميلاد شخص مجهول .

قال الرجل الغريب ، للمستر تنش :

« معذرة .. ظننت أنك تتحدث الى .. »

وأزال المستر تنش اللعاب المتجمع بين شدقيه وقال :

« ماذا كنت أقول ؟ » لقد نسى الرجل ماذا كان يقول ..

« لقد كنت تقول : يا الهى .. انه لشىء رائع » !

« آه .. ولكن ماذا كنت أعنى بهذه العبارة ؟ »

ثم نظر الى السماء المتوهجة بحرارة الشمس حيث رأى عقابا يبدو من بعيد كأنه رقيب .. ثم أردف قائلا :

« ماذا ؟ آه .. انها الفتاة التى كنت أعنيها كما أظن .. فقلما يرى الانسان فتاة جميلة كهذه فى هذه الناحية .. فانك هنا لاترى فتاة تستحق النظر اليها غير مرة أو مرتين فى العام .. »

« أهى .. فى ميعة الصبا ! »

فقال المستر تنش بصوت ملول :

« أواه .. ليست لى أغراض معينة .. ولا بأس على مثلى أن يمتع نظراته بفتاة جميلة .. فقد عشت بمفردى خمسة عشر عاما .. »

« هنا ! ! »

وخيم عليهما الصمت .. وراح الوقت ينصرم .. وامتدت ظلال مبنى الجمرك بعض الشى نحو النهر .. وتحرك العقاب فى الجو قليلا كأنه عقرب ساعة أسود اللون ..

وعاد المستر تنش يقول وهو يومىء برأسه نحو السفينة :

« هل جئت فيها ! ! »

« لا .. »

« هل ستمضى عليها ؟ ! »

وبدا على الرجل الغريب أنه يريد التهرب من الاجابة على هذا السؤال ، ومن ثم قال مراوغا :

« لقد جئت لأرى .. أظن أنها سوف تبحر بعد قليل .. ! »

فقال المستر تنش :

« سوف تبحر فى خلال بضع ساعات .. الى فيراكروز .. »
« الا ترسو على موانىء أخرى ! ! »
« وما هى الموانىء التى يمكن أن ترسو عليها .. ؟ ! .. كيف جئت الى هذه المدينة ؟ ! »
فقال الرجل الغريب بغموض :
« فى زورق »
« أتمتلك مزرعة من مزارع الموز ؟ »
« لا .. »
« جميل أن أسمع اللغة الانجليزية بعد كل هذه السنوات .. هل تعلمت هذه اللغة فى الولايات المتحدة ؟ ! »
فلما أومأ الرجل برأسه مما يفيد الايجاب ، أردف المستر تنش قائلا بصوت خافت :
« لشد ما أهفو الى أن أكون هناك الآن .. آه .. آمل .. هل يمكن أن يكون فى حافظتك هذه بعض الشراب ؟ . لقد عرفت رجلا أو اثنين مثلك يحملون قليلا من الشراب للأغراض العلاجية..أطبيب أنت ؟ ! »
فأرسل الرجل الغريب من عينيه الحمراوتين نظرة جانبية حادة الى المستر تنش ثم قال : « يمكنك أن تسمينى .. طبيب بدون مؤهل طبى .. ؟ ! »
« آه . اذن فأنت تحمل عينات من الأدوية .. حسنا ! . عش .. ودع غيرك يعيش ! »
« هل أنت تنوى أن تبحر على السفينة ؟ »
« لا .. وانما جئت الى هنا لكى .. لقد نسيت .. حسنا . ! هذا لايهم »
ثم وضع يده على بطنه وأردف قائلا للرجل الغريب !
« هل أجد لديك دواء ـ أى دواء ؟ .. لست أدرى ماذا بى . !

انها هذه المنطقة اللعينة ! . انك لن تستطيع أن تشفينى .. ولا أحد يستطيع ... »

« أتحن للعودة الى وطنك ؟ »

فقال المستر تنش :

« وطنى ! ! ان هذه المنطقة هى وطنى الآن .. هل تعلم كم تساوى « البيزة » فى مدينة المكسيك .. ! ان الريال الامريكى يساوى أربعا منها .. يا الهى رحمتك وغفرانك . ! »

« ألأنت كاثوليكى المذهب ؟ »

فأجاب المستر تنش فى اضطراب :

« لا .. لا .. انه مجرد تعبير ، اننى لا أعتقد فى شىء من هذه المذاهب .. ان الجو هنا شديد الحرارة .. »

« أريد أن أبحث عن مكان أستريح فيه .. »

« اذن تعال معى الى مسكنى .. فان لدى سريرا اضافيا .. ولن تبحر السفينة قبل مضى ساعات .. هذا اذا كنت تريد أن تراها وهى تبحر .. »

فقال الرجل الغريب :

« اننى أتوقع أن أرى شخصا يدعى لوبيز .. »

« لقد قتل رميا بالرصاص منذ أسابيع . . »

« قتل .. ؟ !

« نعم .. أنت تعرف الحالة هنا ــ هل كان صديقا لك ؟ ! »

فأسرع الرجل يقول باضطراب !

« لا لا .. بل كان مجرد صديق لأحد الاصدقاء .. »

وجمع المستر تنش لعابه مرة أخرى وبصق فى ضوء الشمس الحامية وهو يقول :

« حسنا .. هذه هى الحال .. لقد قيل انه كان يساعد غير المرغوب فيهم .. حسنا والمهم هو أن فتاته تقيم الآن مع مدير البوليس .. »

« فتاته ؟ هل تعنى ابنته ؟ ! » .

« انه لم يكن متزوجا .. ومن ثم أعنى الفتاة التى كانت تقيم معه ... »

وتوقف المستر تنش فجأة عن الحديث حين رأى وجه الرجل الغريب ينم عن الدهشة البالغة ، ولكنه لم يلبث أن استأنف حديثه قائلا وهو ينظر فى اتجاه السفينة جنرال أبريجون :

« أنت تعرف الحالة هنا . .آه هذه الفتاة الواقفة على سطح السفينة .. جميلة حقا .. ولكنها بطبيعة الحال ستصبح كالأخريات فى غضون عامين .. بدينة حمقاء .. آه لشد ما أنا ملهوف الى كأس من الشراب ـ يا الهى رحمتك وغفرانك »

فقال الرجل الغريب :

« ان لدى قليلا من البراندى .. »

فنظر المستر تنش اليه فى حدة وقال :

« أين .. ؟ »

فوضع الرجل ذو الوجه الضامر يده على حافظة أوراقه ،ولكن المستر تنش بادر وأمسك بمعصمه وقال هامسا :

« لا .. كن على حذر .. ليس هنا .. »

ثم نظر الى الظل الذى بدا على الأرض كأنه بساط قاتم اللون ، وتحولت نظراته الى حارس كان نائما على قفص فارغ وبندقيته بجانبه ، ثم قال :

« تعال الى مسكنى .. »

فقال الرجل الضئيل الغريب فى فتور :

« لقد جئت .. جئت لأرى السفينة وهى تبحر .. »

فقال المستر تنش مؤكدا :

« انها لن تبحر قبل بضع ساعات .. »

« بضع ساعات .. أأنت متأكد ؟ ان الجو هنا حار جدا »

« اذن يحسن بك أن تأتى معى الى البيت »

البيت ! ! انها كلمة تعود أن يصف بها الجدران الاربع التى ينام بداخلها .. أما « البيت » بمعناه الصحيح ، فانه لم ينعم به يوما.
ومضى الاثنان عبر الساحة الصغيرة المستعرة بحرارة الشمس حيث كانت « أكشاك » المياه الغازية مقامة فى ظلال شجر النخيل .. وتعود فكرة « البيت » فتسيطر على ذهن المستر تنش .. ان « البيت » فى ذاكرته يشبه صورة على ظهر بطاقة بريد بين عدد كبير من البطاقات ، فاذا أنت قلبت فى هذه المجموعة ، ظهرت لك صورة مدينة نوتنجهام ، مسقط رأس المستر تنش ؟ وملعب صباه .. وقد كان والده طبيب أسنان أيضا .. وان أول مايذكره المستر تنش هو أنه عثر فى سلة المهملات على نموذج مهمل لفم فاغر خال من الاسنان ، مصنوع من الطين ، وكأنه قطعة أثرية متخلفة من هيكل انسان « النياندرتال » القديم .. وكان هذا النموذج لعبته المفضلة .. وعبثا حاول أبواه أن يغرياه بلعبة « الميكانو » .. ولكن القدر كان قد قرر مصيره .. ففى مرحلة الطفولة تقع لحظة حاسمة يفتح فيها الباب فى حياة الانسان ليدخل منه المستقبل . هذا الميناء الحار المشبع بالرطوبة ! . ، عقبان الجو ! هل التقطهما بدورهما من سلة المهملات ؟ .. جدير بالانسان أن يشكر ربه لانه فى طفولته لايدرى ماذا يخفى المستقبل أحيانا من آلام وأهوال ..
وكانت القرية التى يسيران فيها ذات طرقات متربة غير مرصوفة .. فاذا هطلت الأمطار جعلتها موحلة زلقة ؛ أما الآن ، فانها تحت اقدامهما جافة كالحجر .. وكانا يسيران فى صمت حتى تجاوزا دكان الحلاق وعيادتى طب الأسنان .. وكانت العقبان تجثم على أسقف المنازل ، فى ترقب وهدوء كأنها دجاج أليف .. فهى تبحث عن الحشرات تحت أجنحتها الكبيرة الغبراء . ولما وصل المستر تنش مع صاحبه الى كوخ من الخشب ، قال له « لقد وصلنا .. »
وكان الكوخ مكونا من طابق واحد مرتفع ، له شرفة واسعة تحتوى على سرير من الشبك المعلق « الهاموك » . وكان أكبر نسبيا

من الاكواخ الاخرى القائمة على جانبى الشارع الضيق الممتد نحو مائتى ياردة فى اتجاه المستنقعات .

وعاد المستر تنش يقول لصاحبه بعصبية .

« أتحب أن تلقى نظرة حول الكوخ .. ! اننى لا أتفاخر اذا قلت اننى أحسن طبيب أسنان فى هذه المنطقة .. وهذا الكوخ ليس رديئا بالنسبة الى غيره .. »

وتموج الفخر فى نبرات صوته كأنه نبات غير ثابت الجذور ..

وتقدم صاحبه الى الداخل بعد أن أغلق الباب الخارجى ، ومضى الى غرفة الطعام التى كانت تحتوى على مقعدين هزازين ، وطاولة عارية ،ومصباح بترولى ، وبضع صحف ومجلات أمريكية قديمة .. وخزانة خشبية .

وقال المستر تنش :

« لسوف أعد الاقداح ، ولكنى أريد أولا أن تشاهد مسكنى كله .. فالواضح أنك رجل مثقف .. »

وكانت غرفة عمليات طبيب الأسنان تطل على فناء تنتفش فيه بعض الديكة الرومية فى حركتها التى تنم عن الكبرياء السخيف ، وكانت ـ أى الغرفة تحتوى على مثقاب أسنان يدوى ، ومقعد عمليات خلع وعلاج الاسنان أحمر اللون ، وخزانة ذات واجهة زجاجية تحتوى على آلات مبعثرة يعلوها الغبار ، وعلى جفت « كلابة » موضوعة فى فنجان ، وفى ركن من الغرفة مصباح مكسور . أما السدادات التى توضع بين الاسنان المصنوعة من القطن والصوف فقد كانت متناثرة على جميع الأرفف .

وقال الرجل الغريب معلقا :

« شىء جميل ! »

« انه ليس رديئا جدا على كل حال .. فأنت لاتستطيع أن تتخيل العقبات التى تعترضنا فى هذه القرية .. »

ثم أشار الى مثقاب الأسنان وأردف قائلا فى مرارة

« هـذا المثقاب مصنوع فى اليابان .. وقد اشتريته منذ شـهر ويوشك أن يستهلك الآن .. وليس فى مقدورى أن أشترى مثاقب أسنان أمريكية »

وقال الرجل الغريب :

« ان النافذة رائعة الجمال »

وكان للنافذة مصراع من الزجاج الملون ، نقشت عليه صـورة العذراء التى بدت كأنها تطل من النافذة ـ ذات الشبكة السلكية ـ على الديكة الرومية فى الفناء . ولاحظ المستر تنش اتجاه نظرات الرجل الغريب ، فقال له :

« لقد حصلت على هذا المصراع الزجاجى من احدى الـكنائس عندما صدر الأمر بأغلاقها ونهبها .. وأعتقد أنه لايليق أن تخلو غرفة طبيب أسنان من الزجاج الملون المنقوش .. وقد جرت العادة فى الوطن ـ أعنى فى انجلترا ـ أن يزين طبيب الأسنان غرفة عملياته بزجاج منقوش عليه صورة الفارس الضاحك ـ ولا أدرى لمـاذا ، أو صورة بعض الزهور التى ترمز الى العصر التيودورى .. ولكننى هنا لا أستطيع أن أختار ما أشاء .. »

وفتح باب غرفة أخرى ثم أردف قائلا :

« وهـذه غرفة المصنع .. والمخدع »

وكان أول مايطالع الداخل اليها سرير تحيطه به « كلة » . وقد قال المستر تنش انه يتخذ من هـذه الغرفة مصنعا ومخدعا لقلة عدد الحجرات ، وكان بها ـ عدا السرير و«الكلة» ـ ابريق وحوض ومنضدة وصبانة ، وفى الجانب الآخر منفاخ ، ووعاء مملوء بالرمل ، وملاقط وفرن صغير . وقد تناول المستر تنش قالبا للجزء الاسفل من طاقم أسنان وقال فى أسى :

« اننى أصنع القوالب من الرمال .. اذ ليس فى وسعى أن أفعل غير هذا فى مثل هذه المنطقة .. وفى هـذه الحالة لايـكون الطاقم مناسبا تماما .. ومن ثم فان عملائى لايكفون عن الشكوى .. »

وأعاد القالب الى مكانه ، وفغر فاه مرة أخرى وعادت الى عينيه تلك النظرة الجوفاء . وكانت حرارة الجو فى الغرفة قد بلغت المدى، وظل المستر تنش واقفا كأنه رجل ضل طريقه فى كهف زاخر بأدوات وحفائر عصر لا يعرف عنه الا الشىء القليل .. وأخيرا قال الرجل الغريب :

« ألا يمكن أن نجلس ـ »

«ويمكن أن نفتح زجاجة براندى » .

« آه .. البراندى ... »

وأحضر المستر تنش قدحين من خزانة صغيرة تحت المنضدة ، وبعد أن مسح عنهما آثار الرمال ، مضى مع صاحبه حيث جلسا على المقعدين الهزازين بالغرفة الامامية ، وهناك تناول قدحا وراح يصب فيه شيئا ، فقال له الرجل الغريب :

« أهذا ماء ؟ »

« لا .. انك لا تستطيع أن تستسيغ شرب الماء فى هذه النواحى لقد سبب لى ماء هذه المنطقة الآلام هنا ... »

ثم وضع يده على بطنه وأردف ،قائلا وهو يطيل النظر الى الآخر :

« وأنت أيضا لا تبدو فى صحة طيبة .. فان أسنانك فى حاجة الى علاج » .

فقال الرجل الغريب وهو ينظر الى كمية « البراندى » القليلة فى الكأس نظرة الانسان الى شىء عزيز عليه ولكنه لا يثق فيه :

« ولكن .. ما جدوى العناية بأسنانى ؟ ؟ »

وكان يبدو من وجهه الضامر وعدم اهتمامه بمظهره كأنه رجل فاشل يائس بسبب سوء صحته أو استبداد القلق بنفسه ... وكان جالسا على حافة المقعد الهزاز وحافظة أوراقه متوازنة على ركبتيه ، والكأس فى يده ، يرنو اليها فى شوق آثم ..

وقال له المستر تنش يشجعه رعم أن « البراندى » ليس ملكا له :

« اشرب .. انه مفيد لك »

وكان منظر الرجل ببذلته السوداء وكتفيه المنحدرين يذكره بمنظر تابوت الموتى ، بل لقد خيل اليه أن الموت نفسه يطل من فمه ذى الاسنان الفاسدة .

وصب المستر تنش لنفسه كمية أخرى من « البراندى » فى كأسه ، ثم قال :

« ان الانسان يشعر بالوحشة هنا .. ومن الممتع أن يتحدث الانسان باللغة الانجليزية ولو الى رجل غريب .. ترى هل تحب أن ترى صورة أبنائى ؟ »

ثم تناول من جيبه صورة باهتة وقدمها للرجل الغريب .. وكانت الصورة تمثل طفلين يتعاركان الظفر برشاشة زرع فى حديقة المنزل الخلفية ، وقال المستر تنش :

« لقد التقطت هذه الصورة منذ ستة عشر عاما » .

« لا شك أنهما الآن فى دور الشباب » .

« مات أحدهما .. »

فقال الرجل الغريب بصوت رقيق :

« آه .. حسنا .. لقد مات فى دولة مسيحية .. »

ثم شرب من كأسه جرعة وراح يبتسم ببلاهة للمستر تنش الذى قال فى صوت المتعجب وهو يزيل اللعاب من فمه :

« نعم .. أعتقد هذا وان كنت بطبيعة الحال لا أقيم وزنا كبيرا لهذا الامر » .

وخيم عليه الصمت ، وشردت أفكاره ، وأنفتح فمه ، وبدا عليه الذهول والاعياء ، ثم ما لبث أن أفاق على وخز الالم فى بطنه ، فصب لنفسه كمية أخرى من الشراب وقال :

« فيم كنا نتحدث .. آه .. عن الاولاد .. نعم .. الاولاد ..

ان ذكريات الانسان أحيانا تدعو للعجب .. فأنا مثلا أتذكر رشاشة الزرع بأوضح مما أتذكر ولدى .. ومن هذه الذكريات أنى اشتريتها بثلاثة شلنات وأحد عشر بنسا وثلاثة أجزاء البنس .. وكان لونها أخضر .. وفى مقدورى أن أمضى بك الى المتجر الذى اشتريتها منه .. أما عن الاولاد — »

ثم توقف عن الحديث برهة ، وراح ينظر فى أسى الى الكأس وكأنما يرى فيها صور الماضى البعيد ، ثم عاد يقول :

« انى لا أكاد أتذكر عنهم الا .. كثرة بكائهم وصياحهم .. »

« ألم تتلق أخبارا عنهم ؟ »

« أواه .. لقد كففت عن الكتابة الى أهلى قبل أن أستقر هنا .. ما جدوى الكتابة والتراسل ؟ فليس فى مقدورى أن أرسل اليهم بعض المال ، ولن أدهش اذا علمت أن زوجتى تزوجت مرة أخرى .. فلا شك أن أمها ترحب بهذا .. تلك العجوز اللعينة .. انها لم تكن تحفل بأمرى مطلقا .. »

فقال الرجل الغريب فى صوت خافت :

« هذا شىء بشع » .

وعاد المستر تنش يفحص الرجل بنظرات مدهوشة .. انه يراه جالسا فى مكانه كأنه علامة استفهام سوداء ، مستعدا للانصراف أو مستعدا للبقاء ،منتصبا فى جلسته ، حقيرا فى مظهره وفى وجهه غير الحليق ، ضعيفا ، تطمع الناس فى استخدامه لتنفيذ أوامرهم .. وقد استدرك هذا الرجل عبارته ، فقال :

« أعنى العالم .. والاحداث التى تجرى فيه .. »

« اشرب كأسك »

فراح يحسوها على مهل ، وأخيرا قال :

« هل .. هل تذكر هذه المنطقة قبل .. قبل أن يسيطر عليها ذوو القمصان الحمراء .. »

« أعتقد هذا .. »

« كم كانت الحياة ناعمة فيها يومذاك ؟ »
« أكانت كذلك ؟ اننى لم أفطن الى هذه الحقيقة »
« يكفى أن كان الناس فيها يؤمنون .. بالله »
فصب المستر تنش لنفسه مزيدا من البراندى ؟ وقال :
« ان الحياة هنا ، بالنسبة لى ، كما هى ، فليس لعقائد الناس أية علاقة بأسنانهم . وأيا كان الامر ، فالحياة هنا رهيبة .. موحشة .. يا الهى .. كنت أظن ، وأنا فى وطنى ، أن الحياة هنا مغامرة ممتعة .. وكنت أنوى ألا تستمر اقامتى أكثر من خمسة أعوام .. وقد ربحت كثيرا فى خلال هذه الاعوام الخمسة الاولى ، ولكن قيمة البيزة هبطت فجأة ، وهأنذا عاجز عن الرحيل .. ولكنى سوف أعتزل العمل يوما .. وأرحل .. أعود الى وطنى .. وأعيش كما ينبغى .. سيدا محترما .. أنظر الى هذا كله ـ »
ثم أشار الى الغرفة العارية وأردف قائلا :
« لسوف أنسى هذا كله .. نعم .. سيتحقق هذا الامل قريبا .. أننى من المتفائلين .. »
وفجأة سأله الرجل الغريب قائلا :
« ماهو الزمن الذى تستغرقه فى الوصول الى ميناء فيراكروز ؟ »
« من هى ؟ »
« السفينة »
فقال المستر تنش فى أسى :
« أربعون ساعة .. ر [illegible] ثم تكون هناك فى فندق ويلجانا ، أنه فندق جميل . وهناك أيضا المساهر والمراقص .. انها مدينة مرحة .. »
فقال الرجل الغريب :
« ان أربعين ساعة ليست بالزمن المديد .. ولكن .. كم ثمن التذكرة ؟ »
« يمكنك أن تسأل لوبيز .. وكيل الشركة الملاحية ـ »

« ولكن لوبيز ــ »

« آه .. نسيت .. لقد قتل رميا بالرصاص .. »

وسمع الاثنان شخصا يطرق الباب الخارجى ، فأسرع الرجل الغريب ودس حافظة أوراقه تحت مقعده ، بينما مضى المستر تنش فى حذر نحو النافذة وهو يقول :

« على الانسان أن يلزم دائما جانب الحذر .. ولكل طبيب أسنان ناجح أعداء يتربصون به »

وسمع فى تلك اللحظة صوتا واهنا يهيب به :

« اننى صديق .. »

وفتح المستر تنش الباب فورا حيث اقتحم ضوء الشمس الغرفة كأنه قضيب من الحديد المحمى . وكان بالباب صبى يلتمس طبيبا .. وكان الصبى يغطى رأسه بقبعة كبيرة ، وله عينان قاتمتان تنمان عن الغباء ، وعلى مسافة قريبة وراءه كان ثمة بغلتان تفحصان الارض بحوافرهما .. وقال المستر تنش للصبى انه ليس طبيبا باطنيا ، وانما هو مجرد طبيب أسنان . وكان الرجل الغريب جالسا فى تلك اللحظة وقد بدا على وجهه كأنه يبتهل فى أعماق نفسه .. وقال الصبى انه سمع عن وجود طبيب بالقرية ، وأن أمه العجوز تعانى من الحمى ولا تستطيع الحراك ، ومن المحتمل أن تموت فى أية لحظة .

وتحركت ذكريات غامضة فى ذهن المستر تنش ، فقال الرجل الغريب بلهجة الذى اكتشف شيئا هاما :

« لقد قلت لى انك طبيب .. بدون مؤهل .. أليس كذلك ؟ »

« لا لا .. يجب أن ألحق بالسفينة قبل أن تبحر .. »

« لقد ظننت أنك قلت ــ »

« لا .. لقد عدلت عن رأيى ــ »

« حسنا .. ان السفينه لن تبحر قبل ساعات .. وهى عادة لا تبحر فى الوقت المحدد .. »

ثم التفت الى الصبى وسأله عن مكان اقامته ، فقال ان المكان يبعد

ستة فراسخ « الفرسخ ثلاثة أميال » . وعندئذ قال المستر تنش :
« أن المسافة بعيدة ... اذهب وأبحث عن طبيب آخر » .
ثم التفت الى الرجل الغريب وأردف قائلا :
« أرأيت كيف تنتقل الأخبار هنا بسرعة .. لقد عرف الجميع بوجودك فى هذه المنطقة .. »
فقال الرجل الغريب بصوت ملهوف وكأنما يلتمس النصيحة بخضوع من المستر تنش :
« ليس فى مقدورى أن أقوم بعمل نافع .. »
وعاد المستر تنش يقول للصبى :
« هلم انصرف .. »
ولم يتحرك الصبى من مكانه ، وانما ظل واقفا فى الشمس لايريم ، ويحدق الى داخل الكوخ فى صبر عجيب وهو يردد أن أمه توشك أن تموت ! أما نظراته البلهاء فلم تكن تعبر عن أية عاطفة ، وكأنما يدرك بغريزته حقيقة الانسان الذى يولد ، ثم يموت أبواه ، ثم يشيخ هو ، ثم يموت بدوره .
وقال المستر تنش :
« اذا كانت أمك على فراش الموت ، فان الطبيب لن يستطيع انقاذها »
ولكن الرجل الغريب نهض فى تلك اللحظة وكأنما أدرك أن الأقدار تدعوه الى مهمة لايستطيع التخلى عنها ، ومن ثم قال بصوت حزين :
« يبدو أن الأحداث تجرى دائما .. هكذا »
« ولكنك لن تلحق بالسفينة عندما تبحر »
« اننى لن ألحق بها .. وهذا ما أريده .. اعطنى قليلا من البراندى »
وكان جسمه يرتعد وهو يتناول الكأس ويصب مافيه فى فمه ،

ثم تحول بنظراته الى الصبى الواقف لايريم ، والى الطريق المتلظى بحرارة الشمس ، والى العقبان التى بدت فى السماء كأنها وصمات سوداء ..

وقال المستر تنش :

« ولكن ماجدوى ذهابك اذا كانت المرأة تحتضر ؟ »

« اننى أعرف هؤلاء النـــاس . . أنهـــا أبعـــد ماتكون عن حـــالة الاحتضار »

« أيا كان الأمر فانك لن تفيدها فى شىء .. »

وكان الصبى يرقب الاثنين كأن الأمر لايعنيه فى قليل أو كثير، ذلك أن المناقشة بينهما كانت تجرى بلغة أجنبية لايفهمها ولا يعنيه أن يفهمها .. وحسبه أن يظل فى مكانه حتى يمضى الطبيب معه..

ورد الرجل الغريب على المستر تنش فى حدة قائلا :

« انك لاتدرى شيئا .. انك تردد مايردده الناس دائما ، وهو أننى لا أستطيع أن أفيد أحدا .. »

وأمسك برهة وهو يرتعد من تأثير الخمر أو من تأثير الشـــعور الرهيب بالمرارة ، ثم أردف قائلا :

« اننى أسمع هذه العبارة تقال عنى فى جميع أركان الأرض »

فقال المستر تنش بهدوء :

« على كل حال .. فهناك سفينة أخرى ستبحر بعد أسبوعين أو ثلاثة .. ومعنى هذا أنك رجل محظوظ سعيد .. فى مقدورك أن تغادر هـــذه المنطقة فى أى وقت .. انك لم تركز فيهـــا كل ماتمتلك . . »

وشرع يفكر فى ممتلكاته .. المثقاب اليابانى .. ومقعـــد خلع الأسنان ، والمصباح ، والملاقيط ، والفرن الصغير الذى يصنع فيه ذهب الحشو ، وقطعة أرض مرهونة فى الريف ..

وقال الرجل الغريب للصبى :

« هلم ! »

ثم استدار نحو المستر تنش وراح يشكر له حسن ضيافته بطريقة لاتخلو من هذه الكبرياء المزعومة التى يدركها المستر تنش تماما .. انها تشبه كبرياء مرضاه الذين يجلسون على مقعد خلع الأسنان وهم يرتعدون فى أعماق نفوسهم ؛ ولكن تلك الكبرياء المزعومة تأبى عليهم أن يكشفوا عن خوفهم .

وختم الرجل الغريب عبارات شكره قائلا :

« ولسوف أصلى من أجلك »

« انك على الرحب والسعة فى أى وقت . . »

وركب الرجل الغريب احدى البغلتين وامتطى الصبى متن الاخرى ومضى فى المقدمة تحت وهج الشمس الحامية نحو المستنقعات المفضية الى المناطق الداخلية ، وكان الرجل الغريب قد جاء من هذه المناطق الداخلية فى الصباح ليلقى نظرة على السفينة جنرال أبريجون . وهاهو ذا يعود اليها ، انه يترنح قليلا على مقعد السرج من تأثير الخمر ، وانه لم يلبث أن أصبح نقطة سوداء صغيرة فى نهاية الطريق .. !

وعاد المستر تنش الى داخل كوخه بعد أن أغلق الباب الخارجى بالمفتاح « لان الانسان لايدرى ماتأتى به الرياح » وكان لايزال يشعر بهذه المتعة الرقيقة التى أحس بها وهو يتبادل الحديث باللغة الانجليزية ـ لغة وطنه ـ مع الرجل الغريب ! أما الآن ، فانه يواجه الوحشة والانفراد والعزلة مرة أخرى ، ولكنه لم يحفل كثيرا بهذا الأمر بعد أن تعود عليه ، وانه ليجلس على المقعد الهزاز ويروح به ويجىء متأرجحا وهو ينظر الى وجهه فى أديم الشراب بالكأس ، وكانت حركة اهتزاز المقعد تتيح له شيئا من التيار الهوائى الذى يخفف حرارة الجو بالغرفة ، وكان ثمة طابور من النمل يتحرك عبر الغرفة الى بعض قطرات من البراندى سقطت من كأس الرجل الغريب .. وكانت مجموعات النمل تتمرغ فى البراندى ، ثم تمضى الى الجهة المقابلة حيث تختفى . وهناك .. فى النهر .. انطلق

صفير السفينة مرتين دون أن يعرف المستر تنش السر فى هذا ..

وكان الرجل الغريب قد ترك وراءه الكتاب .. كان ملقى تحت المقعد الهزاز ، وكان على الغلاف صورة امرأة فى ملابس القرن الماضى متهالكة على سجادة تبكى وهى تحتضن حذاء بنيا لامعا مدبب الطرف لرجل كان واقفا ينظر اليها فى نفور وقد فتل شاربيه ، وكان عنوان الكتاب « القديس الخالد » . وبعد برهة التقط المستر تنش الكتاب ، فلما فتحه ، لم يستطع أن يقرأ مما فيه شيئا ، اذ كان مكتوبا باللغة اللاتينية . وبعد أن فكر برهة ، أغلق الكتاب ، ومضى به الى غرفة النوم .. انه لايستطيع أن يحرق كتابا ، ولكنه يستطيع أن يخفيه فى مكان أمين . . يخفيه من أى شيء ! انه لايدرى على التحديد ، وأخفى الكتاب فى الفرن الذى يصهر فيه ذهب الحشو ، ثم وقف بجانب منضدة العمل فاغرا فاه .. لقد تذكر السبب الذى من أجله غادر الكوخ الى رصيف الميناء .. انها أسطوانة الاثير التى تحملها السفينة « جنرال ابريجون » .. وها هو ذا يسمع ، مرة أخرى ، صفيرها .. وها هو ذا ينطلق بغير قبعة الى الطريق . لقد كان يعتقد أن السفينة لن تبحر قبل ساعات .. ولكن الانسان لايستطيع ان يعتمد على سكان هذه المناطق فى تحديد الوقت ... وليس ادل على هذا من انه رأى ، حين وصل الى رصيف الميناء ، أن السفينة جنرال ابريجون قد ابتعدت عشر أقدام عن المرساة فى طريقها الى البحر .. وعبثا راح يهتف ويصيح ليوقفها ، ولم يجد أى أثر لاسطوانة الاثير على الرصيف .. وعاد يصيح مرة أخرى ، ولكنه لم يلبث أن هدأ فجأة .. حسنا ! .. ان اسطوانة الاثير ليست بأمر مهم . ومن الممكن أن يحتمل مرضاه مزيدا من الالم فى سبيل خلع اسنانهم أو علاجها .

وشرعت نسمات لطاف تهب على السفينة « جنرال ابريجون » وامتدت مزارع الموز على جانبى النهر مدى البصر ، وراح رصيف الميناء يغيب عن ركابها شيئا شيئا حتى لم يبق منه الا بعض ساريات هوائية

قليلة لأجهزة لاسلكية . وغاب الميناء تماما كأنما لم يكن له وجـود وانفتحت أبواب المحيط المتد الى مدى البصر ، وشرعت الامواج الرمادية الضخمة ترفع مقدم السفينة ، وأخذت الديكة الرومية المقيـدة على سطحها تتدحرج من مكان الى آخر .. ووقف ربانها فى برج القيـادة الصغير وقد تعلقت فى شعر رأسه خلالة « سـلاكة أسـنان » ، وبدأ الشاطىء يتراجع فى بطء ، ولكن بانتظام ، وأسدل الليل استاره فجأة ، وتألقت فى قبة السماء النجوم وأضىء مصباح زيتى واحد فى مقـدمة السفينة ، وأخذت الفتاة ــ التى شاهدها المستر تنش ــ تردد بصوت خفيض محزون أغنية عاطفية هادئة عن الزهرة التى تناثرت عليهـا دماء الحب الحقيقى .. وكان منظر الخليج الواسـع ، والنسمـات المنعشة ، والمياه الممتدة الى غاية البصر ، وخط الشاطىء الذى اختفى فى طيات الظلام كما تختفى المومياء فى جوف المقبرة ، كان هذا كله قـد أثار فى قلب الفتاة احساسا بالحرية وبجمال الحياة « أننى سعيدة » هكذا راحت تردد لنفسها دون أن تدرى لماذا . . أننى سـعيدة . . سعيدة . .

وهناك .. فى الداخل ... بعيــدا . فى جوف الظلام ، كانت البغلتان تمضيان .. وكان أثر الخمر قد زال تماما من رأس الرجـل الغريب . ومضى هو يفكر خلال اجتيازه المستنقعات والممرات الجبلية بأنه لن يستطيع اجتياز هذه المناطق مرة أخرى اذا أقبـل موسـم الامطار ، ولما سمع صفير السفينة جنرال ابريجون من بعيد ، أدرك المعنى الذى ينطوى تحت هذا الصفير .. انها فى الطريق الى العـالم الواسع .. وانه لن يستطيع اللحاق بها .. وانه ليشعر ــ رغما عنه ــ بالكراهية لهذا الصبى الذى يتقدمه ولامه المريضة أيضـا . . . وتصاعدت من حوله رائحة الرطوبة والعطن .. ان هذه المنطقة تبدو وكأنها ظلت منذ الازل رطيبة معطنة . . لم تكن جافة حتى عنـدما كانت المجموعة الشمسية قطعة واحدة ملتهبة تدور فى الفضاء اللانهائى . .

لعلها كانت مخصصة لامتصاص السحب والضباب الذى كان يخيم على الوجود فى تلك الأحقاب . .

وشرع يدعو ويبتهل الى الله فى نفسه وهو يتـأرجح على سرج البغلة ، ثم تمتم أخيرا بأنفاس فيها بقية من رائحة الخمـر « ليتهم يقبضون على . . ليتهم يقبضون على »

لقد حاول أن يهرب . . ولكنه لم يهرب . . لقد كان أسير شيء حال دون الهروب . .

الفصل الثاني

العاصمة

كانت شرذمة جنود البوليس تسير فى طريق العودة الى القسم وكان الجنود يسيرون فى غير انتظام ، ويحملون بنادقهم كيفما يكون وكانت سترات بعضهم تنقصها الازرار ، وكانت « قلشينات » بعضهم الآخر تتهدل على أحذيتهم وكان بين صفوفهم رجال صغار الجرم ، سود ، العيون غامضو النظرات ، ينحدرون من أصول الهنود الحمر ، سكان البلاد الاصليين .

وكانت الساحة الصغيرة الواقعة على قمة التل ، مضاءة بمصابيح كبيرة شد كل ثلاثة معا فى قطعة من السلك مدلاة من الاسلاك العامة المشدودة فى أعلى . . وكان يحيط بها ، أى بالساحة ، بيت الحاكم العام ، ومبنى الادارة المالية ، وعيادة طب الاسنان ، ومبنى السجن ، وكان بناء عتيقا يرجع تاريخه الى ثلاثمائة عام مضت .. وشارع ينحدر نحو النهر ، ثم الجدار الخلفى للكنيسة ، ثم صفوف من المنازل تتخللها شوارع ضيقة موحلة ، تؤدى كلها الى النهر أو الى مستنقعات من الماء الآسن ، وكان الطلاء الاحمر القاتم قد تساقط فى أماكن كثيرة من واجهات البيوت وكشف عن جدرانها المشيدة من الطين والاوحال .

وحول جوسق المياه الغازية كانت جماعة من ذوى القمصان الحمراء تدور فى صفين .. صف مكون من الرجال ــ أكثرهم فى سن الشباب ــ وصف من النساء . . وحول الساحة كلها كانت شرذمة الجنود تقوم بجولتها الليلية الاخيرة قبل أن تعود الى معسكرها فى فناء القسم .

وكان الضابط يسير فى مقدمة جنوده ، وأمارات وجهه تنم عن الاشمئزاز العميق ، وكأنما هو يمضى أمامهم رغما عنه ، أو لعل هذا الجرح الذى ترك آثاره على فكه دليل على محاولة سابقة للهرب من الخدمة .. وكان حزامه وجراب مسدسه وتزلك حذائه كلها نظيفة لامعة ، وأزرار سترته كاملة ، وكانت أنفه حادة طويلة .. وكانت أناقته واهتمامه بمظهره ـ فى منطقة نائية كهذه ـ ينمان عن رغبة كامنة فى الطموح والارتقاء .

وتصاعدت الى الساحة من مياه النهر والمستنقعات رائحة كريهة نفاذة ، وجثمت العقبان على أسقف البيوت وقد أخفت رؤوسها تحت أجنحتها السوداء ، وبين الحين والآخر يبرز أحدها رأسه ويحكها بمخلبه ثم يعود للنوم .. وفى تمام التاسعة والنصف مساء ، أطفئت جميع الأنوار بالساحة ..

وأدى أحد جنود البوليس تحية المساء ، بطريقة بدائية ، ومن ثم عادت شرذمة الجنود الى المعسكر ، وهناك، وبدون انتظار الأمر،راحوا يعلقون بنادقهم على الجدار القريب من غرفة الضابط ، ثم تفرقوا .. بعضهم صعد للنوم فى الأسرة المعلقة ، وبعضهم ذهب الى دورة المياه.. وقليل منهم ألقوا بأحذيتهم ورقدوا على الأرض ، وكان طلاء الجدران قد تساقط من اكثر من موضع ، وكانت ثمة عبارات لامعنى لها مكتوبة على الأجزاء الثابتة من الطلاء الجيرى الأبيض ، خطها عدد كبير من رجال البوليس على مر السنين ، وفى جانب من فناء المعسكر كان ثمة رجال من سكان القرى جالسين على دكة خشبية ، مطرقى الرؤوس ، لايكاد يشعر بهم أحد ، وفى دورة المياه كان يسمع صوت اثنين يتشاجران ..

وقال ضابط البوليس سائلا :

« أين المدير »

ولم يعرف أحد مكان المدير وان كان أكثرهم يعتقد أنه كان يلعب البلياردو ـ هوايته الرياضية المفضلة ـ فى مكان ما بالمدينة .وجلس

الضابط متوتر الأعصاب الى مكتب المدير ، وكان مرسوما على الجدار الكائن خلفه ، صورة قلبين متعانقين رسمت بقلم الرصاص .

وفجأة هتف قائلا فى غضب موجها الكلام الى وكيله .

« ماذا تنتظر ؟ هلم احضر المتهمين . . »

وحضر المتهمون ، الواحد بعد الآخر ، مطرق الرأس ، يحمل قبعته فى يده . وشرع الضابط يقرأ اسم كل منهم والتهمة الموجهة اليه « فلان الفلانى متهم بالسكر والعربدة ، خمس بيزات غرامة » ويقول أحدهم محتجا « ولكنى لا أستطيع ياصاحب السعادة أن أدفع هذه الغرامة . . دعنى أشتغل بها فى تنظيف غرفات السجن ودورة المياه . »

ويعود الضابط وينادى بعض الاسماء « فلان الفلانى متهم بنزع احدى اللافتات الانتخابية . . غرامة خمس بيزات » « وفلان الفلانى ضبط وهو يحمل شعار مذهب دينى تحت قميصه . . غرامة خمس بيزات »

وظل الضابط ينادى الأسماء ويوقع الغرامات حتى فرغ من هذه المهمة دون أن يعثر على مخالفة خطيرة تثير الاهتمام . . وظل البعوض يدخل الغرفة من الباب المفتوح وهو يرسل طنينه فى غير القطاع . .

وسمع الضابط أحد الحراس فى الخارج وهو يؤدى التحية بالسلاح، فأدرك أن مدير البوليس قد حضر . . ولم يلبث هذا أن دخل بجسمه البدين ، ووجهه المكتنز المستدير ، وبذلته البيضاء ، وقبعته الواسعة، وحزام الذخيرة المعلق فيه مسدسه الكبير . وكان يمسك بيده منديلا يضغط به على فمه ويقول فى توجع :

« يا للألم فى أسنانى . . يا للألم . . ! »

فقال الضابط له فى لهجة ازدراء :

« ليس ثمة جديد فى أحداث اليوم . . »

فواول المدير قائلا :

« لقد عنفنى الحاكم العام مرة أخرى اليوم »

« لماذا . . ! ؟ هل رآك تشرب الخمر ! »

« لا . . وانما بسبب ذلك الراهب »

« أي راهب ؟! لقد قتلنا بالرصاص آخرهم فى الأسبوع المـاضى ! »
« انه لايعتقد هذا »
« اللعنة على كل شيء .. فليس لدينا صور نستدل بها على الهاربين من هؤلاء »

ثم استدار برأسه ونظر الى صورة مجـــرم أمريكى مطلوب القبض عليه بعد أن هرب عقب ارتكابه احدى جرائم القتل .. وكانت الصورة تبين وجـه المجرم فى وضعين ومن زاويتين ، وكانت نشرات أوصافه قد أرسلت الى جميع مراكز البوليس فى أمريكا الوسطى ، وراح الضابط يتأمل ـ فى لهفة ـ ملامح المجرم ذى الجبين الضـيق والعينين اللتين تتركز نظراتهما المجنونة على شيء واحد .. لشـد مايتلهفهذا الضابط لو ساقت الأقدار هذا المجرم الى أمريكا الوسطى حتى تتاح له فرصة القبض عليه . ولكن هذا احتمال بعيد .. فمن المرجح أن يقبض على المجرم الهارب فى ماخور بأحدى مدن الحدود .. كمدينة جواريز ، أو بدراس نجراس ، أو نوجلاس ..

وعاد المدير يقول فى لهجة احتجاج :

« يقول الحاكم ان ثمة راهبا مطلق السراح .. أه لشد ماتؤلمنى أسنانى » .

ومد يده الى جيبه الخـلفى ليحصـل على شيء ، ولـكن جراب مسدسه اعترض سبيل اليد ، وراح الضابط ينقر على الأرض بحذائه فى صبر نافد ، وأخيرا أبرز المدير صفحة من مجلة عليها صورة عدد كبير من الاشخاص المجتمعين حول مائدة ، أكثرهم فتيات فى ملابس حريرية بيضاء ، ونسوة فى منتصف العمر تنم وجوههن عن الرهبـة والخشوع ، ووراء المجتمعين ظهرت رؤوس بعض المتفرجين وقد بدت عليهم أمارات الترقب والخوف ، وكانت الصورة قد التقطت منـذ سنوات لاحد الاجتماعات الدينية اثناء « العشاء الربانى » . وقد ظهر بين الفتيات والنساء صورة راهب كاثوليكى فى ملابس مدنية ، قصير

يدين ناتىء العينين ، يبدو عليه انه يتلقى فكاهات المجتمعـــين فى صدر رحب وكأنما هو واثق من مكانته الرفيعة بينهم .

وقال المدير مشيرا الى الصورة :

« اقد التقطت منذ سنوات عديدة »

« ان الراهب فيها يبدو كغيره من الرهبان والقساوســة . . لا شيء يميزه عنهم »

ورغم ان وجــه الراهب فى الصورة يبدو غير واضح تماما ، الا أن عين الناظر لاتخطىء ذلك الوجه المستدير الحليق الناعم ،المترف، الذى ينم عن نجاح صاحبه المبكر فى الحياة ، وعن استمتاعه بالنفوذ ورفعة الشأن والشعور بالاستقرار والأمن .. نعم .. كان الوجه البادى فى الصورة ينم عن أن صاحبه رجل سعيد ، يعرف كيف يؤثر فى القلوب بمواعظــه ، وكيف يخفف عن النفوس المحرومــة بفكاهاته ، وكيف يتقبل احترامات الجميع بلباقة وتلطف . . .

وتحركت فى اعماق نفس الضابط الوان من الكراهية الطبيعية التى تقوم بين الكلب والقط ، ثم اذا هو يقول :

« اقد أطلقنا الرصاص عليه أكثر من ست مرات ! »

« ان الحاكم تلقى بلاغا عنه .. ويقول البــلاغ ان هذا الراهب حاول فى الاسبوع المــاضى الهرب الى ميناء فيراكروز على السفينة جنرال أبريجون » .

« ولمــاذا لايحاول الحاكم أن يستعين بذوى القمصــان الحمراء للقبض عليه » .

« لقد أوشكوا أن يوقعوه فى الفخ ، وكانوا ينتظرونه على ســطح السفينة ، ولكنه لم يبحر عليها فى اللحظة الاخيرة .. »

« وماذا حدث له ؟ »

« لقد عثروا على البغلة التى كان يركبها .. والحاكم يصر على أن نقبض عليه خلال هذا الشهر قبل موسم الامطار »

« وأين كانت ابراشيته .. ؟ ! »

« في مدينة كونسيكيون والقرى المحيطة بها .. »
« هل ثمة تقارير مسهبة عنه ؟ هل يعرف أحد من الاهالى كيفية تنكره الآن ؟ »
« كل ما يعرف عنه أنه يمكنه أن يعيش متنكرا فى هيئـــة رجل أمريكى مهاجر .. فقد أمضى بضعة أعوام فى احدى الجامعات الامريكية ، وقد ولد فى مدينة كارمن ، وكان أبوه أمين مخزن .. وهذا كل مانعرفه عنه ، ولا شك أنه قليل .. »
وقال الضابط وهو يعيد النظر الى الصورة :
« ان جميع الوجوه تبدو فى نظرى متشابهة »
وكانت أمارات وجهه وهو يحدق فى الصورة تنم عن الانفعالات الرهيبة التى راحت تصطخب فى أعماق نفسه وتكاد تبلـغ به حد الخوف .. انه ينظر الى الفتيات فى ملابسهن الحريرية البيضـاء ويتذكر رائحة الطيب المركز المنساب فى جو الكنيسة ، عندما كان يذهب اليها غلاما .. والقناديل ، وحفيف الملابس ، والشـــعور بالتقدير الشخصى ، والفلاحين العجائز الراكعين أمـام الصـــور المقدسة ، وقد بسطوا أيديهم يرسمون بها علامة الصليب ، بينما تنطق وجوههم بالارهاق الذى يعانونه بعدساعات العمل فى مزارع الموز ، والـكاهن يدور عليهـم ليجمع تبرعاتهـم ، وليعنفهم على خطاياهم الخفيفة ــ اللمم ــ دون أن يضحى هو بشىء الا بالحرمان من الزواج .
وقال الضابط يحدث نفسه :
« ماأبسط تضحية هؤلاء الكهنة والرهبان .. ما كان أبسطها وأسهلها . . اننى شخصـيا لا أفكر فى الزواج .. بل لا أفكر فى النساء على الاطلاق .. »
ثم أردف قائلا بصوت مسموع :
« لسوف نقبض عليه .. حتما .. ان عاجلا أو آجلا »
وولول المدير قائلا :

« أسنانى .. أسنانى ستقتلنى .. انها تسمم حياتى كلها .. تصور انى لم أظفر اليوم فى البلياردو بأكثر من خمســـة وعشرين بنطا ؟ ؟ » .

« اذن يجب أن تغير طبيب أسنانك .. »

« انهم جميعا متماثلون .. »

وتناول الضابط الصورة وثبتها فى الجـدار بجانب صورة المجرم الامريكى الهارب جيمس كالتر قاطع الطريق ، ولص المصارف، وقاتل الانفس البشرية .. وابتسم الضابط وهو ينظر الى صورة المجرم الذى بدا كأنه يتفرج بدوره على الاجتماع الدينى فى الصورة القريبة منه ، ثم قال كأنما يحدث نفسه :

« انه على كل حال .. رجل .. »

« من ؟ ! »

« المجرم الامريكى الهارب »

« هل سمعت بما أرتكبه فى مدينة هوســتون .. لقـد هرب سارقا عشرة آلاف دولار بعـــد أن قتل اثنــين من رجال البوليس الامريكى » .

« اثنين من رجال البوليس » .

فأومأ المدير ثم قال وهو يضرب بعنف بعوضة لسعته :

« نعم .. وان محاربة رجل كهذا لا تخلو من بعض الشرف ان كنت تدرك ما أعنى »

فآمن الضابط على حديثه قائلا :

« ان رجلا كهذا ــ رغم اجرامه ــ أهون خطرا من الراهب الهارب .. لقد قتل حقا عددا من الناس .. وكلنا سوف نموت .. وسرق مالا كان سينفقه غيره على كل حال .. أما هؤلاء الرهبان ــ »

وأرتسمت على وجهه مختلف الانفعالات وهو واقف بحـــذائه المدبب اللامع ، انها انفعالات الرجل الذى يؤمن بفكرة معينة ، أيا كانت هذه الفكرة ، والذى يريد أن يرضى طموحه ، وحقده ، بالقبض على

هذا الراهب المبجل الذى كان ضيفا فى أول اجتماع دينى خطير .

وعاد المدير يولول قائلا :

« لاشك أن هذا الرجل يتمتع بدهاء شيطانى أتاح له البقـــاء مختفيا كل هذه السنوات .. »

« ان فى مقدور كل انسان أن يفعل هذا .. ونحن لا نهتم بأمـــر هؤلاء الفارين الا اذا وقعوا فى أيدينا .. ولاثبت هذه الحقيقـــة فانى أضمن لك القبض عليه فى خلال شهر .. اذا ـ »

« اذا ماذا ـ ؟ ! »

« اذا أتيحت لى السلطة الكافية » .

« ان الامر أخطر من مجرد الكلام .. ماذا فى وسعك أن تفعل »

« ان هذه الولاية صغيرة ومحدودة بالجبال فى الشمال وبالبحر فى الجنوب ، ويمكننى أن أفتش كل ركن فيها .. كل شارع .. كل بيت .. »

فتأوه المدير وهو يضع منديله على فمه ثم قال :

« ان الامر يبدو لك سهلا فى ظاهره .. »

وقال الضابط بحماس :

« لسوف أخبرك ماذا يمكن أن أفعل .. لسوف آخذ من كل قرية رجلا ليكون رهينة تحت يدي .. فاذا لم يبلغنى أهل القرية عن الراهب المختفى بمجرد ظهوره بينهم ، فسوف أقتل الرهائن رميـــا بالرصاص ، ثم أقبض على راهائن آخرين .. »

« معنى هذا أن كثيرا من هؤلاء الرهائن سيموتون .. »

فقال الضابط فى نشوة وابتهاج :

« كل شيء يهون للقضاء نهائيا على هؤلاء الرهبان .. »

« ربما تكون على صواب .. »

وسار الضابط فى الطريق الى مسكنه خلال المدينة الهاجعة .. لقد عاش كل حياته فى تلك المنطقة ، وقد كان له دور كبير فى تنفيـــذ القوانين التى قضت على كل مظاهر العقيدة والدين .. وتغيرت معالم

المدينة الى حد كبير .. فأصبحت المدرسة دارا لنقابة العمال ، والمزارعين ، وغدت الكتدرائية بحدائقها ملعبا للاطفال وساحة للتدريب الرياضى . ولسوف يشب الجيل الجديد من الاطفال وهم لا يعرفون شيئا عن العقائد والاديان ...

وبلغ مسكنه أخيرا ، وكان كغيره من المنازل ، مكونا من طابق واحد مطلى الواجهة بالجير ، وتحيط به حديقة صغيرة فيها قليل من الزهور وبئر .. وكانت النوافذ المطلة على الطريق محصنة بقضبان الحديد ، وفى الداخل ، كانت غرفة الضابط تحتوى على سرير مصنوع من خشب الصناديق ، فوقه حشية من القش ، ووسادة وغطاء ، وعلى الجدار صورة الحاكم ، وجندرة ، وعلى الارضية منضدة ومقعد هزاز .. وكانت الغرفة ، فى جملتها ، تبدو فى ضوء القنديل كانها غرفة فى سجن أو صومعة ناسك فى دير .

وجلس الضابط على حافة سريره ، وشرع يخلع حذاءه ، وكانت تلك هى الساعة التى تعود الاهالى ، قبل القانون الجديد ، أن يتوجهوا فيها بالصلاة الى الله شكرا على انقضاء يوم من أعمارهم فى سلام . وحاول الضابط أن ينسى هذه « الذكريات » بمراقبة الخنافس « أو الفرقع لوز » وهى تصطدم بالجدار المواجه لفراشه ، وكان عددها يزيد عن اثنتى عشرة خنفسة ، تزحف كلها على الجدار بأجنحة محطمة ، وشعر بالغضب يجيش فى صدره وهو يذكر أن كثيرا من الاهالى ، أن لم يكن جميعهم ، لايزالون يؤمنون بوجود آله قادر رحيم عفور .. بل أن هناك بعض الصوفيين الذين يزعمون انهم على اتصال مباشر بالله .. وقد كان هو من قبل صوفيا ولكنه لم ير شيئا ، ولم يتصل بشيء ، ومن ثم أصبح لايؤمن الا بان هذا العالم الذى فيه يعيش مصيره الى العدم والفناء ، وان الانسان كان فى الاصل حيوانا وتطور ، وانه خلق ــ أو وجد ــ لغير هدف معين ..!

ورقد فى فراشه دون أن يخلع قميصه أو سراويله ، واطفأ المصباح ، وشعر بحرارة الجو كانها عدو واقف فى الغرفة لا يريم ،

وسمع من بعيد انغاما تنساب من مذياع .. لعلها موسيقى ترسلها محطة الاذاعة بمدينة مكسيكو ، أو لعلها آتية من لندن أو نيويورك لترفرف فى اجواء هذه الولاية البعيدة المنسية .. وشعر بالغضب على هذه الانغام الاتية من العالم الخارجى لتغزو جو بلاده .. نعم انها بلاده .. وانه ليود لو استطاع أن يحيطها بأسوار عالية من الفولاذ حتى يستطيع – دون تدخل خارجى – ان يمحو منها كل أثر من أثار الماضى .. انه يريد أن يدمر كل شىء .. أن يبقى وحيداً بغير ذكريات .. فان حياته قد بدات منذ خمسة أعوام .. أى منذ صدرت القوانين الجديدة ..

وظل راقدا على ظهره مفتوح العينين ، بينما وصلت الخنافس الى السقف ، وراح يذكر الراهب البدين القصير الذى قتلته جماعة القمصان الحمراء رميا بالرصاص فى ساحة المدافن فوق قمة التل .. وكان راهبا ناتىء العينين أيضا بدرجة « مونسينور » وكان يظن أن درجته هذه سوف تحميه من القتل ، وكان يعرب عن احتقاره لمن هم أقل منه فى الدرجة .. وظل حتى اللحظة الاخيرة وهو يحاول ان يشرح لجلاديه مركزه الرفيع .. وفى اخر لحظة ، تذكر الصلاة فركع على الارض ، وتركه قاتلوه حتى يفرغ من صلاته الاخيرة ، وكان الضابط واقفا يرقب المنظر من بعيد .. لان هذا الامر لم يكن يعنيه مباشرة يومذاك .. وكان ذوو القمصان الحمراء قد اعدموا خمسة من رجال الدين ، وفر اثنان أو ثلاثة ، ولجأ كبير الاساقفة ليعيش فى أمان بمدينة مكسيكو ، وخضع راهب منهم للقانون الذى يحتم على رجال الدين أن يتزوجوا ، فتزوج وأصبح يعيش الان مع زوجته فى بيت قريب من النهر ، وقد كان هذا الخضوع لقانون الزواج هو أسطع نجاح للحملة كلها ، فى نظر الضابط ، لان الراهب المتزوج أصبح امام الرأى العام الدليل الحى على خداع زملائه ونفاقهم ، فلو انهم كانوا – هكذا راح الضابط يفكر – يؤمنون حقا بالعقاب والثواب فى

الاخرة ، لاحتمل هذا الراهب بعض التعذيب أو التشرد في سبيل الدفاع عن المبدأ . .

وشعر الضابط ، وهو راقد على فراشه الخشن في جو الغرفة الحار ، بأن كراهيته للراهب الذى خضع لقانون الزواج ، أشد من كراهيته لزملائه الذين احتملوا العذاب والقتل والتشريد .

. . . .

في احدى الغرف الخلفية التابعة للمعهد التجارى ، كانت احدى السيدات تقرأ في كتاب دينى لافراد أسرتها المكونة من فتاتين احداهما في السادسة من عمرها والثانية في العاشرة ، وكانتا جالستين على حافة الفراش ، وابن في نحو الرابعة عشرة من عمره ، وكان معتمدا بكتفه على الجدار وقد ارتسمت على وجهه ابلغ أمارات الملل والفتور .

وشرعت السيدة تقرأ :

« وكان جوان الصغير منذ طفولته مشهورا بتواضعه وتقواه بينما كان الكثير من الاطفال غيره معروفين بالغلظة وفسوله الطبع . ولكن جوان الصغير كان يحرص على اتباع تعاليم السيد المسيح ويدير خده الايسر لمن يضربه على خده الايمن ، وقد ظن والده ذات يوم انه كذب في حديثه ، فضربه ، ثم تبين فيما بعد أن ابنه لم يقل الاالصدق، فراح يعتذر له ، ولكن جوان قال له « أبى العزيز ، ان من حقك ان تعاقبنى كما تشاء كما أن من حق الله أن يعاقب أو يثيب من يشاء . »

وحك الغلام ــ ابن السيدة ــ وجهه بضيق شديد ــ في طلاء الغرفة ، وظلت الفتاتان جالستين على حافة الفراش مبهورتين مما تسمعان من أمهما التى استمرت تقرأ :

« ولكن . . ليس معنى هذا أن جوان الصغير لم يكن يضحك أو يلعب كغيره من الاطفال لا . . فقد كان يفعل هذا كله في حدود الادب ، ثم لا يلبث أن ينسحب من مجتمع اترابه ويتسلل حاملا الكتاب الدينى المصور الى حيث مربط الابقار . . »

وسحق الغلام بقدمه حنفسه كانت تدب على الارض، وقال لنفسه: ان لكل شيء نهاية ،ولسوف ياتى اليوم الذى تفرغ فيه امه من قراءة الفصل الاخير فى هذا الكتاب حيث يسمع كيف يهتف جوان الصغير بحياة السيد المسيح وهو يلفظ أنفاسه الاخيرة فى ساحة الاعدام . ولكن .. ماذا بعد أن تفرغ أمه من قراءة هذا الكتاب الدينى ؟ ... لاشك انها ستبدأ فى قراءة كتاب آخر من هذه الكتب الدينية التى كانت تهرب الى الولاية ، بمختلف الوسائل من مدينة مكسيكو .. ؟

واستأنفت الام القراءة :

« وقد كان الصغير جوان مواطنا مكسيكيا أصيلا .. واذا كان دائم التفكير فى ملكوت الله أكثر من غيره من الغلمان ، فقد كان أيضا صاحب القدح المعلى فى القيام بالادوار التمثيلية بالمسرحيات المدرسية . وقد حدث فى ذات عام أن قامت فرقته المدرسية بتمثيل مسرحية صغيرة امام الاسقف ، وكان موضوع المسرحية يدور حول ما كان يلقاه المسيحيون الاوائل من عذابات وقتل على أيدى الوثنيين .. ولعل احدا لم يطرب كما طرب جوان حين أسند اليه دور نيرون فى المسرحية فقد وجدها فرصة سانحة ليصور شخصية ذلك العاهل الوثنى بصورة تثير الضحك والسخرية ؟ ولعله لم يكن يدرى أنه سيموت فى ميعة الصبا على يد حاكم أقسى وأبشع من نيرون .. وقد كتب زميل له فى فرقته المدرسية ، ويدعى الاب ميجويل سيرا فى مذكراته يقول عن جوان : « لقد كان يوما خالدا فى حياة من شاهدوا جوان وهو يؤدى دوره فى تلك المسرحية » ..

ولعقت احدى الفتاتين شفتيها خفية وهى تقول لنفسها « هكذا تكون الحياة » .

واستأنفت الام القراءة بقولها :

« ورفعت الستار عن جوان ، فاذا هو مرتد رداء ملونا من اردية الاستحمام ، وقد رسم بالفحم على شفته العليا صورة شارب ، ووضع على رأسه تاجا من صفيح علب الحلوى ، ولم يسع الاسقف نفسه

الا أن يبتسم حين تقدم جوان فوق المسرح المدرسى الصغير وبدأ فى القاء . . . ــ »

وكتم الغلام ــ ابن السيدة القارئة ــ تثاء به فى جدار الغـــرفة المطلى بالجير ، ثم قال بصوت كله ضجر :

« هل جوان هذا قديس حقا يا أماه ؟ ! »

« لسوف تصبح قديسا .. فى يوم قريب .. عندما يعلن قدسيته ، والدنا المقدس » .

« وهل هم جميعا على هذه الشاكلة ؟ ! » .

« من هم » .

« الشـــهداء ؟ ! » .

« نعـــم » .

« حتى الراهب « بادر جوزيه » الذى خضع لقـــانون الزواج « وتزوج ؟ »

« كيف تجرؤ وتذكر اسم هذا الرجل الحقير أمامى ؟ انه رمـــز الخيـــانة والاثم » .

« لقد قال لى يا أماه انه يحتمل من العذاب فى حياته أكثر ممـــا احتمل جميع الشـهداء » .

« لقد حذرتك مرارا من مجرد الحديث الى هذا الرجل يا ابنى العزيز » . .

« والراهب الاخر . . الذى زارنا ذات يوم متخفيا . . هل هو فى منزلة جوان » .

« لا . . ليس فى منزلته . . تماما . . أقل منه بعض الشىء » .

« هل هو رجل . . حقير . . ؟ »

« لا . . ليس حقيرا . . »

وعندئذ قالت صغرى الفتاتين فجأة :

« ان له رائحة عجيبة . . ؟ »

وعادت الام تقرأ فى الكتاب قائلة :

« ترى هل كان الصغير جوان شاعرا ، فى تلك الليلة ، بأنه سيكون هو أيضا ، بعد بضع سنوات ، بين القديسين والشهداء ؟ : ان أحدا لا يستطيع أن يجزم . ولكن الاب ميجويل سيرا يخبرنا فى مـذكراته بأن الصغير جوان ظل راكعا يصلى فى تلك الليلة فترة أطول من المعتاد .. ولما حاول زملاؤه فى الغرفة المدرسية أن يعابثوه كالمعتاد .. »

واستمرت الام فى القراءة بصوت هادىء ثابت رقيق ، وظلت الفتاتان الصغيرتان مرهفتى الاذان ، وهما يكونان فى ذهنيهما بعض العبارات الدينية ليفاجئا بها والديهما ، أما أخوهما الغلام ، فقـد ظل يتثاءب وهو معتمد على جدار الغرفة المطلى بالجير ، ويقول لنفسه « لـكل شيء نهاية .. »

وأخيرا انصرفت الام الى زوجها حيث قالت له :

« اننى أشعر بالقلق من ناحية الولد » .

« ولماذا لا تقلقين من ناحية الفتاتين ؟ ان أسباب القلق فى كل مكان » .

« ان الفتاتين قديستان صغيرتان منذ الان .. أما الولد .. فانه يكثر من الاسئلة عن الراهب السكير .. لشد ما أتمنى لو أننا لم نستقبله فى هذا البيت .. »

« لو لم نستقبله ونخفيه لوقع فى قبضة ذوى القمصان الحمراء ، وعندئذ يصبح فى نظرك من القديسين والشهداء .. بل ان بعـض زملائه لايترددون حينئذ عن تأليف كتاب عنه ، ولن ترددى أنت فى قراءة هذا الكتاب على الاولاد » .

« هذا الرجل ؟ ؟ مستحيل أن يكون فى زمرة القديسين ؟ »

فابتسم الزوج وقال :

« أيا كان الامر ، فانه لا يزال يكافح ويناضل من أجل العقيدة . واذا كانت له بعض الرذائل فلانه بشر .. ولهذا فانى لا أصدق بعض مايذكر فى هذه الكتب ،لاننا جميعا من البشر . لسنا معصومين. »

« هل تعلم ماذا سمعت اليوم ؟ ؟ ان امرأة مسكينة حملت ابنهـا

الطفل اليه لكى يعمده باسم بدرو ، ولكن هذا الراهب كان فى حالة سكر كالمعتاد ، فعمد الولد باسم انثوى .. وسماه ... بريجيتا .. تصور .. بريجبتا ؟ ؟

« حسنا .. انه اسم قديس طيب .. »

« انك تثير أعصابى أحيانا كثيرة بمثل هذا الاستخفاف .. وها هو ذا ابنك لا يزال يتحدث الى المدعو بادر جوزيه .. رغم تحذيراتى له .. »

فاتسعت البسمة على شفتى الزوج وهو يقول :

« اننا نعيش فى مدينة صغيرة محدودة .. نائية وليس لنا مفر من الاعتراف بالواقع ، واكبر الظن أن العالم الخارجى لا يكاد يشعر بوجودنا .. ولم يبق لدينا من يمثل الكنيسة والدين الا « بادر جوزيه » المتزوج ، والراهب السكير .. فاذا لم نكن راضين عنهما ، فيحسن بنا أن نرحل .. »

وشرع يرقب تاثير كلماته عليها فى هدوء وصبر .. فقد كان اكثر من زوجته ثقافة ، فهو يحسن الكتابة على المكناب « الالة الكاتبة » ، وهو يعرف فن تنظيم المكتبات ، وقد سبق له السفر الى مكسيكو ــ العاصمة ــ كما أنه يعرف كيف يقرأ الخرائط الجغرافية ، ومن ثم فهو يعلم أن المسافة بين هذه المدينة ــ عاصمة الولاية ــ وبين الميناء الصغير تستغرق عشر ساعات فى السفر عن طريق النهر ، والمسافة بين الميناء الصغير الى مدينة فيرا كروز تستغرق نحو اثنتين واربعين ساعة فى عرض البحر ، وهذا هو أحد طريقى الرحيل عن هذه الولاية الملحدة ، أما الطريق الاخر ، فيقع فى الشمال ، عبر المستنقعات والجبال التى تفصل بين هذه الولاية والولاية التالية . وفى هذا المخرج الشمالى لا توجد طرق ممهدة ، وانما ممرات لايمكن السير فيها الا للبغال ، وقرى للهنود الحمر ، وبعض السهول الوعرة . ويقع المحيط الهادى بعد هذا كله على مسافة مائتى ميل ..

وقالت الزوجة أخيرا :

« اننى أفضل الموت على الخضوع لهذه القوانين الالحادية » .
« نعم .. نعم .. طبعا هذه مسألة لا تحتاج الى مناقشة ، ولكن علينا أن نستمر فى الحياة بقدر الامكان .. »

. . . .

. . . .

جلس الرجل العجوز على صندوق خشبى فارغ فى الفناء الجاف الواقع أمام منزله ، وكان بدينا جدا ، لاهث الانفاس ، وقد كان يلهث قليلا كانما بذل مجهودا فوق طاقته فى حرارة الجو .. وكان فيما مضى مشغوفا بعلم الفلك ، وهو الان يحاول الان أن يقرأ حظه ومايخبئه له الغيب ، بالنظر الى النجوم ؟ وكان يرتدى قميصا وسراويل ، ولكن قدميه كانتا عاريتين .. ومع هذا كله ، فقد كانت تبدو عليه بوضوح بعض سمات رجال الدين . فلا شك أن أربعين سنة فى خدمة الدين قد وسمته بطابعها .

وكان السكون التام مخيما على جو المدينة بعد أن نام كل من فيها ..

ولمعت النجوم فى ذلك العالم البعيد كأنها الامل .. ولكن هذا العالم ليس هو كل الوجود .. وليس من شك فى أن السيد المسيح لم يمت ، وانما لايزال حيا فى مكان ما بهذا الوجود .. ولكن الرجل البدين لم يعد يشعر بهذا العالم البعيد المتالق بالامل .. لقد أصبح بالنسبة اليه ، عالما مظلما ، مغلفا بالصعاب ، يتيه فى الوجود كسفينة مهجورة .. نعم .. انه يشعر أن خطيئته قد طوت هذا العالم كله ، وأفقدته كل أمل فى الدنيا أو فى الاخرة ..

وارتفع صوت امرأة من الغرفة الوحيدة التى يقيم فيها تقول له بلهجة آمرة :

« جوزيه .. بادر جوزيه » .

انه الراهب الذى خضع لقانون الزواج .. وان المرأة التى تنادى عليه هى زوجته ! وانكمش فى نفسه كأنه عبد فى سفينة قراصنة

عند سماع صوتها ، وتحول بنظراته عن السماء وهربت التأملات من ذهنه .. وأخذت الخنافس تزحف فى الفناء نحوه ..

وتكرر النداء باسمه .. وشرع هو يحسد فى أعماق نفسه زملاءه الرهبان الذين استشهدوا ..لقد استراحوا بسرعة.. لقد أخذوا الى ساحة المدافن هناك ، وأوقفوا بالقرب من الجدار وأطلق الرصاص عليهم ، وفى أقل من ثانيتين ، انطفأت جذوة الحياة من أجسادهم ، وأصبحوا فى نظر الجميع ، شهداء ..

اما هو فأنه لايزال يعيش .. انه فى الثانية والستين من عمره وقد يبلغ التسعين من العمر .. أى قد يستمر فى الحياة ثمانية وعشرين عاما .. وانها لفترة طويلة ،ليس فيها ما يستحق أن يذكر الا الفترة الواقعة بين طفولته ، وبلوغه مرحلة الرجولة بعد أن تلقى دراسته العالية وظفر بمنصبه الدينى ..

وارتعد جسمه وهو يسمع صوت زوجته مرة أخرى تقول له :

« هلم ياجوزى الى الفراش »

انه يعرف أن زواجه كان من الاحداث المثيرة للضحك والسخرية . فزواج الرجل العجوز مضحك فى ذاته ، فما بالك بزواج راهب عجوز !!

وشرع يفكر فى نفسه وفى موقفه ، وكأنما تجسمت افكاره ،وراحت تنظر اليه وهو جالس على الصندوق الخشبى وتصدر حكمها عليه . .ليخيل اليه انه رجل منبوذ من رحمة الله والناس ، وانه غير جدير حتى بالعذاب فى جهنم .. أنه مجرد عجوز بدين مثير للسخرية والتحقير .. انه الانموذج الحق للايمان المزعزع . والتهالك المقيت على البقاء فى الحياة بأى ثمن .. لقد رأى فى الايام الاولى ، رجلا متعصبا فى الحاده يدخل الكنيسه ، عند ما كانت الكنائس لم تزل قائمة ، ويبصق على صورة العذراء وتجمع المصلون عليه وحملوه ، ثم شنقوه كما كانوا يفعلون مع تمثال يهوذا المصنوع من

القماش والقش أثناء الاحتفال بالخميس المقدس «خميس الصعود» وان بادر جوزيه يعتقد أن هذا الرجل الملحد أفضل منه على كل حال .. أفضل منه لانه ضحى بنفسه فى سبيل مبدأ يؤمن به ، ايا كان هذا المبدا من الفسولة والخيث ـ اما هو .. فلا يعدو ان يكون شيئا تافها .. لا قيمة له .. كالصورة الدميمة البشعة التى يخيفون بها الاطفال .

وترنح فى جلسته على الصندوق الفارغ مرة أخرى حين سمع صوت زوجته يقول :

« جوزيه .. ماذا تفعل فى الفناء .. هلم الى الفراش ! »

ماذا يفعل !! أنه لايفعل شيئا على الاطلاق .. لم يعد هناك عمل بالكنيسة .. لم تبق شعارات دينية يقوم بها ، أو قداس يؤديه ، أو اعترافات ينصت اليها من الخاطئين . بل انه لم يعد يصلى ، ولو سرا ، لان الصلاة تحتاج الى قوة ارادية ووازع دينى ، وهو قد أصبح محروما من الامرين . لقد عاش فى خطيئة مستمرة دون أن يجد أحدا من زملائه ليعترف بين يديه ويتطهر ..

نعم .. انه لم يعد يفعل شيئا على الاطلاق .. انه يجلس فقط . ويأكل .. يأكل كثيرا .. أكثر مما ينبغى .. انها تطعمه وتسمنه وتحتفظ به كانه خنزير كبير تزمع أن تعرضه فى معرض المواشى وتظفر من أجله بالجائزة . !

وسمع اسمه يتردد مرة أخرى .. واستبد به الفواق من فرط توفز أعصابه وهو يوشك أن يواجه زوجته للمرة الثامنة والثلاثين بعد السبعمائه . انها هنـاك .. فى الفراش الذى يحتـل نصف الغرفة .. تحت الكلة .. عجفاء .. ضامرة ، مغضنة الوجه ، تبدو ضفيرة شعرها الإشيب كذيل خنزير .. ومع هذا فهى تعتقـد أنها فى مركز رفيع بالنسبة لغيرها من نساء المدينة .. ألم يقرر لها الحاكم معاشا دائما ؟! .. أليست هى زوجة الراهب الوحيد الذى خضع لقانون زواج الراهبان ؟ ! لمـاذا لا تشعر بالفخر ؟ ! ولماذا

لايتضاعف شعورها بهذا الفخر وهى تذكر أنها لم تكن من قبل غير خادمة أو مديرة بيت هذا الراهب نفسه ، تقف بين يديه ، ولا تكاد ترفع عينيها اليه !

« جوزيه .. ! »

« اننى أت ياعزيزتى »

وفيما هو ينهض عن الصندوق الفارغ ، سمع ضحكة خفيفة ترن فى مكان قريب ، فرفع عينيه الضيقتين كأنه خنزير يشعر بوصوله الى المجزر ، ثم اذا هو يسمع صوت طفل يصيح به « جوزيه »

وراح يتلفت مدهوشا فى جوانب الفناء ، ثم وقعت نظراته أخيرا على وجوه ثلاثة أطفال فى نافذةذات، قضبان بالمنزل القريب المواجه لمنزله .. وكان الاطفال الثلاثة ينظرون اليه فى اهتمام عميق ، فتجاهل أمرهم ، واستدار نحو باب منزله وراح يدب بجسمه البدين فى بطء..وفجأة سمع صوتا رفيعا يصيح «جوزيه» ! فالتفت برأسه حيث رأى الاطفال الثلاثة يتضاحكون فى سرور شديد . ولم يبد فى عينيه الصغيرتين أية أمارات من الغضب .. فهو يرى انه ليس من حقه أن يغضب ، ومن ثم فتح شفتيه فى بسمة واهنة شاحبة لامعنى لها ، وكأنما أطمعت هذه البسمة الاطفال فيه ، أو كأنما كانت الاذن لهم ليضاعفوا من عبثهم ، فاذا هم يصيحون مقلدين صوت زوجته :

« جوزيه .. جوزيه .. هلم الى الفراش » .

وملات أصواتهم العابثة فناء البيت ، وابتسم هو مرة أخرى فى ذلة ومسكنة ، وأشار لهم راجيا الصمت ، ولكنه كان يدرك أنهم لن يطيعوا اشارته ، لان الطاعة وليدة الاحترام ، وهو لم يعد موضع الاحترام فى أى مكان — فى البيت ، أو فى الشارع ، أو فى المدينة ، أو فى كل مكان تحت النجوم ..

الفصل الثالث

((النهر))

كان الكابتن «فيلوز» يغنى لنفسه بصوت مرتفع يعلو على هدير المحرك الصغير فى مقدمة الزورق البخارى ؟ وكان وجهه الكبير الملفوح بحرارة الشمس يبدو كخريطة منطقة جبلية فيها بقع من اللون البنى المتدرج ، وفيها بحيرتان صغيرتان زرقاوان ، هما .. العينـان !

وكان ينظم الاغانى لنفسه وهو يمضى ، ولكن صوته كان خلوا من جمال النغم ، وانما هو صوت مرسل ، لكلمات مرسلة « اننى عائد الى البيت .. الى البيت ، حيث الطعام الشهى فى انتظارى .. اننى لا أحب أن أتناول افطارى فى المدينة ! » .

وانحرف من المجرى الرئيسى للنهر الى أحد فروعه ، فشـاهد على الشاطىء الرملى بعض التماسيح الراقدة فوق رمال الحـافة ، فشرع على الفور « ينظم » لها بدورها أغنية ويرددها ... لقد كان الرجل سعيدا .. وكانت مزارع الموز تمتد على الجانبين الى مـدى البصر ، ولم يكن يقطع السكون المخيم على المنطقة غير صوته المدوى وأزيز محرك الزورق ، ولم يكن ثمة أحد غيره فى تلك النواحى .. ولهذا كان يمشى كأنه يسبح فى بهجة على أمواج الطفولة السـعيدة رغم أنه يؤدى عملا لا يؤديه الا الرجال .. انه لم يشعر بمثل هـذه السعادة والتحرر من الاعباء الا مرة واحدة منذ أمد بعيد .. عنـدما كان يشترك فى الحرب العالمية بالميدان الغربى بفرنسا .. ميدان الخنادق والقنابل والموت الجاثم فى أية لحظة ..

ومضى الزورق به فى فرع النهر الى منطقة من المستنقعات .. وحلق فوق رأسه أحد عقبان الجو .. وفتح الكابتن فيلوز صندوقا

صغيرا تناول منه شطيرة راح يلتهمها فى شغف .. ما أطيب الطعام عندما يكون فى الخلاء .! ووثب أحد القردة على فرع شجرة واخذ يثرثر له كأنما يطلب منه قطعة من الشطيرة .. وتضاعف الاحساس بالسعادة فى قلب فيلوز وهو يعيش مع الطبيعة .. وأحس كأنمـــا حب الوجود بما فيه ومن فيه قد شرع يجرى فى عروقه مع الدماء . وها هو ذا يقترب من البيت ، وها هو ذا يرفع عقيرته مرة أخرى بالغناء وهو يحاول أن يذكر عبارة فيلسوف ملهم كان قد قرأها ذات يوم فى كتاب .. انها عن شيء من هذا القبيل « هبنى الحياة التى أحبها : انها الخبز الذى أغمسه فى ماء النهر ، تحت قبـــة الســماء المرصعة بالنجوم ، والبيت الذى أعود اليه من رحلة الصيد .. »

وبدأت مزارع الموز تتضاءل على الجانبين كلما اقترب من البيت ، وظهرت من ورائها الجبال البعيدة كأنها خطوط ســـوداء عريضة متعرجة عند الافق ، ولم يلبث أن رأى غير بعيـد بضعـة أكواخ ، ثم الفيللا الخشبية التى يقيم بها ..

وشـــعر ، وهو يقترب من ألبيت ، كان سحابة مجهولة قد طوت شعوره بالسعادة !

ولم يدر لمــاذا ؟ لعل السبب هو أنه لا يجد عادة من يستقبله بالبشاشة والترحاب .

وسار نحو الفيللا التى كانت تمتاز عن الاكواخ القريبــة منهـــا بسقف منحدر من الاجر ، وبسارية لرفع العلم — بدون علم — وبلافتة نحاسية مثبتة على الجدار بجانب الباب مكتوب عليهـــا « شركة امريكا الوسطى لتجارة الموز » .

وكان ثمة سريران من الشبك معلقان فى الشرفة الواسعة ، ولكن أحدا لم يكن كالمعتاد فى استقباله .. فلاشك أن زوجته ملازمة الفراش كعادتها .. ولاشك أن ابنته لم تسمع وقع أقدامه .. وعليه هو أن يشعرها بوصوله .. ومن ثم اقتحم الباب وهو يرفع عقيرته بالغناء « لقد عاد الوالد .. عاد الوالد .. »

وظل يرفع عقيرته حتى دخل مخدعه حيث أطل عليه ، من وراء الكلة المحيطة بالفراش ، وجه زوجته الخائفة ، فقال لها وهو يدب على الارضية بقدميه :

« هل أنت سعيدة بعودتى ياعزيزتى تريكسى ؟! »

وتمتمت الزوجة وهى ترسم على وجهها أمارات الشعور بالخوف :

« طبعا ياعزيزى .. »

« وأنا سعيد أيضا بعودتى » .

وكان يلقى هذه العبارة بلهجة الذى يريد أن يوحى الى نفسه بأنه سعيد حقا ، فهو يحاول دائما أن يعتقد بأنه يشعر ـ حقا ـ بمعنى السرور ، والحب والبهجة ، والحزن ، والكراهية .. انه لا يريد أن يتعود التظاهر بمثل هذه العواطف ..

وعادت زوجته تقول :

« هل كل شىء كما ينبغى فى المكتب ؟ »

« نعم .. تماما » .

« لقد عانيت أمس من نوبة حمى » .

فقال فى غموض :

« انك فى حاجة الى الرعاية .. ولسوف تتحسن حالتك الان بعد أن جئت لاقوم على رعايتك .. »

ثم قرر أن يغير مجرى الحديث عن الحمى والامراض ، فراح يصفق بيديه فى قوة ، جعلت زوجته ترتعد فى فراشها ، ثم صاح :

« أين كورال ؟ »

« انها مع ضابط البوليس » .

فقال وهو يتجول فى أنحاء الغرفة على غير هدى :

« كنت أرجو أن أجدها فى استقبالى .. »

ثم تنبه فجأة الى عبارة زوجته ، فأسرع يقول :

« ضابط البوليس ؟ أى ضابط بوليس .. ؟! »

« لقد جاء هذا الضابط أمس ليلا وسمحت له كورال بالمبيت فى الشرفة ، ويبدو أنه يبحث عن شخص هارب .. هكذا يقول .. »

« ما أعجب هذا ! أيبحث عن الهارب . . هنا ؟ ! »

« انه كما قلت لك ضابط بوليس ، وليس مجرد شرطى عادى . لقد ترك رجاله فى القرية .. هكذا قالت كورال .. »

« اذن كان يجب أن تكونى معها فى حالة كهذه .. أعنى .. اننى لا أثق فى هؤلاء الناس .. ولا يجوز لأحد أن يثق فيهم .. »

ثم أردف قائلا بصوت متردد :

« ولكنها على كل حال .. طفلة »

فولولت زوجته قائلة :

« قلت لك اننى أصبت أمس بنوبة حمى .. اننى مريضة جدا »

« حسنا .. حسنا .. لسوف تتحسن صحتك فورا .. لعلها ضربة شمس بسيطة ، وسوف ترين كيف تتحسنين بعد أن وصلت .. »

« لشد ما كان الصداع يؤلمنى .. لم أستطع أن أقرأ أو أعمل شيئا .. ثم أقبل هذا الرجل .. »

وارتعد جسمها فجأة .. لقد كانت تعانى من حالة نفسية معقدة .. فهى تشعر دائما بالخوف .. فتعتقد أن الخوف يملا نفسها .. وأن المخاطر وراء ظهرها .. ولو تركت وشأنها لظلت تدور حول نفسها كالنحلة .. وكانت مظاهر الخوف تتجسم لها فى كل شىء .. فى الحمى .. وفى الفيران .. والخوف من التعطل وعدم الاستقرار . ان حقائق الحياة بالنسبة لها مجرد أوهام .. ان الموت يقترب منها فى كل عام تقضيه فى هذه المنطقة النائية .. ان كل انسان متحضر يجمع حاجياته ويرحل .. ولم يبق الا هى ، وزوجها وابنتها .. هنا .. فى هذه المقبرة التى لايزورها أحد ..

نعم .. ان هذه المنطقة ، فى رأيها ، لا تزيد عن قبر كبير .. فوق سطح الارض ..

وقال زوجها فجأة :

« أعتقد ان واجبى الآن أن أذهب وأرى هذا الرجل .. »

ثم جلس على حافة الفراش ، ووضع يده على ذراعها ، وأردف قائلا :

« لقد مضى ذلك الرجل الملون الذى كان يشتغل سكرتيرا للمدير .. »

« الى أين مضى .. »

« الى .. السماء .. !

وشعر بالرعدة تسرى فى ذراعها ، فأدرك أنه لمس وترا من أوتار الخوف الكامن فى أعماق نفسها ، واذا هى تنكمش فجأة وتقول :

« آه .. لشد ما أشعر بالاعياء .. !

« أيؤلمك رأسك يا عزيزتى ؟ ؟ »

« أليس من الافضل أن تمضى لمقابلة ضابط البوليس ؟ »

« آه .. نعم .. نعم لسوف أمضى .. »

ولكنه لم يتحرك من موضعه .. ولم تلبث الابنة أن جاءت ووقفت بالباب ، وراحت ترقبهما فى سمت الشخص الذى يقدر المسئولية ويشعر بعبئها على كاهله .. فقد كان أبوها يبدو أمامها كطفل كبير ، وتبدو أمها كأنها طيف اذا نفخت فيه طار !

كانت صبية فى نحو الثالثة عشرة من عمرها .. وفى مثل هذه السن لا يشعر الانسان عادة بالخوف من أشياء كثيرة .. كالموت ، والشيخوخة ، والامراض ، وعدم الاستقرار وما الى هذه المتاعب التى تتسلل ـ كالافاعى ـ كلما تقدم العمر . ان الحياة بالنسبة لها لم تبدأ .. ولكن الظروف المحيطة بها جعلتها تشعر رغما عنها بذلك الاحساس الوهمى بعظمة المسئولية الملقاة على عاتقها ..

قالت بهدوء لوالدها :

« لقد أخبرت ضابط البوليس أنك حضرت .. »

فقال الوالد :

« آه .. نعم .. نعم .. ولكن .. ألا تقبلين أباك ؟ »
فتقدمت بوقار نحوه ، وطبعت على جبينــه قبلة خفيفة خالية من حرارة العاطفة ، ذلك أن ذهنها كان مشغولا بمسائل أخرى جعلتها تقول :
« لقد أخبرت الطاهية أنك يا أماه لن تبرحى فراشك اليوم .. »
فقال الوالد لزوجه :
« ألا يمكن أن تحاولى مغادرة الفراش ياعزيزتى ؟ »
فقالت كورال ــ الابنة :
« لماذا ؟ ! »
« أوه .. لا شيء .. »
« أريد يا أبى أن أتحدث معك على انفراد »
وانكمشت مسز فيلوز ــ الام ــ على نفسها داخل السريرتحت الكلة ، بينما قال الوالد متسائلا فى دهشة وحيرة :
« اننى لا أفهم .. ؟ لماذا لاتريدين أن تسمع والدتك الحديث؟!»
وكانت كورال تتوقع هذا السؤال .. وكانت من ثم قد أعدت الاجابة عليــه ، وكان والدها يعرف عنهــا انها لا تلقى الكلام على عواهنه ، وانما هى تفكر فى كل عبارة تلفظ بها .. ولكن اجاباتها على أسئلته كانت تبدو أحيانا غير مألوفة .. ولعل السبب فى هذا يرجع الى أن الصبية قد شبت فى هذه المنطقة الموحشة ، حيث الاحراش والمســتنقعات وأكواخ الاهالى المعــدمين ، والبعــوض والحشرات وعقبان الجو ، والحرمان من الاتراب الذين يلعبون معها الا الاطفال الوطنيين ذوى الكروش المنتفخة بسبب الديدان .. !
واذا كان يقال ان الطفل عادة يربط بين الابوين ، فان الـكابتن فيلوز يشعر بأن ابنته كورال تربط بينه وبين زوجتــه بطريقــة عكسية .. فانها تبدو كالشخص الغريب فى حياتهما .. الشخص الدخيل الذى يريد أن يفرض ارادته عليهما ..
ومد الرجل يده ليمسكبذراع زوجته برفق وهو يقول :

« انك تثيرين الخوف فى نفوسنا ياكورال ! »
فقالت الصبية فى بطء ووضوح :
« لا أعتقد ... أنه ليس فى الامر ما يثير خوفك .. »
فقال فى استسلام وهو يضغط على ذراع زوجته :
« حسنا ياعزيزتى . يبدو أن ابنتنا قد حزمت رأيها .. »
فقالت الزوجة بصوتها المرتعد :
« يجب أولا أن تذهب لمقابلة ضابط البوليس ... اننى أريد أن ينصرف فلست أحب وجوده هنا .. »
فقال الكابتن فيلوز وهو يرسل ضحكة عصبية جوفاء :
« اذن يجب أن ينصرف . . »
فقالت الابنة بصوتها الهادىء الحاسم :
« لقد طلبت منه هذا .. وعندما حضر أمس مساء فى ساعة متأخرة ، لم أستطع أن أرفض السماح له بالمبيت فى السرير المعلق بالشرفة .. أما الآن فيجب أن ينصرف .. »
« وهل رفض أن يطيع أمرك ؟ »
« قال انه يريد أن يتحدث اليك »
« اذن فهو مخطىء .. لايعرف من هو .. صاحب الامر هنا .. »
وكان ينطق عبارته الاخيرة فى تهكم خفيف .. وكان التهكم هو دفاعه الوحيد .. ولكن كورال لم تكن تفطن اليه ، أو الى أى شىء آخر لا يكون بسيطا واضحا كالحروف الهجائية أو الارقام أو التواريخ .
وترك ذراع زوجته ، ونهض فى تثاقل ، ومضى الى مدخل «الفيللا» حيث كانت شمس الأصيل ترسل أشعتها الدافئة ، وهناك أمام الشرفة ، رأى ضابط البوليس واقفا كالتمثال ـ لايتحرك ، بل ولا يتقدم خطوة لمقابلته وتحيته . .
وقال الكابتن فيلوز فى قلق :
« خيرا يا لفتنانت ؟ !

« أتسمح لى بأن أقدم اليك بعض الشراب .. أعنى زجاجة مياه غازية ! »

« لا .. لا .. شـكرا »

« حسنا .. ليس فى مقدورى أن أقدم اليك شرابا آخـر .. فان من الخيانة أن يشرب الانسان هنا خمرا .. »

واستدار الضابط فجأة كأنما لا يطيق أن يطيل النظر الى هـذا الاجنبى وابنته .

ثم مضى فى الطـريق المؤدى الى القرية . . وكان « تزلـكه » وجراب مسدسه يلمعان فى ضوء الشمس .. وبعد أن قطع مسافة من الطريق ، اذا هو يتوقف ويبصق فى عنف .. لقد أبى أن يبصق بالقرب من الرجل وابنته حتى لا يبدو عديم الذوق .. ولكنه ماكاد يبتعد عنهما حتى أعرب ـ بالبصق ـ عن شعوره بالكراهية والاحتقار لهؤلاء الناس الذين يختلفون عنه فى النظر الى الحياة وفى العيش الميسر ، والشعور بالامن ، والتسامح . والابتهاج ..

وقال الكابتن فيلوز وهو يشيعه بنظراته :

« انى لا أحب أن أعادى هذا الرجل .. »

« لاشك أنه لا يطمئن الينا .. »

« انهم لا يطمئنون الى أحد .. »

« أعتقد أنه يشم رائحة الراهب فى هذه المنطقة .. »

« انهم يشمون رائحة الرهبان فى كل مكان .. »

« ولهذا السبب فانى لم أسمح له بتفتيش المكان .. »

فقال الكابتن فيلوز :

« لماذا ؟ ! »

ثم أردف قائلا وقد شردت أفكاره فى مجرى آخر :

« كيف استطعت أن تمنعيه من تفتيش المكان ؟ »

« قلت له اننى سأطلق كلاب الحراسة عليه ، ثم أقدم شكوى الى

« اننى أبحث عن رجل ذكرت التقارير أنه فى هذه النواحى .. »
« لاشك فى أنه ليس مختبئا هنا .. »
« لقد قالت ابنتك هذا .. »
« حسنا .. وماذا بعد ؟ »
« ان الرجل هارب من اتهام خطير .. »
« جريمة قتل ؟ ! » .
« لا .. بل خيانة عظمى » .
« أوه .. خيانة » .

وهبطت نبرات صوته فجاة كأنما زال من نفسه كل أثر للاهتمام .. ذلك أن الاتهام بالخيانة كان شائعا فى كل مكان وضد كل شخص تقريبا ، وهو ـ أى الاتهام ـ يشبه فى شيوعه تلك السرقات الخفيفة التى تحدث فى معسكرات الجنود ..

وقال الضابط مستأنفا الحديث :

« انه راهب .. وأعتقد أنك سوف تبلغ عنه فورا حين تراه .. »

ثم توقف برهة قبل أن يردف قائلا :

« انك أجنبى تعيش فى حماية قوانيننا .. ونحن نتوقع منك أن ترد على جميل كرمنا معك .. هل أنت كاثوليكى المذهب ! »
« لا ... »
« اذن فأنا واثق بأنك سوف تبلغ عنه .. »
« أعتقد هذا .. »

وظل الضابط واقفا فى الشمس كأنه علامة استفهام تهديدى سوداء ، وكان يبدو عليه انه لايريد أن يقبل من هذا الاجنبى عن بلاده مجرد الوقوف فى ظل بيته .. ولكنه مع ذلك قبل أن يبيت ليلته فى السرير المعلق بالشرفة ـ هكذا حدث الكابتن فيلوز نفسه ـ ولعله اضطر الى هذا بحكم الضرورة .

وفجأة قال له مرحبا :

القنصل الامريكى ، على أساس أن ليس من حقه تفتيش بيت مواطن أمريكى بدون اذن رسمى »

« أليس من حقه ؟ ! ان الحق فى نظر هؤلاء الناس كامن فى مقابض مسدساتهم ، ولكن .. ماهووجه الضرر الذى سيعود علينا اذا سمحت له بالتفتيش ؟ »

« لقد وعدت وعد شرف .. »

وكانت كورال ، واقفة فى جمود كالضابط الذى ذهب .. صغيرة ملوحة البشرة ، غريبة بين أحراش الموز .. وكانت صراحتها المتناهية لاتسمح لاحدأن يطمع فيها أو يؤول حديثها الى غير معناه الواضح . وأن مستقبلها بكل ما فيه من مباهج وأخطار وقلق ومتاعب يبدو خارج نطاق حياتها فى ذلك الحين .. ان بوابة حياتها مغلقة .. ولكنها ستفتح يوما ليدخل المستقبل منها .. وان فتحها فى أية لحظة يتوقف على كلمة السر « سمسم » . وقد تكون هذه الكلمة لفظة عابرة .. أو اشارة طارئة ، أو حركة خفيفة .. ثم .. ثم ماذا .. أن الكابتن فيلوز يشعر بالخوف من المستقبل الذى سيدخل من بوابة حياة ابنته .. انه يحبها هذا الحب الذى يفقده السيطرة عليها .. فالانسان لا يستطيع أن يسيطر على من يحب .. وانما يرقب فقط المحبوب وهو يمضى مستهترا نحو القنطرة المحطمة ، أو فى الطريق الوعر الزاخر بالضباب ، أو وهو يدب فى ظلمات السبعين عاما التى تمتد أمامه ..

وأغلق الكابتن عينيه حتى يوقف هذا اللون من تفكيره .. انه رجل سعيد ، وهو لا يريد أن يظلل سعادته بمثل هذه الافكار القاتمة .. وانه ليغمغم باحدى أغنياته « المنظومة » بينما قالت ابنته فجأة كأنما تتم حديثا بدأته :

« نعم .. لقد وعدت وعد شرف .. ولم يكن فى مقدورى أن أتسبب فى مقتل رجل كهذا حتى لا يقال عنى .. كاذبة .. »

فهتف والدها مروعا :

« كاذبة .. ؟ يا اله السموات ؟ هل تعنين أنه .. هنا .. الراهب الطريد ؟ »

« نعم .. طبعا .. »

« أين .. ؟ ! »

« فى المخزن الكبير .. »

ثم أردفت قائلة فى لهجة رقيقة :

« لم أستطع أن أدعهم يقبضون عليه »

« وهل تعرف أمك هذه الحقيقة ؟ »

« لا .. لم أشأ أن أخبرها .. خشيت أن تفقد اعصابها .. »

وكانت الفتاة قد تعودت ألا تعتمد عليها فى شىء منذ أن أدركت انهيار أعصاب أمها ، ونفسية أبيها التى جعلته لا يزيد عن طفل كبير .. انهما ، بالنسبة اليها ، قطعة من الماضى ، وسوف يصبحان فى خلال أربعين عاما على الاكثر ، عظاما نخرة ..

وقال الوالد أخيرا :

« هلم اليه .. »

وسار معها فى بطء وهو يشعر بالسعادة تنض عنه بأسرع وأتم مما تنض من قلب الرجل غير السعيد .. فالرجل غير السعيد يكون عادة مهيأ فى كل لحظة لان يفقد ومضة السعادة التى قد تشرق فى قلبه مصادفة ..

وكان وهو يسير وراءها يرى ضفيرتى شعرها تلمعان فى ضوء الشمس ، وخطر له حينئذ أنها بلغت هـــذه المرحلة من العمر التى تتأهب فيها بنات الهنود الحمر للزواج .. فماذا سوف يحدث ؟ !

وجفل فجأة عن التفكير فى هذه المشكلة التى لم يجرؤ على مجرد التعرض لها من قبل .

وفيما هما يجتازان نافذة غرفة النوم ، لمح زوجته مكومة تحت كلة السرير ، عجفاء ، شاحبة ، وحيدة .. وعاد يذكر ، وهو يرثى

لحال نفسه ، فكيف كان سعيدا مبتهجا وهو يقود زورقه فى مجرى النهر ويؤدى عمله كرجل ، دون أن يفكر فى شىء ، أو يحمل عبء شىء .. وتمنى فى تلك اللحظة لو أنه ظل بدون زواج ..

وقال لابنته بصوت الطفل الباكى الذى يضرب علقة على ظهره :

« ليس من حقنا يا كورال أن نحشر أنفسنا فى الشئون السياسية هنا » ..

فقالت فى رقة وتلطف :

« ليس للسياسة دخل فى هذا الموضوع .. فأنا أعرف ما هى السياسة .. فقد بلغت مع أمى فى دروس معهد المراسلة درس التاريخ عن « قوانين الاصلاح » ..

ثم تناولت من جيبها مفتاحا وفتحت به باب المخزن الكبير الذى تجمع فيه «سباطات» الموز قبل تصديرها الى الخارج ، وبدا المخزن مظلما من الداخل بعد وهج الضوء فى الخارج ، وسمعت حركة خفيفة فى أحد أركانه ، فالتقط الكابتن فيلوز مشعلا كهربائيا ، وصوب شعاعه الى ذلك الركن حيث رأى رجلا ضئيل الجرم ، مرتديا بذلة سوداء ، غير حليق الوجه ، ينظر اليه وهو يطرف بعينيه فى ضوء المشعل ..

وقال الكابتن باللغة الاسبانية :

« من أنت ؟ ! »

فأجاب الرجل وهو يقبض على حافظة أوراقه فى سمت المسافر الذى يريد أن يلحق قطارا يوشك أن يتحرك :

« اننى أتحدث الانجليزية بطلاقة »

« هل يليق .. أن تختبىء لدينا ؟ ! »

« لا .. لا .. طبعا .. »

«اننا هنا أجانب وليس من حقنا أن نتدخل فى شئونكم السياسية»

« طبعا .. طبعا .. لسوف أذهب .. »

ونهض واقفا وقد أطرق برأسه كأنه جندى مراسلة ينصت الى أوامر ضابطه . وشعر الكابتن فيلوز بشىء من العطف عليـــه ، ومن ثم قال :

« يحسن بك أن تبقى حتى ينتشر الظلام . . فأنت ولا شك لاتريد أن يلقى القبض عليك . . أليس كذلك ؟ »

« نعم . . لا أريد . . »

« أتشعر بالجوع . . ! »

فأجاب الرجل فى مسكنة منفرة :

« قليلا . . . وهــذا لا يهم . . ولــكن اذا شئت أن تسدى الى معروفا . . »

« ماذا . . ؟ ! »

« قليل من . . البراندى . . »

« ألا يكفى أنى أخالف القانون الآن باخفائك ، فتريد أن أخالفهمرة أخرى ! »

ثمّ غادر المخزن منتفخا تاركا الرجل الضئيل واقفا مطرق الرأس فى الظلام بين أكوام الموز ، وأغلقت كورال الباب ، ولحقت بأبيها الذى كان يقول مستنكرا :

« أى رجل دين هذا الذى يستجدى بعض الخمر ؟ . . ياللعار !»

« ولكنك يا أبى تشرب الخمر أحيانا »

« عندما تشبين عن الطوق ياعزيزتى سوف تعرفين الفرق بين شرب قليل من الخمر بعد الغداء ، وبين اللهفة الدائمة اليها . . »

« هل تسمح لى بتقديم بعض البيرة اليه ؟ ! »

« لا أسمح لك بأن تقدمى اليه شيئا على الاطلاق »

« اننا يا أبى لانستطيع الاعتماد على الخدم فى أمر كهذا »

فقال وهو يشعر بالغضب الشديد الناتج عن العجز وقلة الحيلة :

« أرأيت أى مأزق وضعتنا فيه ! »

ثم ضرب الأرض بقدمه وانطلق الى المنزل ، ومضى الى غرفة النوم

حيث راح يهيم فيها على غير هدى،أما زوجته فقد كانت نائمة تحلم بحفلات الزفاف ، وقد تمتمت أثناء الحلم بصـوت مسموع قائلة « القطار .. حذار أن يفوتك القطار »
والتفت الزوج اليها فى دهشة قائلا :
« ما هذا ! ما معنى هذا ؟ ! »
وأسدل الليل أستاره السوداء فجأة .. ففى لحظة كانت الشمس لاتزال تضىء المكان ، وفى اللحظة التالية ، أخلت مكانها لأستار الليل.
واستيقظت مسز فيلوز لتواجه ليلة أخرى ، ثم قالت لزوجها :
« هل كنت تحدثنى يا عزيزى .. ؟ »
« أنت ياعزيزتى التى كنت تتحدثين .. عن القطارات »
« لاشك أنى كنت أحلم »
فقال فى لهجة تنم عن رضاء خفى :
« سيمضى وقت مديد قبل أن ترى هذه المناطق شكل القطار .. »
ثم مضى وجلس على حافة السرير بعيدا عن النافذة وكأنما يقول لنفسه « البعيد عن العين ، بعيد عن القلب .. »
وشرعت الجنادب « الصراصير المصفرة » ترسل فى الجو صفيرها ، وبدأت الذبابات المضيئة ترفرف فى جو الغرفة ، خارج الكلة ، كأنها مصـابيح دقيقة ، وعاد هو يضع يده فى رفق على ذراع زوجتـه المنكمشة فى فراشها ويقول :
« ان الحياة هنـا ياتركسى ليست بالغـة السوء الآن .. أليس كذلك ؟ »
وشعر بجسمها يتصلب تحت ذراعه .. لقد لمست كلمة «الحياة» وترا من أوتار الخوف الكامن فى أعماق نفسها .. أليست « الحياة » مقابلة « للموت » ! واستدارت بوجهها نحو الجدار ، ثم عادت ــ فى بأس ــ واستدارت بعيدا عن الجدار .. فان عبارة « استدار بوجهه نحو الجدار » من العبارات التى تلمس أيضا أوتار الفزع فى قلبها .. وظلت متهالكة فى فراشها والشعور العميق بالرعب يركبها ، بينمـا

أخذت حدود مخاوفها تتسع حتى شملت كل علاقة لها بالوجود.. كان شعورها بالخوف يشبه شعور « الرجل الموسوس » من ناحية الأمراض المعدية..انه يعتقد أن كل شيء زاخر بالجراثيم والميكروبات .. بل ان كلمة غطاء الفراش توحى اليها بغطاء التابوت فى القبر ،وهى من ثم ، تزيح الغطاء عن جسمها فى فزع متزايد وهى تهمس « ان الجو حار جدا .. »

وأخذ الزوج السعيد ، عادة ، والزوجة البائسة دائما ، يرقبان ظلام الليل وهو يتكاثف بأحساس مشترك من النفور .. وكأنهما رفيقان معزولان عن الحياة ، فليس لأى شيء معنى خاص خارج مشاعرهما أو كأنهما طفلان فى مركبة تمضى بهما فى الفضاء الواسع دون أن يعلما الى أين هى تمضى ، أو أين سوف تقف .

وبدأ يردد أغنية من الأغانى التى كان يترنم بها أيام الحرب ،وذلك حتى لايسمع وقع هذه الأقدام التى تمر خارج الغرفة فى الطريق الى المخزن الكبير .. !

... ...

وضعت الصبية كورال على الأرض صحفة الطعام التى تحتوىعلى قطعة من لحم « التورتيلا » وساق دجاجة محمرة ، ثم فتحت باب المخزن ، وعادت تحمل الصحفة فى يد وزجاجة البيرة فى الأخرى ، ودخلت المخزن حيث سمعت فى الركن هذه الحركة التى تنم عن خوف الرجل المختبىء ، فقالت تهدىء من روعه « اننى أنا » ثم أردفت قائلة دون أن تضيىء المشعل :

« هذه زجاجة من البيرة وبعض الطعام .. »»

« شكرا .. شكرا جزيلا »

« لقد غادر رجال البوليس القرية فى طريقهم نحو الجنوب ، ولهذا يحسن أن تمضى أنت نحو الشمال .. »

ولم يجب .. وعادت هى تقول بذلك الفضول المعروف عن الأطفال :

« ماذا يفعلون بك لو أنهم قبضوا عليك ؟ »
« يقتلوننى رميا بالرصاص »
« اذن فلا شك أنك تشعر بالخوف الشديد »
فأخذ يتحسس طريقه من المخزن المظلم نحو الباب حيث ضوء النجوم الشاحب ، وهو يقول :
« نعم .. انني أشعر بالخوف .. »
وقالت كورال :
« أليس فى مقدورك أن تهرب من هنا ؟! »
« لقد حاولت .. منذ شهر .. وكدت أركب السفينة وهى راسية فى الميناء ، ولكنى استدعيت فجأة فى اللحظات الأخيرة »
« هل كان أحد فى حاجة شديدة الى خدماتك ؟ »
فقال فى صوت يقطر بالمرارة :
« انها لم تكن فى حاجة الى على الاطلاق »
وكان فى مقدورها حينئذ أن ترى وجهه على ضوء النجوم الباهت .. وقالت لنفسها :
« ترى ماذا يقول أبى حين يرانى أتحدث مع هذا الرجل الذى ينم وجهه عن .. الغدر »
وعاد الرجل يقول بنفس اللهجة المريرة :
« أرأيت الى مدى تفاهتى وأنا أتحدث هكذا ؟ »
« تفاهتك ! »
فأمسك بحافظة أوراقه وقال فجأة :
« هل يمكن أن تخبرينى فى أى شهر نحن .. ألا نزال فى شهر فبراير ! »
« لا .. اننا فى السابع من شهر مارس »
« ان الناس الذين ألتقى بهم لايعرفون أسماء هذه الشهور .. حسنا .. لايزال باقيا على موسم الأمطار نحو شهر .. أو على التحديد ستة أسابيع .. وعندما يحل موسم المطر ، أكون بعيدا

عن الخطر . .لان رجال البوليس لايستطيعون الاستمرار فى مطاردتى أثناء الموسم . . »

فقالت فى لهجة الطفل الذى يريد أن يتعلم أشياء جديدة :

« اذن فالأمطار هى ستار الأمان لك ؟ »

وكانت دروس التاريخ والحساب واللغة الفرنسية ترقد فى ذهنها كأنها أحجار كريمة .. وكانت تتوقع أن تسمع اجابة عن كل سؤال ، ومن ثم فهى تنتظر هذه الاجابات لتتشربها فى لهفة ونهم . .

وقال الرجل مجيبا :

« نعم . . نعم . . ولكن على أولا أن أعيش ستة أسابيع وانا على هذه الحال »

ثم راح يقضم ساق الدجاجة . . وكانت أنفاسه تصل الى أنف كورال غير طيبــة ، كأنها شىء تعرض للشمس فترة طويلة . وعاد هو يقول :

« وأعتقد أنى لن أنجح فى تضليل البوليس قبل موسم الأمطار »

« ولكن ألا تستطيع . . أن تسلم نفسك وتستريح ؟ »

وكانت اجاباته تتسم بنفس الصراحة والوضوح البــاديين فى أسئلتها ، ومن ثم قال لها وهو مستمر فى الطعام !

« هناك ألم الموت . . ومن المستحيل على أن . . أن أعرض نفسى مختارا لهذا الألم ، ثم انى أعتقد أن الواجب يحتم على عدم الاستسلام . . ان الأسقف غير موجود . . ولهذا لايجب أن أترك الابراشية . . ابراشيتى . . بدون راع . . »

وعثرت يده على لحم « التورتيلا » فشرع يلتهمه فى نهم ، بينمـا قالت الصبية بوقار : « انها لمشكلة »

وكانت وهى تتحدث ، تسمع قرقرة البيرة فى حلقه وهو يشرب من الزجاجة ، فلما فرغ من شرب الجرعات الأولى ، قال :

« انى أحاول أن أذكر كم كنت سعيدا ذات يوم .. »

وأرسلت ذبابة مضيئة شعاعا خافتا من الضوء على وجهه .. ذلك الوجـه المتشرد ، ثم اختفى الضوء بأسرع مما ظهر ، وعجبت كورال ماذا يمكن أن يسعد مثل هذا الوجه .. ؟ !

وعاد هو يقول :

« انهم الآن فى مدينة مكسيكو يقيمون صلوات البركة .. والأسقف هناك .. فهل يمكن أن تتصورى أنه .. أنهم جميعا يعتقدون أنى الآن فى عداد الأموات ! ؟

« ان فى مقدورك طبعا أن ... أن تتبرأ .. »

« اننى لا أفهم ماتعنين .. »

« أعنى أن تتبرأ من عقيدتك .. وبذلك تنجو من الاعدام »

« هذا مستحيل .. فأنا راهب .. وليس فى مقدورى أن أفعل. »

وقالت الصبية وهى تنصت اليه وهو يحاول أن يرشـف آخر القطرات من زجاجة البيرة :

« أظن أن فى استطاعتى احضار قليل من البراندى الخاص بأبى »

فقال بعد أن أفرغ آخر نقطة من البيرة فى جوفه :

« لا لا .. لايليق أن تسرقى خمر والدك .. والآن .. يجب أن أنصرف »

« يمكنك دائما أن .. أن تلجأ الينا »

« ان والدك لا .. لايوافق على هذا الرأى »

« ليس من الضرورى أن يعرف .. وفى مقدورى أن أعنى بك .. فان غرفتى هى التى تواجـه باب المخزن . .ويمكنك أن تنقر على زجاج نافذتها .. »

ثم أردفت قائلة فى لهجة حادة :

ولـكن يحسن أن نتفق على اشارة معينة .. فربمـا نقر على النافذة شخص آخر »

فقال فى صوت ينم عن الجزع :
« أتعنين رجلا .. آخر ؟ »
« نعم .. من يدرى .. فربما يحاول هارب آخر من القانون أن يلجأ الينا .. »
« آه .. هذا محتمل .. »
« ان مثل هذه الأحداث غير بعيدة الوقوع .. »
« هل حدث شيء من هذا القبيل قبل الآن ؟ »
« لا .. ولكنى أتوقع أن تحدث .. ولهذا أريد أن أكون على أهبة الاستعداد ، ويمكنك أن تنقر على النافذة ثلاث مرات .. نقرتان قصيرتان .. والثالثة طويلة »
وعندئذ أرسل ضحكة قصيرة صبيانية وقال :
« كيف يمكن للانسان أن ينقر نقرة طويلة ؟ ! »
« هكذا ؟ »
« تعنين نقرة عالية الرنين ؟ »
« نعم .. كاشارات مورس التلغرافية »
وشعر كأنه يخرج فجأة من ظلمات اليأس ، ومن ثم قال :
« انك فتاة على جانب كبير من الذكاء والصلاح .. هل تصلين من أجلى ؟ »
« اننى لا أعرف طريقة الصلاة »
« اذن سوف أصلى من أجلك ... »
« حسنا .. يمكنك أن تفعل اذا شئت .. وعندما تأتى فى المرة التالية سوف أعلمك طريقة التفاهم باشارات مورس .. انها تنفعك .. »
« كيف ... ؟! ؟
« اذا كنت ـ مثلا مختبئا بين مزارع الموز ، فان فى مقدورى أن أرسل اليك بالضوء المنعكس من مرآة أخبار تحركات البوليس.. »
فانصت اليها باهتمام ثم قال :

« ولكن الا يحتمل ان يروك ؟ »
« يمكننى عندئذ ان الفق لهم اى مبرر .. »
« حسنا ياابنتى وداعا »
وتقدم خطوة خارج الباب ثم توقف واستدار قائلا :
« حسنا اذا كنت لاتعرفين طريقة الصلاة .. هل .. تحبين ان اعلمك حيلة لطيفة »
« اننى احب الحيل المسلية »
« انها حيلة تؤدينها باوراق اللعب . الديك مجموعة الاوراق »
« لا »
فتنهد ثم أرسل ضحكة صبيانية أخرى وقال بأنفاس ممتلئة برائـة البيرة :
« حسنا لا فائدة .. سوف أصلى من أجلك »
« يخيل الى الآن انك لاتشعر بالخوف »
« ان قليلا من الخمر تصنع العجائب فى نفسية الجبان .. نعم اننى بقليل من الخمر استطيع ان اواجه .. الشيطان نفسه .. »
وتعثرت قدمه فى عتبة الباب الخارجى :
وقالت الفتاة بصوتها الرقيق :
« ارجو ان توفق فى الهرب من البوليس »
وسمعت زفرة خفيفة تنساب من طيات الظلام فاردفت قائلة :
« انهم اذا قتلوك فلن اغفر لهم .. ابدا .. »
ونم صوتها عن استعدادها التام لاحتمال عبء الانتقام اذا لزم الامر دون تردد أو تفكير ..

. . . .

كانت القرية مكونة من بضعة أكواخ من الطين والاغصان تتوسطها ساحة خالية ، وكان بين الاكواخ القليلة ، كوخان خربان . وكانت بعض الخنازير ترعى أوراق الشجر بالقرب من الساحة ، بينما راحت امرأة عجوز تنتقل بين الاكواخ حاملة شعلة من النار توقد بها بعض العشب الجاف وسط كل كوخ لكى يتصاعد منها الدخان فيطرد أفواج

البعوض . وكانت نساء القرية يقمن فى كوخين من أكواخها الستة ، وتعيش الخنازير فى كوخ ثالث .. أما الكوخ الرابع ، حيث تخزن الاذرة ، فقد خصص لاقامة رجل عجوز وصبى ومجموعة من الفيران !

ووقف الرجل العجوز فى الساحة الخالية يرقب المرأة وهى تدور بالشعلة المضرمة على الاكواخ ، وكانت الشعلة تبدو فى الظلام كأنها جزء من شعائر وثنية تقام فى مثل هذه الساعة كل يوم — والى الابد .. وكان الرجل أبيض الشعر واللحية ، ملوح اليدين ، نحيلا ذابلا كورقة شجرة سقطت منذ عام . وكان يبدو عليه سمات الرجل الذى يعيش على هامش الحياة ، تمر به الاعوام دون أن تغير من مظهره شيئا ..

« لقد كان عجوزا منذ أعوام مديدة مضت ! »

وأقبل الرجل الغريب على الساحة منتعلا حذاء من أحذية أهل المدن ، أسود ، مدبب الطرف ، بالى النعلين ، بحيث لم يبق منه غير الجزء الاعلى .. ومن ثم فهو — أى الرجل الغريب — يسير حافى القدمين ، وان كان منتعلا بقايا حذاء .. !

وكان يرتدى أيضا قميصا وسراويل ممزقة ، ويحمل حافظة أوراق كأنه محصل الضرائب فى موسم من المواسم . وكان يبدو عليه أنه — بدوره — قد بلغ أرذل العمر ، ولكن الزمن ترك على وجهه جراحه الغائرة ، وكانت بقايا حذائه تنم عن ماض يختلف أشد الاختلاف عن ماضى الرجل العجوز بالقرية ، أما وجهه ، فقد كانت تتصارع فوقه انفعالات الامل والخوف من المستقبل ..

وتوقفت المرأة ذات الشعلة المضيئة فجأة بين كوخين وراحت تنظر اليه فى ترقب .. وتقدم هو نحو الساحة بوجه مطرق الى الارض وكتفين منهدلين ، كأنما ضبط وهو يرتكب جريمة .. وسار رجل القرية العجوز نحوه ليستقبله وليتناول يده ثم يرفعها الى شفتيه ويقبلها ..

وقال العجوز الغريب :

« هل تسمحوا لى بسرير معلق أبيت فيه الليلة ؟ »

« اذا أردت أيها الاب سريرا معلقا ، فعليك أن تلتمسه بالمدينة ، أما هنا ، فليس لدينا غير الارض نبيت عليها . . »

« حسنا . . لا بأس . . ان أى مكان يصلح للرقاد . . ولكن . . هل يمكن . . أن أجد لديكم قليلا من . . الخمر . . »

« ليس لدينا أيها الاب غير القهوة »

« أو بعض الطعام . . »

« ولا طعام نملكه . . »

« حسنا . . لا بأس . . »

وأقبل الصبى من الكوخ وراح يرقب العجوزين . . وكان جميع من فى القرية يرقبهما فى تلك اللحظة وكأنما يشاهدون مباراة لمصارعة الثيران . . بلغ الثور فيها درجة الاعياء ومن ثم فهم يترقبون الحركة التالية . . ولا يعنى هذا أنهم كانوا غلاظ القلوب ، وانما يعنى أنهم كانوا يشاهدون لاول مرة منظرا مثيرا يدعو للعجب ، منظر رجل فى حالة أسوأ من الحال التى كانوا عليها . .

وراح الرجل الغريب يظلع مجهدا نحو الكوخ ، وعجوز القرية وراءه ، وهناك داخل الكوخ ، كان الظلام كثيفا ، وكان ضوء العشب المشتعل لا يصل الى الركبتين ، وكانت رائحة الاذرة المخزونة تكاد تملأ جو المكان ، والفيران تتحرك بين أوراق الاذرة الجافة ، وكان ثمة سرير مصنوع من الطين فوقه حصير من القش ، وصندوقان فارغان على هيئة منضدة ، ورقد الرجل الغريب على الحصير وهو يقول لعجوز القرية الذى كان قد أغلق الباب من الداخل :

« هل نحن فى أمان هنا ؟؟ »

« نعم . . والصبى يتولى الحراسة فى الخارج انه يعرف . . »

« هل كنتم تتوقعون حضورى . . ؟ ! »

« لا يا أبى . . ولكننا لم نر قسا أو راهبا منذ خمسة أعوام ،

ومع هذا فقد كان متوقعا أن نرى أحدكم يزورنا يوما من الايام .. »

واستسلم الراهب لنوم غير مريح ، وقبع العجوز على الارض يضرم النار فى العشب بأنفاسه ، ونقر الباب ناقر ، فاعتدل الراهب من فوره جالسا ، وقال الرجل العجوز : حسنا ..

« ان القهوة قد أعدت يا أبى »

وحملها اليه .. وكانت قهوة ساخنة مصنوعة من دقيق الاذرة المحروق صبها فى كوب من الصفيح .. ولكن الراهب لم يستطع أن يحتسيها لفرط شعوره بالتعب ، ومن ثم ظل مسلقيا على جانبه فى سكون تام ، بينما راح فأر يرقبه من بين أعواد الاذرة ..

وقال العجوز وهو ينفخ فى جذوة النار :

« كان رجال البوليس هنا أمس .. »

وتصاعد الدخان كثيفا فى جو الغرفة ، وبدأ الراهب يسعل ، ومرق الفأر كأنه ظل يد تحركت بسرعة واختفى بين الاعواد . وعاد العجوز يقول :

« ان الصبى ، يا أبى ، لم يعمد بعد .. لقد طلب آخر كاهن هنا «بيزتين» أجرا لتعميده .. ولم يكن معى غير بيزة واحدة .. أما الآن فلست أملك غير نصف البيزة أى خمسين سنتافو »

فقال الراهب فى ضجر :

« نعمده غدا .. »

« هل ستقيم لنا قداسا فى الغد ياأبى ؟؟ »

« نعم .. نعم »

« والاعترافات يا أبى — هل ستسمع اعترافاتنا ؟؟ »

« نعم .. ولكن دعنى أنام أولا .. »

ثم استدار واستلقى على ظهره وأغمض عينيه ليتقى الدخان..

وعاد العجوز يثرثر قائلا :

« ولكننا يا أبى لا نملك مالا نقدمه اليك .. ان الراهب الآخر بادر جوزيه .. »

« حسنا .. لا أريد منكم مالا .. يكفى ان تعطونى بعض الملابس »
« ولكننا لا نملك من الملابس الا ما نرتديه .. »
« خذوا ملابسى بدلا منها »
وغمغم العجوز بكلمات غامضة وهو ينظر الى ملابس الراهب السوداء البالية على ضوء جذوة النار المتقدة ، وأخذ ينفخ النار بأنفاسه لبضع دقائق ثم قال ..
« اذا لم يكن بد يا أبى .. »
وكان الراهب قد أخذ يغفو مرة ثانية ، بينما أردف العجوز يقول :
« ان لدينا الكثير من الاعترافات بعد أن تجمعت فى صدورنا خمس سنوات » .
واستوى الراهب جالسا بسرعة وهو يقول :
« ما هذا ؟ ! »
« يبدو أنك كنت تحلم يا أبى .. فان الصبى كفيل بأن يخبرنا اذا رأى أحدا من رجال البوليس .. لقد كنت أقصد فقط »
« ألا تدعنى أنام خمس دقائق .. ؟ ! »
ثم اضطجع لينام .. وعندئذ انبعث من أحد أكواخ النساء ، صوت يغنى :
« ذهبت يوما الى حقلى ، وهناك وجدت زهرة ..
واستطرد العجوز فى ثرثرته قائلا فى هدوء :
« سيكون من المؤلم أن يأتى رجال البوليس قبل أن تتاح لنا فرصة الاعتراف .. فان الاوزار يا أبى قد تراكمت حتى أثقلت أرواحنا البائسة .. »
وعندئذ نهض الراهب واعتمد بظهره على الجدار وقال فى حنق شديد :
« حسنا .. هلم ابدأ .. انى مستعد لسماع اعترافاتك .. »
وانطلقت الفيران هاربة بين أكوام الاذرة بينما استطرد الراهب يقول :

« هلم اعترف !. لا تضيع الوقت .. متى كانت آخر مرة .. »
وركع العجوز بجانب النار ، وانساب صوت المرأة المغنيـة عبر الساحة وهي تقول « ذهبت يوماالى حقلى فوجدت الزهرة ذابلة . »
وقال العجوز وهو ينفخ فى النار بأنفاسه :
« خمسة أعوام مضت .. ان الانسان لا يستطيع أن يتذكر يا أبى »
« ألم تقترف شيئا ينافى الفضيلة ؟ » .
وهز العجوز رأسه ، وتراجع الراهب الى الجدار يعتمد بظهره عليه وقد طوى ساقيه تحته ، واستمرت الفيران فى سعيها بين أكوام الاذرة وقد ألفت الاصوات ، ومضى العجوز يلتقط ذنوبه من خزانة ذكرياته ومافتىء ينفخ فى جذوة النار . وكلما خذلته الذاكرة ، راح الراهب يحثه على الاعتراف ، فيقول : « تذكر !.. تذكر .. لا تخفى شيئا حتى يطهر قلبك .. ؟ »
وراح الرجل فى شبه سبات .. وجمد الاعتراف على لسانه وبين شفتيه وعجز عن امام اعترافه .. وأخيرا عاودته اليقظة فقال :
« أأستطيع أن أستدعى النساء للاعتراف ؟ . خمسة أعوام . . »
« .. نعم ، أدعهن للحضور .. اننى خادمكم .. »
ثم وضع الراهب يديه على عينيه وراح يبكى .. وفتح العجوز الباب .. وكان الظلام فى الخارج غير كثيف ، اذ كانت النجـوم المتناثرة فى قبة السماء تخفف من شدته بأضوائها الباهتة .. وسار الرجل نحو كوخ النسـوة ، وطرق بابه ، فسمع صوتا يدعوه الى الدخول فقال :
« يجب أن تحضرن للاعتراف بين يدى الراهب .. » فقلـن له انهن متعبـات ، ولا بأس من الاعتراف فى الصـباح . فقال غاضبا : « وكيف ذلك ؟ ان امتناعكن عن الاعتراف الان يعتبر اهانة للراهب .. ! لقد جاء الينا ليطهر من الذنوب قلوبنا ، انه راهب مقدس ، وقد تركته الآن فى كوخى يبكى من فرط خطايانا .. »

ثم راح يدفعهن ، الواحدة بعد الاخرى ، الى الخارج حيث اخـذن فى السير عبر الساحة نحو كوخ الراهب .. أما العجوز ، فقد مضى فى طريقه نحو ضفة النهر ليتولى حراسة المخاضة بدلا من الصبى .

الفصل الرابع

المتفرجون

. . . .

كان قد مضى على المستر تنش سنوات عديدة دون أن يرسل الى أسرته ــ فى الوطن ــ خطابا . وهاهوذاقدجلسأخيرا الى المنضدة واضعا سن ريشة الكتابة بين أسنانه حيث استبدت به رغبـــة غريبـــــة فى أن يرسل خطـــابا على آخر عنـــوان احتفظ به . ترى من من أفراد أسرته لم يزل باقيا على قيد الحياة ؟ انه يحاول أن يبدأ الكتاب ، وان هذه المحاولة لتشبه رغبة الانسان فى أن يبدأ الحديث فى حفلة لا يعرفه فيها أحد . لقد بدأ الكتابة على المظروف « مسز هنرى تنش ، طرف مسز مارزديل رقم ٣ الشـــارع الكبير بوستكليف » . انه عنوان منزلحماته .. هذه المرأةالمستبدةالمتطفلة التى كانت السبب فى افلاس عيادته لطب الاسنان بمدينة سوثند . واختتم الكتابة على المظروف بهذه العبارة « يسلم ليد مسز هنرى تنش » ولكن .. هل ستسلم حماته الخطاب الى زوجته ؟ انهـــا لن تفعل اذا عرفت انه المرسل . ولكن من المرجح أنها لن تتعرف على خطه بعد هذه السنوات .

وعاد يمتص سن الريشة الملوث بالمداد ويفكر فيما سيكتبه فى الخطاب . كيف يبدأ ، وماذا يقول : كان فى الامكان أن يكتب بسهولة لو أن هناك سببا خاصا يبرر ارسال الخطاب غير مجرد الرغبة فى أن يسجل ــ لاى شخص ــ أنه لايزال على قيد الحياة ، . ولســـوف يكون الموقف بالغ الحرج اذا وصلها الخطاب وهى متزوجة من شخص

آخر ، ولكنها فى حالة كهذه لن تتردد فى تمزيق الخطاب قبل ان يطلع عليه زوجها الجديد .

وكتب يقول بخط واضح ، وبأحرف كبيرة ، وهو ينصت الى أزيز النار فى الفرن :

« عزيزتى سيلفيا .. »

وتوقف عن الكتابة ، وراح ينصت مرة أخرى الى أزيز النار فى الفرن حيث كان يصهر قطعة من الذهب المخلوط من عيار ١٤ ليصنع منها ضرسا صناعيا .

انه لا يدرى ماذا يقول .. فان حياته فى هذه المنطقة النائية تكاد تكون خالية من الاحداث .. فهو يعيش هذه العيشة المتزنة ، المحترمة ، الرتيبة التى طالما كانت حماته تتمنى أن يعيشها .

وأرسل نظرة على الفرن .. ان الذهب يوشك أن يبلغ درجة الانصهار مع الخليط ، ومن ثم وضع فوقه ملء ملعقة من الرماد ليحمى الخليط من الهواء ، ثم تناول الريشة مرة أخرى وجلس يفكر . انه لا يستطيع أن يتذكر زوجته بوضوح ، وانما هو يتذكر فقط القبعات التى كانت تشتريها . لشد ما ستكون دهشتها حين تتلقى خطابه بعد كل هذه الغيبة الطويلة . فانهما لم يتبادلا غير رسالتين منذ وفاة ابنهما الثانى .. ثم راحت الاعوام تنصرم بسرعة فى حياته دون أن تغير شيئا من عاداته وطباعه .. لقد كان ينتوى أن يعود الى وطنه منذ سنوات ست ، ولكن قيمة البيزة هبطت الى الحضيض مع الثورة ، فاضطر للهجرة الى هذه المنطقة الجنوبية .. واستطاع مرة أخرى أن يدخر مبلغا آخر من المال ، ولكن قيمة العملة عادت الى الهبوط مرة ثانية منذ شهر مما يدل على وقوع أحداث فى احدى الولايات المجاورة ، ولم يكن فى وسعه أن يفعل شيئا الا أن ينتظر .. وأعاد سن الريشة الى أسنانه ، وراحت أفكاره تذوب بسبب حرارة الجو فى الغرفة . ثم لماذا يجهد نفسه بالكتابة ؟ !

وسمع طرقا على الباب الخارجى ، فنهض تاركا الخطاب على المنضدة

ودوى فى الجو من ناحية الشاطىء رنين الناقوس فى احــدى
وفوقه عبارة « عزيزتى سيلفيا » مكتوبة بخط واضح ، وبأحرف
كبيرة مستديرة .

السفن .. انها السفينة جنرال أبريجون عادت من ميناء فيراكروز .
ان بعض الذكريات تتحرك فى ذهنه تماما كما يتحرك شخص حى
متألم بين المقاعد فى الغرفة الامامية « كانت فترة لطيفة تلك التى
أمضيتها معه فى ذلك الاصيل .. ترى ماذا حدث له .. ؟ ! هل مات ؟
أم استطاع أن يواصل الهرب ؟ ! » وأيا كان الامر فان المستر تنش
متعود على رؤية الالم .. فتلك هى صناعته .. وليس هناك ما هو
أقسى من ألم الاسنان فى بعض الاحيان . ولم يذهب لفتح البـاب
الخارجى فورا ، وانما انتظر فى حـذر حتى سـمع الطرق يتكرر
مصحوبا بصوت رجل يقول له « افتح .. فانى صديق .. »
ومضى المستر تنش وفتح الباب ليدخل أحد مرضاه ..

. . . .

وعبر بادر جوزيه ـ الراهب الذى تزوج ـ البوابة الكبيرة ،
العتيقة ، المكتوب عليها بأحرف سوداء كبيرة كلمة « سكون » ، ثم
دخل الى ساحة المدافن التى كان الاهالى يطلقون عليها من قبل اسم
« حديقة الله » ، أما الان ، فهى أقرب ما تكون الى المكان الذى
لا يهتم بأمره أحد .. فأحجار المقابر الضخمة تعلو فوق أرض
الساحة بدون حدمعين ، وكيفما اتفق .. وقد ترى هنا أو هناك تمثال
ملاك مكسور الاجنحة ، أو أزهارا صناعية جافة باهتة فوق أحـد
الارفف ، وكأنما المكان بيت هجره سكانه دون أن ينظفوه .. ولـكن
الداخل ، مع هذا ، يشعر فيه باحساس من الالفة ، فهو يستطيع
أن يتنقل فيه أنى يشاء ، وأن يرى كل شىء .. لان الحيـاة فيه
قد انحسرت تماما ..

وسار جوزيه فى بطء ـ بسبب بدانته ـ بين المقابر .. هنا ..
فقط .. يستطيع أن ينفرد بنفسه .. فليس ثمة أطفال يسخرون

منه ، وهو هنا يستطيع أن يوقظ فى أعماق نفسه شعورا بالحنين البسيط الذى هو أفضل — على كل حال — من عدم الشعور بأى شىء . لقد أشرف بنفسه على دفن بعض الناس هنا .. وان عينيه الصغيرتين الحمراوين لتدوران فى أنحاء المكان « هنا وهناك » حتى اذا وصل الى قبر لوبيز — التاجر الكبير الذى كان يمتلك منذ خمسين عاما الفندق الوحيد بالعاصمة — وجـد فجـأة أنه ليس الشخص الوحيد الموجود بساحة المدافن ، فقد رأى قبرا جديدا محفورا بجانب سور المدافن ، واثنين من العمال منهمكين فى الحفر ، وامرأة واقفةبجانبرجل عجوز ، وعند اقدامهما تابوتطفل ، ولم تستغرق عملية حفر القبر غير فترة وجيزة ، اذ كانت الارض رخوة مشبعة بالرطوبة ؟ ولما اقترب بادر جوزيه من المكان ، نظر الجميع اليه وكأنه دخيل عليهم ؟ ولم يكن ثمة احساس بالحزن فى جو ذلك اليوم الساطع بحرارة الشمس ، وكان ثمة عقاب جوى جاثم على سقفه بيت خارج المدافن ، وفجأة هتف أحدهم قائلا : « أبى ... ! »

ورفع جوزيه يده كأنما يريد أن يوحى اليهم أنه غير موجود .. أو أنه ذهب الى بعيد واختفى عن مرمى البصر ..

وقال الرجل العجوز الواقف بجانب المرأة :

« بادر جوزيه ... ! »

وأخذ الجميع ينظرون اليه فى لهفة .. لقد كانوا قبل وصوله مستسلمين للامر الواقع ، أما الآن ، فقد ثارت فى نفوسهم مشاعر الامل واللهفة .. ولكن جوزيه انحنى ومضى ليروغ منهم بعيدا وعاد الرجل العجوز يهيب به :

« بادر جوزيه : ألا تصلى على الطفلة ؟ ... »

وأخذ الجميع يبتسمون .. ويترقبون .. لقد تعودوا أن يروا الناس يموتون كل يوم ، ولكن أملا من السعادة الخفية قد شاع فىنفوسهم .. أن فىمقدورهم — علىالاقل — أنيفخروا بأن واحدا

من أفراد الاسرة قد ووری التراب بعد أن أقيمت على جثمانه صلاة دينية رسمية ..

وقال بادر جوزيه :

« هذا مستحيل ! »

وقالت المرأة فى رجاء ولهفة :

« ان المتوفاة طفلة لم تتجاوز الخامسة من عمرها .. وكان أمس ذكرى ميلادها »

وعاد جوزيه يقول :

« اننى آسف .. »

وأزاح الرجل العجوز التابوت بقدمه ليتسنى له الاقتراب من بادر جوزيه ، وكان التابوت صغيرا ، وخفيفا ، ولا يحتوى الا على جثمان الطفلة الصغيرة التى ماتت بعد أن ضمر جسمها حتى أصبحت كومة من العظام . وقال العجوز :

« اننا لانطمع فى مراسيم كاملة .. مجرد صلاة قصيرة .. دعاء .. انها طفلة بريئة »

وقال جوزيه فى اصرار :

« أن هذا مخالف للقانون »

وقالت الام :

« ان اسمها أنيتا .. وقد كنت أعانى من المرض عندما وضعتها . »

وكأنما كانت تريد بهذه العبارة الاخيرة أن تعتذر عن ضعف الطفلة الذى أدى الى وفاتها ومن ثم الى هذا الموقف كله ..

« ولكن القانون !! »

ووضع الرجل العجوز اصبعه على أنفه قائلا :

« يمكنك أن تثق فينا .. ان الامر لن يعدو صلاة قصيرة .. وأنا جدها .. وهذه أمها .. وهذا أبوها .. وذاك عمها .. ليس بيننا غريب كما ترى .. ومن ثم يمكنك أن تضع كل ثقتك فينا .. »

وكانت تلك هى المشكلة . . انه لايستطيع أن يثق فى أحد أيا كان . فليس من شك فى انهم ، أو أحدهم على الاقل ، سوف يفخربماحدث بمجرد أن يكر راجعا الى البيت . وكان فى خلال هذا كله يتراجع بظهره وهو يحرك أصابعه البدينة ويهز رأسه بالرفض ، حتى اصطدم بقبر لوبيز . . . انه يشعر بالخوف ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يحس بالفخر يملأ عليه دنياه لانه يقابل مرة أخرى ــ باحترام ــ كقسيس ، ومن ثم قال :

« آه يا أولادى . . لو كنت أستطيع . . ! »

وفجأة شاع فى جو المدفن احساس مفاجىء بالألم الروحى . . لقد اعتادوا فقد أولادهم بالموت ، ولكنهم لم يعتادوا مواراتهم الثرى دون صلاة أو دعاء . . .

وشرعت المرأة تبكى ، بغير دموع ، وكأنما دموعها نبرات صوت مكتوم لايجد الوسيلة للانطلاق ، وسقط العجوز على ركبتيه ، ورفع ذراعيه هاتفا :

« بادر جوزيه . . ليس بيننا من ــ »

وبدا الرجل كأنما يتوقع حدوث معجزة ، وشعر جوزيه برغبة عميقة تدفعه لان يخاطر ويقوم بالصلاة على القبر ، ان احساسا عميقا كان يغريه بأداء الواجب الدينى فى تلك اللحظة . . ولكن الخوف يرتد اليه وينتشر فى جسمه كالمخدر . . انه يرى الأمان والاحتقار ينتظرانه خارج المدافن ، انه يريد أن يلوذ بهما ــ نعم ، بالأمان والاحتقار . . وانه ، من ثم ، يركع على ركبتيه ويبتهل الى هؤلاء الناس قائلا :

« أرجوكم . . أرجوكم أن تدعونى وشأنى ، اننى لا أصلح لشىء كما ترون ، اننى انسان تافه . . جبان . . »

وواجه الرجلان العجوزان أحدهما الآخر ، وهما راكعان بين القبور ، وكان التابوت الصغير ملقى بجانبهما كأنه علة . . شىء سخيف فى نظر جوزيه . . وشعر فى تلك اللحظة كأن حياته كلها منشورة أمامه . . حياته التى طالما حللها وسبر غورها وعجم كل عود فيها حتى عرف

حقيقـــة نفسه ... عرف أنه مجرد مخلوق بدين قبيح عجـوز محتقر .. ليخيل اليه أن جميع ملائكة الرحمة فى حياته قد تخلت عنه ، تاركة وراءها جموع الاطفال يضحكون منه ، ويسخرون كلما وقعت أنظارهم عليه . ولقد عرف أخيرا ، الآن ، أنه فى قبضة اكبر خطيئة لاتغتفر ــ اليأس ...

. . . .

وشرعت الأم تقرأ فى الكتاب الدينى لابنها الغلام وابنتيها الطفلتين :

« وجاء اليوم المبارك آخر الامر بعد أن أتم « جوان » المرحـــلة التمهيدية للرهبنة .. ولشدماكانت سعادة أمه وأخواته بذلك اليوم .. حقا كانت سعادتهن مشوبة ببعض الحزن ، لأن للنفس الانسانيـة ضعفها وغرائزها .. ومن ثم لم يكن فى مقدورهن الا أن تبكى قلوبهن بعض الشىء لفراق الابن الصغير والأخ الاكبر . ولكن . . هـل كن يعلمن أنهن قد ظفرن فى ذلك اليوم المبارك بقديس جديد يصلى من أجلهن فى السماء ؟ ! »

وقالت الابنة الصغرى وهى جالسة على الفراش :

« أليس لدينا قديس يا أماه ؟ »

« نعم . . طبعا . . »

« اذن لماذا يريد الناس مزيدا من القديسين ؟ »

ولم تجب الأم ، وانما استمرت فى القراءة قائلة :

« وفى اليوم التالى اجتمعت الأسرة كلها لتتلقى القداس من يدى الابن والأخ . وأخيرا راحوا يودعونه وهم لايدرون أنه الوداع الاخير لجندى من جنود المسيح ، ثم عادوا الى بيوتهم فى مدينة موريلوس . وكانت سحب الحالة السياسية تخيم على جو البلاد ، وكان الرئيس كاليز يناقش القوانين الجديدة لمحاربة العقائد والأديان ، وهو متربع فى قصره بمدينة شابلتوبيك .. ولم يكن ثمة شك فى أن الشيطان وأعوانه كانوا يستعدون لغزو بلادنا العزيزة مسلحين بهذه القوانين .

وتحرك الغلام ــ ابن السيدة القارئة ، بجانب الجدار ثم سأل فجأة :

« هل اقتربنا من مشهد اطلاق الرصاص على القديس جوان !! »
ولم تجب الأم عليه ، وانما استمرت فى القراءة بحماس شديد :
« وكان جوان — الذى لم يكن معروفا الا للمعترفين له وبفضله — يعد نفسه لمواجهة المحنة التى تنتظره فى صبر وجلد . وكان زملاؤه لايدرون بما يدور فى نفسه من مشاعر ، اذ كان دائما يبدو أمامهم مرحا ، سعيدا ، راضيا ، وفى يوم الاحتفال بذكرى مؤسس المذهب الكاثوليكى ، قام — »
فقاطع الغلام أمه قائلا :
« نعم .. نعم .. انى أعرف .. قام بتمثيل مسرحية .. »
والتمعت فى عيون الفتاتين أبلغ امارات العجب ..
وتوقفت الأم عن القراءة ثم قالت وهى تضع أصبعها على الكتاب :
« ولماذا لا يالويس ؟ »
وكررت هذا السؤال عندماراح الغلام ينظر اليها فى تجهم وعبوس، وأخيرا استأنفت القراءة قائلة :
« لقد كان هو الذى حصل على تصريح بتمثيل مسرحية من فصل واحد تدور حول ... »
ومرة أخرى قاطع الغلام أمه قائلا :
« اننى أعرف .. انها مسرحية سراديب الموت »
وزمت الأم شفتيها واستمرت فى القراءة :
« تدور حول تعذيب واعدام المسيحيين الأوائل .. ولعله كان يذكر تلك المناسبةالتىمثل فيهادورنيرون — وهوغلام — أمامالاسقف العجوز الطيب . أما فى هذه المرة ، فقد أصر على القيام بدور بائع السمك الرومانى الساخر .. »
وهتف الغلام فى تجهم وغضب :
« اننى لا أصدق كلمة واحدة من هذا ... — »
« هل جننت ؟ كيف تجرؤ على هذا القول .. ؟ ! »

« لايوجد انسان بمثل هذه البلاهة ـ »

وظلت الفتاتان جالستين فى صمت ، ولكن نظراتهما كانت تنم عن الدهشة والتقوى .

وقالت الام لابنها :

« اذهب الى أبيك »

« نعم سأذهب حتى لا أسمع مزيدا من .. من ـ »

« اخبر أباك بما تقوله الآن .. »

« مزيدا .. من .. من ـ »

« اخرج من الغرفة .. »

وانطلق الغلام ، وصفق الباب وراءه ، وكان أبوه واقفا فى «الصالة» ينظر الى الطريق من وراء النافذة ذات القضبان الحديدية . وكانت الخنافس قد تساقطت بعد اصطدامها بالمصباح المضاء ، وراحت تزحف على الارضية الحجرية بأجنحة كسيرة .

وقال الغلام لابيه :

« طلبت أمى أن أقول لك اننى قلت لها اننى لا أصدق ما ورد فى الكتاب الذى تقرأه علينا .. »

« أى كتاب »

« الكتاب الدينى .. »

« آه . . »

وكان الطريق خاليا من الناس ، ومن الاحداث .. فالساعة قد تجاوزت التاسعة والنصف مساء ، ومصابيح الشارع قد أطفئت .

وعاد الوالد يقول :

« يجب أن تعرف معنى التغاضى يا بنى .. فأنت تعرف أننا نجتاز محنة دينية رهيبة ، وهذا الكتاب ، بالنسبة لنا ، كأنه قطعة من ماضينا .. »

« يخيل الى أن كل ما فيه سخيف »

« انك لا تذكر ، ولا شك ، العهد الاول .. عهد الحرية الدينية.. وقد كنت أنا فى ذلك العهد كاثوليكيا رديئا ، ولكن ذلك العهد من الحرية الدينية ، كان معناه اقامة الشعائر فى الكنائس علنا .. وكنا ننعم بالاضواء ، والموسيقى ، والحفلات ، والاماكن الرطيبة التى نفر اليها من حرارة الشمس . وكانت أمك تجد دائما ما يشغلها .. ولو أن الحاكم عوضنا عن الحرمان من الكنائس بارتياد دور المسارح ، لما شعرنا هكذا بأننا منبوذون . »

« ولكن قصة جوان هذه .. تبدو .. ساذجة .. بلهاء »

« لقدمات شهيدا .. أليس كذلك »

« انه ليس الوحيد الذى مات هكذا .. فهناك فيللا .. وابريجون .. وماديرو — »

« من أخبرك عنهم ؟ »

« اننا جميعا نمثل أدوارهم فى المسرحيات المدرسية .. وأمس فقط كنت أمثل دور ماديرو .. وقد قتلونى رميا بالرصاص فى الساحة تطبيقا للقانون الجديد »

ودوى فى سكون الليل الجاثم صوت طبلة تقرع ، وارتفعت من مياه النهر تلك الرائحة الحادة لتملأ جو الغرفة .. وكان سكان تلك المناطق يألفون هذه الرائحة كما يألف أهل المدن دخان المصانع . وعاد الغلام يقول :

« وأجرينا القرعة بيننا ، فوقع دور ماديرو على ، ودور بدرو على زميلى هورنا . واستطاع بدرو — فى المسرحية طبعا — أن يفر الى فيراكروز من طريق النهر ، ثم البحر ، وانطلق يطارده زميلنا مانويل الذى قام بدور كراتزا .. »

وأسقط الوالد خنفسة كانت فوق قميصه ، وشرع يمد البصر الى الشارع الذى كان يمر فيه تلك اللحظة جماعة من الجنود . وأخيرا قال :

« أعتقد أن أمك غضبى منك يا لويس ! »

« وأنت يا ابى .. أغاضب أيضا ؟ »

« ومافائدة الغضب ؟ انلكبعضالعذر .. فقدتخلىالعالمعنا .. »

وغابت جماعة الجنود فى الطريق الى المعسكر ، هناك عند قمة التل ، بالقرب من الكتدرائية المهجورة . وكان الجنود يسيرون بخطوات غير منتظمة رغم قرع الطبول المصاحبة لهم . وكان سوء التغذية واضحا على أجسامهم ، كما انه لم يكن بينهم من خاض حربا حقيقية .

وأطل الغلام برأسه من بين قضبان النافذة ، وراح يشيع الجنود بنظرات كلها الحماس .. والامل .. !

. . . .

وأخذت مسز فيلوز تروح وتجيء بمقعدها الهزاز وهى تستذكر مع ابنتها كورال درس التاريخ ، فتقول :

« وهكذا قرر اللورد بالمرستون أنه اذا لم تقدم الحكومة اليونانية اعتذارها — »

وأمسكت فجأة عن القراءة ، وقالت لابنتها :

« كفى هذا اليوم يا عزيزتى .. فانى أشعر بصداع شديد .. »

« حسنا يا أماه .. وأنا أشعر أيضا بصداع .. ولكن بسيط .. »

« اذن فسوف يزول بسرعة والحمد لله .. والآن أرجوك أن تعيدى هذه الكتب الى أماكنها .. »

وكانت هذه الكتب تصل الى الأم وابنتها من معهد مراسلة يدعى « معهد الدراسات بالمراسلة بمدينة باترنوستر رو » . وكان برنامج الدراسة الثقافية يبدأ بكتاب « قراءة بدون دموع » وينتهى بدراسة قوانين الاصلاح وعهد بالمرستون وأشعار فكتور هيجو ، وفى كل ستة أشهر كانت تصل اليهما ورقة أسئلة ، فتسجل مسز فيلوز عليها الاجابات وتعيدها الى المعهد حيث تصحح وتحفظ فى السجل الخاص بها . وقد حدث ذات مرة ان أهملت فى الاجابة على ورقة

الاسئلة بسبب ثورة قامت فى مدينة زاباتا ، فأرسل المعهد اليها يستفسر منها عن سبب التأخير .

ولكن المشكلة كانت فى أنها وابنتها تسبقان البرنامج الثقافى بمراحل عديدة ، وكانت الأسئلة التى تأتى اليهما دوريا بانتظام تدور حول موضوعات درست منذ شهور عديدة .. ومن ثم كانت كل منهما تضطر الى اعادة استذكار هذه الدروس . وبين فترة وأخرى كان المعهد يرسل لكل منهما شهادة ـ لتوضع فى أطار ، تعلن أن مس كورال فيلوز قد انتقلت بدرجة الامتياز من المرحلة الثانية الى المرحلة الاولى، وفى نهاية الشهادة توقيع رسمى ـ بخاتم من المطاط ـ « هنرى بيكل ـ بكالوريوس آداب ومدير معهد الدراسات بالمراسلة .. الخ »

وفى أحيان أخرى كانت احداهما تتلقى رسالة مكتوبة على الكتاب ، وممهورة بنفس التوقيع الرسمى ، تقول « تلميذتنا العزيزة : نعتقد أنه كان فى مقدورك أن تزيدى عنايتك بالاجابة على أسئلة هذه الفترة ـ »

وكانت الرسائل كلها تصل متأخرة عن موعدها ستة أشهر ..

وعادت الأم تقول لابنتها :

« هل تذهبين ياعزيزتى وتطلبين من الطاهية أن تعد طعام الغداء .. لك أنت فقط .. أما أنا ، فلن استطيع أن آكل شيئا ، ووالدك متغيب فى المزرعة .. »

ووضعت الفتاة القبعة على رأسها ، وخرجت الى شمس الضحى الحامية فى طريقها الى الطاهية .. وبعد أن أصدرت اليها تعليماتها ، مضت الى مخزن البضائع لتفحص جلود التماسيح الامريكية المدبوغة المعلقة على الجدران ، ثم توجهت الى المربط لتتأكد من أن البغال فى حالة طيبة ؟ لقد كانت تقوم بتبعاتها فى عناية واهتمام ، ولم يكن هناك ما يمكن أن تغفل عنه ..

وطار أحد عقبان الجو حين اقتربت منه ..

وعادت الى المنزل حيث قالت لأمها :

« أن اليوم هو الخميس ... »

« أحقا ياعزيزتى .. ؟ »

« ألم يرسل أبى محصول الموز الى رصيف الميناء ؟ »

« اننى بالتأكيد لا أدرى ياعزيزتى »

وعادت كورال فى نشاط الى الفناء ، واستدعت - برنين الجرس - احدى الخادمات الهنديات حيث علمت منها أن محصول الموز لايزال فى المخزن ، وأن الأوامر لم تصدر لارساله الى رصيف الميناء . وعندئذ قالت بلهجة آمرة :

« اذن يجب أن نرسل بالمحصول فى سرعة . . ان السفينة سترسو فى أى وقت »

ثم أحضرت دفتر حسابات والدها ، وراحت تحصى سباطات الموز وهى تحمل من المخزن على أكتاف بعض العمال ، وكانت كل سباطة تحتوى على مائة ثمرة أو أكثر قليلا ، ثمنها بضعة قروش ، وقد استغرقت عملية تفريغ المخزن أكثر من ساعتين ! ولم يكن ثمة مندوحة من هذه العملية ، فقد حدث أن نسى والدها القيام بها فى مرة سابقة وكانت النتيجة ان تلف كل المحصول الموجود بالمخزن .

وبعد نصف ساعة من بدء العملية ، بدأت تشعر بالتعب والارهاق رغم انها لم تتعود من قبل أن تشعر بالتعب هكذا فى أول النهار . . واعتمدت بظهرها على الجدار الملتهب بحرارة الشمس ، ومع هذا لم يخامرها أى احساس بالاستياء والحنق لاضطرارها الى احتمال كل هذه الاعباء ، فهى لم تعرف معنى « اللعب » طول حياتها ، وانما كانت حياتها جدا خالصا ليس فيه من مرح الطفولة كثير أو قليل . وقد حدث أن رأت فى أحد كتب معهد المراسلات صورة طاقم أدوات الشاى مما يهدى للاطفال مع « العرائس » ، ولم تفهم كورال معنى هذا الطاقم لانها لم تر فى حياتها الواقعية مثله . .

وراحت تحصى سباطات الموز وهى تحمل من المخزن : أربعمائة وست وخمسين .. أربعمائة وسبع وخمسين .. وأخذ العرق

يتفصد منها بغزارة ، وفجأة أحست بألم شديد فى معدتها ، فأخطأت العد ، وحاولت أن تستدرك الخطأ ، وشعرت لاول مرة بأن عبء الحياة يجثم على كاهلها كحمل ثقيل ظلت تنوء به أعواما مديدة .. واستمرت فى عملية الاحصاء : خمسمائة وخمس وعشرين .. عجبا .. ان الالم الذى تشعر به هذه المرة من لون جديد .. انه ليس ناتجا كالمعتاد من وجود الديدان فى الامعاء ، ولكنه لم يسبب لها شعورا بالقلق أو الجزع ، وكأنما كان جسمها يتوقعه حين بلغ هذه المرحلة من النمو ، كما يتوقع العقل ـ حين ينمو ـ انتهاء فترة الحنان والتدليل . ولا تستطيع أن تقول ان هذا الالم الجديد المفاجىء قد أعلن نهاية مرحلة الطفولة .. لا .. فان الطفولة مرحلة لم تشعر كورال بها يوما ..

وقالت أخيرا :

« أهذه آخر السباطات ؟ ! »

« نعم ياسنيوريتا .. »

« أواثق أنت ؟ ! »

« نعم يا سنيورينا »

ولكن كان عليها أن تتأكد بنفسها .. ولم يحدث من قبل أن شعرت بمثل هذا الضيق وهى تؤدى عملا ما .. ولم يكن ثمة مفر من أدائه راضية أو كارهة ، فهى اذا لم تفعل فلن يؤديه أحد غيرها .. ولكن .. لشد ما تهفو اليوم الى الراحة .. الى النوم ، ماذا عليها لو أنها ذهبت لتنام ؟ ان المحصول اذا لم يحمل الى رصيف الميناء ، فلن تقع التبعة عليها ، وانما على والدها . ترى ماذا ألم بها . أهى الحمى ؟ ! انها تشعر بقدميها باردتين فوق الارض الملتهبة بحرارة الشمس ، آه .. حسنا .. هكذا فكرت .. ثم مضت الى المخزن وهى تتذرع بالصبر ، وعثرت على المشعل الكهربائى فأضاءته ، وتأكدت أن المخزن أصبح خاليا تماما من المحصول ، وتقدمت نحو الجدار الخلفى وهى تحمل المشعل فى يدها ، وتدحرجت زجاجة

فارغة عند قدمها ، فأرسلت عليها ضوء المشعل ، فاذا هى زجاجة بيرة ، وأضاء المشعل فى الوقت نفسه الجزء الاسفل من الجدار الخلفى فرأت مجموعة من الصلبان مرسومة بقطعة طباشير .. آه .. لاشك أنه كان يسلى نفسه ويتغلب على مشاعر الخوف المسيطرة عليه برسم الصلبان على الجدار .. وقد كانت هذه الصلبان هى كل ما استطاع أن يشغل بها تفكيره فى لحظات المحنة ..

ووقفت الصبية تنظر اليها وهى تشعر بآلام المرحلة الجديدة من مراحل حياتها ، وفجأة خيل اليها أنها تدخل فى هذا الصباح عالما جديدا .. رهيبا .. وكأنما شاء القدر أن تظل أحداث هذا اليوم من الذكريات المحفورة فى ذهنها ..

. . . .

كان مدير البوليس يلعب البليارد بالنادى عندما عثر الضابط عليه .. وكان ـ أى المدير ، يربط حول وجهه منديلا كبيرا ليخفف ـ فى زعمه ـ شيئا من آلام أسنانه ، وكان يعد نفسه ـ حين أقبل الضابط اليه ـ ليستأنف اللعب بعد فترة استراحة ، وكان فى الجدار الذى وراءه رف عليه زجاجات مياه غازية ، وأخرى تحتوى على سائل أصفر يدعى « سيدرال » ومكتوب عليها « خالية تماما من المواد الكحولية » . ووقف الضابط فى باب الغرفة مقطب الوجه اذ كان يرى أن موقف مدير البوليس من الاحداث الجارية غير سليم .. وهو لا يريد أن يبدو فى بلاده أى مظهر من المظاهر التى تجعل أحد الاجانب يسخر أو ينتقد .

وقال أخيرا للمدير :

« هل يمكن أن أتحدث اليك ؟ »

وجفل المدير فجأة كأنما اشتدت آلام أسنانه ، ثم أسرع نحو الباب فى نشاط غير عادى ، ونظر الضابط الى لوحة تسجيل الارقام فرأى أن المدير هو الخاسر فى المباراة ، وقال المدير له :

« لنتحدث فى الخارج .. »

وسار الاثنان ، جنبا الى جنب فى الشارع .. المدير البدين ، والضابط النحيل ، وكان اليوم من أيام الاحاد ، والمحال مغلقة وكان هذا هو التقليد الوحيد الباقى من العهد السابق ، ولكن لم يكن ثمة رنين لاجراس الكنائس فى أى مكان ..

وقال الضابط :

« هل قابلت الحاكم ؟ »

« نعم .. وفى مقدورك الآن أن تفعل ما تريد »

« هل ترك لى حرية العمل ؟ ! »

« أجل .. ولكن بشروط »

« وما هى ؟ »

« سوف تكون مسئولا أمامه اذا .. اذا لم تقبض على الراهب المختفى قبل موسم المطر »

فقال الضابط مفكرا :

« حسنا .. ولكن أرجو ألا أكون مسئولا عن أية اجراءات أتبعها .. »

« لقد طلبت حرية التصرف .. وقد منحها الحاكم لك .. »

« وانى لمسرور » .

وشعر الضابط فى تلك اللحظة ان كل العالم الذى يهمه ويعنيه قد أصبح عند قدميه . وأجتاز الاثنان المبنى الجديد الخاص بنقابات العمال والمزارعين ، وكان يمكن للسائر أمام المبنى أن يرى فى قاعته الامامية لوحة ضخمة ملونة تصور أحد رجال الدين وهو يتحسس بيده احدى المعترفات أمامه . . وأخرى تصور قسيسا فاقد الوعى بعد أن أسرف فى شرب الخمر فى حفلة « عشاء ربانى » وكان الواضح أن هذه الصور وضعت للدعاية ضد الدين ورجاله . وقد أشار الضابط الى هذه الصور وهو يمر أمام المبنى قائلا :

« لن نحتاج الى مثل هذه الدعايات بعد فترة وجيزة »

« لماذا . . . ! انها مضحكة »

وكان الضابط ينظر الى هذه الصور المزرية بعين الرجل الأجنبى ، فتبدو له سخيفة لا معنى لها ، ومن ثم قال :

« لسوف ينسى الناس فى يوم ما أن هناك شيئا اسمه الكنيسة »

ولم يجب المدير . . وشعر الضابط أنه لا يقيم وزنا لآرائه ومعتقداته، فقال له فى لهجة حادة :

« والآن . . ما هى الأوامر ؟ »

وصمت المدير برهة كان خلالها يتأمل الضابط فى فضول بعينين كلهما الدهاء والمكر ، وأخيرا قال :

« أنت تعرف أنى أثق فيك تماما . . ويمكنك أن تتصرف كما تريد . . »

؟ هل تعترف بهذا كتابة ؟ »

« أوه . . لا . . ليس هذا ضروريا . . ان كلا منا يثق فى الآخر . »

وأخذ الاثنان يتجادلان فى هذه النقطة أثناء الطريق ، وأخيرا قال الضابط :

« هل منحك الحاكم حرية التصرف بأمر كتابى ؟ . . »

« لا . . لقد قال اننا جميعا نعرف بعضنا بعضنا . . »

واضطر الضابط أخيرا الى الاذعان لأن الامر كان يهمه شخصيا ، كما أنه لم يكن شديد الاهتمام بمستقبله الخاص . وقد قال :

« سوف آخذ من كل قرية رجلا أو أكثر ليكونوا رهائن بين يدى »

« فى هذه الحالة سوف يبتعد الراهب عن القرى »

« أيخطر ببالك أن أهل القرى لا يعرفون أين هو . . ؟ ! انه مضطر لأن يتصل بهم بين الحين والآخر ، والا فلا جدوى من التجائه الى الهرب والتخفى . . »

« حسنا . . افعل ما يحلو لك »

« ولسوف أقتل بعض الرهائن رميا بالرصاص اذا لزم الأمر . . »

فقال المدير فى لهجة مرح مصطنعة :

« ان قليلا من الدم المراق لا يضر أحدا .. أين ستبدأ ؟ !
« سأبدأ فى ابراشيته بمنطقة كونسبكيون.. ثم.. بمسقط رأسه »
« ولماذا هناك ؟ »
« لانه قد يعتقد أنه سيكون هناك فى مأمن .. »
ثم أردف قائلا بلهجة تنم عن القلق :
« ان مصرع بعض الرهائن ليس بالثمن الغالى فى سبيل القبض على هذا الراهب ، ولكن هل ستؤازرنى وتقف بجانبى اذا أثارت تصرفاتى ضجة فى العاصمة مكسيكو ؟ »
« ليس من المحتمل أن يحدث هذا .. فان لكل ولاية قوانينها... ومع ذلك فهذا ما — »
وتوقف عن اتمام العبارة بسبب ألم مفاجىء فى أسنانه ، فقال الضابط كأنما يتم الحديث نيابة عنه :
« ومع ذلك فهذا ما أريده وأسعى اليه .. ؟ »
وافترق الاثنان .. فعاد المدير الى رياضته المفضلة بالنادى ، وسار الضابط بمفرده فى الطريق الى مركز البوليس .. وكان الجو حارا .. ولم يكن بالطريق غير عدد قليل من المارة .. وراح يفكر ..
آه لو كانت لديه صورة واضحة لوجه الراهب المختفى .. ! وفى الساحة رأى الضابط لفيفا من الاطفال يلعبون لعبة « العسكر والحرامية » واذا بزجاجة مياه غازية فارغة ، تطير فى الهواء وتسقط محطمة عند قدمى الضابط ، فوضع هذا يده بسرعة على مقبض مسدسه واستدار مغضبا حيث رأى أمارات الجزع على وجه صبى ، فقال له :
« هل أنت الذى قذفت بالزجاجة ؟ »
فازدادت أمارات الجزع وضوحا على وجه الصبى وهو ينظر فى صمت الى الضابط وهو يقول فى حنق :
« لماذا قذفت بالزجاجة .. ؟ »
« قذفتها على أنها قنبلة .. »

« أكنت تقذفها على متعمدا ؟ »

« لا .. »

« على من اذن كنت تقذفها ؟ ! .. »

« على هارب من القانون »

وارتسمت على شفتى الضابط ابتسامة باردة جوفاء وهو يقول :

« حسنا .. ولكن كان يجب أن تحسن اصابة الهدف .. »

وركل بقايا الزجاجة بقدمه الى الطريق وراح يفكر فى كلمات يوضح بها لهؤلاء الأطفال جزءا من هدفه فى الحياة ، فقال :

« أعتقد أن ذلك الهارب من القانون واحد من هؤلاء الأغنياء الذين يظنون — »

ثم توقف فجأة عن الحديث حين رأى أمارات الجزع على وجه الصبى تتحول الى نظرات من الحب والاخلاص ، ومن ثم شعر فى أعماق قلبه بلون من العاطفة الحزينة المحرومة من لمسات الحب والحنان ، فقال للصبى :

« اقترب منى »

واقترب الصبى منه ، بينما وقف زملاؤه خائفين على مسافة بعيدة يرقبون ما يحدث فى فزع ووجل ، وقال الضابط :

« ما اسمك ؟ »

« لويس .. »

ولم يجد الضابط جديدا يقوله ، فقال :

« يجب أن تتعلم كيف تصيب الهدف باحكام »

فقال الصبى بحماس وهو يركز نظراته على مقبض مسدس الضابط :

« أتمنى لو أستطيع .. »

« أتحب أن تطلع على مسدسى ؟ »

ثم أخرج المسدس من جرابه وقربه من الصبى ، واقترب الصبيان الآخرون فى حذر ، بينما أردف الضابط يقول :

« أنظر .. هذا هو دبوس الأمان .. اذا رفعته أصبح المسدس معدا للانطلاق »

« أهو محشو بالرصاص ؟ .. »

« نعم ـ دائما .. »

وأخرج الصبى طرف لسانه وقد تحلب لعابه ، كأنه جائع يشم رائحة الطعام ، وكان زملاؤه قد اقتربوا حتى وقفوا معه حول الضابط ، وقد مد أحدهم يده فى شيء من الجرأة ولمس الجراب .. وشعر الضابط ـ والاطفال يتحلقون حوله ـ باحساس ـ غير مستقر ـ من السعادة وهو يعيد المسدس الى مكانه من الجراب .

وقال الصبى المدعو لويس !

« ما نوع هذا المسدس ؟ »

« انه كولت عيار ٣٨ر٠ »

« كم رصاصة فى خزانته ؟ »

« ست رصاصات »

« هل قتلت أحدا به ؟ »

« لا .. لم أقتل بعد .. »

وكان الصبيان مبهورى الأنفاس من فرط الفضول ، وظل الضابط واقفا أمامهم ينظر الى عينى الصبى لويس ويده لاتزال ممسكة بمقبض المسدس فى الجراب .. وراحت الخواطر الالحادية تعصف برأسه ... من أجل هؤلاء الاطفال الذين يرمزون للاجيال الجديدة ، يخوض المعركة ضد رجال الدين .. انه يريد أن يمحو من عالمهم كل ما يمكن أن يجعلهم بؤساء ، فقراء ، يؤمنون بالخرافات والأوهام .. انه يريد أن يعلمهم الحقيقة .. والحقيقة فى نظره هى أنهم يعيشون على سطح كرة أرضية تبرد شيئا فشيئا حتى تفنى الحياة منها فى النهاية .. ثم لا شيء .. انه يريد أن يمنحهم الحق فى التماس السعادة من أى سبيل . . انه على استعداد لان يثيرها مذبحة دامية من أجلهم ، مذبحة يقضى فيها أولا على الكنيسة ، ثم على الاجانب ،

ثم على رجال السياسة ، حتى رؤساءه ، سوف يقضى عليهم يوما ما ..
انه يريد أن يبدأ مع هؤلاء الأطفال .. مع الجيل الجديد ، حيـاة جديدة ، فى عالم موحش .. فى صحراء ..

وقال الصبى لويس :

« أوه .. اننى أتمنى .. أتمنى — »

وتوقف عن اتمام عبارته وكأنما رأى أن أمنيته أكبر من أن تتحقق ، وبسط الضابط يده فى حركة تنم عن العطف ، ثم لمس وجه الصبى وهو لايدرى ماذا يفعل بعد هذا ، وأخيرا عرك أذنه ثم رآه وهو يجفل متوجعا ، ثم اذا هو — لويس — وزملاؤه يهربون منه كطيور خائفة ، وعبر هو الساحة نحو مركز البوليس ، وكأنه صورة حية من الحقد الذى يحاول أن يبدو فى مظهر الحب ..

وعلى جدار مكتبه فى مركز البوليس ، كانت صورة المجرم الامريكى الهارب لا تزال معلقة بجانب صورة أول اجتماع دينى للعشاء الربانى بعد صدور قانون الالحاد ، وكان وجه المجرم ، فى الصورة متجها نحو المجتمعين فى الصورة الأخرى ، وكان أحد الاشخاص قد رسم بقلم الحبر دائرة حول وجه الراهب الذى يتوسط المجتمعين ، ليميزه عن أشخاصهم جميعا ..

ونظر الضابط الى ابتسامة الراهب التى تطل عليه من الصورة ، ثم صاح فى غضب وهو يوجه الحديث الى الجنود فى فناء المركز :

« ألا يوجد أحد هنا .. ؟ »

ثم جلس الى مكتبه وهو يسمع صرير كعوب البنادق على أرض الفناء ..

. . . .

. . . .

الجزء الثاني

الفصل الأول

وحطت البغلة فجأة على الارض حتى كاد الراهب يسقط من فوقها .. ولم تكن هذه الحركة المفاجئة غير متوقعة منها . فقد كانا يسيران داخل الغابة منذ اثنتى عشرة ساعة ، وكانا يتجهان فى أول الأمر نحو الغرب،ولكن الأنباء بلغت الراهب عن وجود رجال البوليس فى هذه الناحية ، فاستدار ببغلته نحو الشرق ، ولكنه لم يلبث أن علم بأن ذوى القمصان الحمراء يبحثون عنه بنشاط فى هذه الجهة أيضا ، فلم يسعه الا الانحراف نحو الشمال حيث خاض سلسلة من المستنقعات قبل أن يدخل فى ظلام الغابة الكثيفة .

وكان طبيعيا أن يشعر الاثنان ـ الراهب وبغلته ـ بالارهاق الشديد ، وهكذا حطت البغلة ببساطة لتستريح .. وترجل الراهب عنها وبدأ يضحك .. انه يشعر بالسعادة ، فقد كانت تلك احدى اللحظات التى يكتشف فيها الانسان أن الحياة ـ أيا كان نوعها ـ تزخر بلحظات من النشوة والابتهاج ، فهناك دائما ذلك الشعور بالسرور الذى ينبثق أحيانا فى أوقات الشدة . . فان بندول الحياة لايكف عن التذبذب بين الأمل واليأس حتى فى أحلك أوقات البؤس والشعور بالخطر ..

وخرج ـ فى حذر ـ من منطقة كثيفة الشجر الى ساحة معشبة: وقد كانت الولاية كلها على هذا النمط .. نهر .. ومستنقعات ..

وغابة .. وركع على الأرض فى ضوء الشمس الغاربة ، وراح يغسل وجهه فى الماء العكر لجدول كانت صفحته تشبه قطعة من الخزف الأسود المصقول الذى راح يعكس فى تلك اللحظة وجه الراهب المستدير الشاحب الغائر الوجنتين النابت الشعر .. وفوجىء الراهب بصورة ملامحه فى صفحة الجدول ، فاذا هو يبتسم هذه البسمة الخجول المترددة التى ترتسم على شفتى الشخص حين يضبط وهو ينظر فى المرآة . وقد كان فى العهد الماضى متعودا أن يقف أمام المرآة فترات طويلة ليتحكم فى تعبيرات وجهه كما يفعل الممثلون ، أما الآن ، فكأنما شاء القدر أن يضاعف من شعوره بالتواضع والذلة .. فلم يعد وجهه كما كان أو قريبا مما كان ، وانما أصبح أقرب مايكون الى وجه مهرج يصلح لاثارة الضحك فى نفوس النساء ، ولا يصلح اطلاقا للوقوف على منبر الكنيسة أو عند سياج المحراب .

لقد حاول ، أثناء هربه ، أن يغير من سماته وينكر وجهه ، وانه ليقول لنفسه « يبدو أنى نجحت تماما فى تغيير ملامح وجهى .. لن يستطيع رجال البوليس أو ذوو القمصان الحمراء أن يتعرفو على الآن .. »

وشعر مرة أخرى ببهجة السعادة تعود الى قلبه ، كأنها كأس الخمر التى ستطرد عنه مؤقتا ، الشعور بالخوف ، والوحدة والبؤس . لقد طورد من رجال البوليس حتى بلغ نفس المكان الذى فرمنه خلال ست سنوات .. أما الآن ، فقد أرغم على أن يقترب منه، وأن يصل اليه ، بل أن الوصول اليه الآن قد أصبح واجبا ، وليس ذنبا .. ومن ثم عاد الى بغلته وركلها فى رفق وهو يقول :

« هلم انهضى أيتها البغلة .. »

انه ذاهب الى ذلك المكان الذى ظل يتجنبه ست سنوات .. ذاهب اليه فى ملابس قروية ممزقة .. ذاهب اليه وهو يحمل بين جنبيه شعور الرجل العائد .. الى بيته !

ان ذهابه الى ذلك المكان لن يكون الا مرحلة من المراحل التى اضطر فيها الى الاستسلام والاذعان لأحكام الضرورة .. وانه اذ ينظر الى السنوات الخمس أو الست الماضية من حياته ليجدها زاخرة بمثل هذه الاذعانات البسيطة التى اضطر فيها الى التخلى عن أشياء كثيرة .. روحية ومادية .. فقد تخلى أولا عن أيام الاحتفالات الدينية ، وأيام الصيام ، وأيام التقشف والزهد . ثم اضطر لأن يتخلى عن كتاب الصلوات الذى كان يحتفظ به أثناء محاولته الفرار من مأزق حرج .. وقد تخلى فى نفس هذه المحاولة عن قطعة الحجر التى كان يحملها من محراب كنيسته ، وبذلك أصبح لاحق له فى اقامة قداس .. ولهذا كله فقد تعرض لعقوبة الايقاف عن عمله .. ولكن هذه العقوبة أصبحت غير ذات موضوع فى ولاية تحكم بالاعدام على كل قس أو راهب لايخضع لقوانينها الالحادية الجديدة ...

ان سياق حياته أصبح كالسد المائى المتصدع الذى تنساب منه مياه النسيان لتمحو هذه الذكرى أو تلك من ذكريات حياته المؤلمة .. فمنذ خمسة أعوام استسلم فى لحظة ضعف رهيبة الى اليأس، وهو الخطيئة التى لاتغتفر ، وهاهو ذا يعود ــ بشعور عجيب من البهجة ــ الى المكان الذى شهد لحظة اليأس الرهيب .. لان عودته هذه تنم عن انتصاره على هذا اليأس .. حقا انه يعرف عن نفسه انه راهب شرير ، ويعرف أنهم يطلقون عليه اسم الراهب السكير . . وكذلك هو يعرف أن ذكريات فشله المتعدد كانت تترسب فى أعماق نفسه ، وتتجمع الى أن يأتى اليوم الذى تسد فيه كل مجال الشعور الدينى ، وحتى يأتى هذا اليوم ، فانه لايسعه الا أن يمضى فى الكفاح رغم شعوره الدائم بالخوف ، وبالقلق ، وبهذه البهجة ، الفاضحة ــ التى يزخر بها قلبه فى بعض الأحيان ..

وخاضت البغلة فى مياه المستنقع الضحل عبر الساحة المعشبة ، ثم عادت الى ظلام الغابة .. وبعد فترة يسيرة من الوقت ، وصل الراهب والبغلة الى الطريق المؤدى مباشرة نحو القرية .. وكانت

أشجار الغابة على الجانبين قد أزيلت لتزرع الأرض بالمحاصيل المختلفة ، وفجأة توقف عن ضرب البغلة وهو يشعر بخجل غريب. فقد رأى امرأة تخرج من أحد الاكواخ وتنظر اليه فى ترقب وهو يقطع الجزء الباقى من الطريق فى بطء على ظهر البغلة المجهدة .. وكانت القرية صغيرة .. لاتتجاوز أربعة وعشرين كوخا من الطين والعشب تتوسطها ساحة غبراء ، وأحس بدبيب الراحة يسرى فى كيانه وهو يدخل هذه القرية .. انه يشعر على وجه التأكيد أنه سيقابل فيها بالترحاب ، أو — على الاقل — سوف يجد فيها شخصا واحدا يستطيع أن يثق بأنه لن يخذله ويسلمه لرجال البوليس ..

ومرة اخرى حطت البغلة فجأة من تحته حين اقترب من الكوخ ، وتدحرج هو على الأرض بعيدا عنها ، ثم وثب واقفا بينما ظلت المرأة ترقبه كأنه واحد من الأعداء ، وأخيرا قال لها :

« آه .. ماريا .. كيف حالك ؟ »

فتمتمت قائلة :

« أهذا أنت .. يا أبى ! »

ولم يكن ينظر اليها مباشرة ، وانما كان يشيح بنظراته عنها فى مكر وحذر وهو يقول :

« ألم تتعرفى على .؟ »

فشرعت تقيسه بنظراتها من أعلى الى أسفل فى شىء من الاحتقار ثم قالت :

« لقد تغير منظرك .. »

ثم أردفت بعد لحظة صمت قائلة :

« متى حصلت على ملابسك هذه ؟ »

« منذ أسبوع »

« وأين ملابسك الآخرى »

« استبدلت بها هذه الملابس »

« لماذا ؟ ! لقد كانت ملابس جميلة »

« بل كانت رثة بالية .. ضيقة »

« كان فى مقدورى أن أصلحها وأرفوها ثم أخفيها .. ان ضياعها خسارة .. وأنت تبدو فى هذه الملابس كرجل عادى . »

وارتسمت على شفتيه ابتسامة وهو ينظر الى الأرض بينما استمرت هى تلومه كما تلوم ربة البيت طفلها العابث أو زوجها المهمل .. وكان الموقف بينهما يشبه ـ الى حد ما ـ مواقفهما فى الايام الخالية ، عندما كانت الحرية الدينية سائدة ، والاجتماعات مباحة ، والناس يتبادلون الأحاديث والشائعات عن النشاط الدينى فى كل مكان . . .

وعاد يقول لها وهو يبتسم فى ارتباك دون أن ينظر اليها :

« كيف حال .. بريجيتا ..؟ »

وخفق قلبه بعنف على رنين هذا الاسم : فقد تكون للخطيئة نتائج ضخمة .. وهو لم يعد الى هذا المكان الذى يعتبره بمثابة « البيت » منذ ست سنوات ..

وقالت المرأة بهدوء :

« ان حالتها كحالنا .. ماذا تنتظر أكثر من هذا ؟؟ »

وشعر بالرضى .. ولكنه تذكر أكثر فجأة أن هذا الشعور بالرضى يرتبط بتلك الخطيئة التى ارتكبها فى ساعة ضعف وسكر منذ ست سنوات ، وأنه لايليق به أن يشعر بالرضى نحو أى شىء له علاقة بالماضى .. وأخيرا قال بصوت عادى :

« حسنا .. هذا جميل .. »

ولكن قلبه ظل يخفق بذلك الحب الابوى الكامن فى أعماقه ..

وبعد برهة صمت أردف قائلا :

« انى أشعر بأشد التعب .. لقد كان رجال البوليس فى نواحى زاباتا »

« لماذا لم تحاول الهرب فى اتجاه مونت كريستو ..! »

ورفع عينيه اليها فى سرعة وقلق .. فان عباراتها هذه لاتتفق مع ما كان ينتظره من حسن الوفادة والترحاب .. وكان بعض سكان القرية قد تجمعوا بين الاكواخ وراحوا يرقبونه من بعيد .. وكان فى الساحة الواقعة بين الاكواخ مقعد طويل قديم مثبت فى الارض من جذوع الشجر ،وجوسق لبيع المياه الغازية ،وكان السكان قدأحضروا مقاعدهم الى الساحة ليجلسوا فيها وينعموا بتسائم الليل ، ولكن أحدا منهم لم يتقدم نحو الراهب ويقبل يده ويلتمس بركاته . وكأنما قد هبط عن طريق الخطيئة الى عالم الكفاح البشرى ليفطن الى حقائق أخرى كثيرة ، غير اليأس والحب ، ومن هذه الحقائق أن الانسان قد لا يظفر بالترحاب وحسن الاستقبال حتى من أهل بيته وقريته.! وأخيرا قال ردا على سؤال المرأة :

« ان ذوى القمصان الحمراء فى نواحى مونت كريستو »

فقالت المرأة فى لهجة الاستسلام لحكم الضرورة :

« حسنا يا أبى .. ليس فى مقدورنا أن نطردك .. ويحسن الان أن تأتى معى .. »

وسار وراءها فى مسكنة وهو يكاد يتعثر فى سراويله الواسعة ، وكانت أمارات البهجة قد تلاشت تماما عن وجهه ، وترك الابتسامة وراءه كأنما هى قطعة عائمة من حطام سفينة !!

وكان عدد الواقفين فى الساحة لايتجاوز ثمانية رجال وأمرأتين وسته أطفال .وقد سار بينهم كأنه متسول يلتمس الاحسان والمأوى .. ولم يسعه الأن يتذكر زيارته لهذه القرية فى المرة السابقة .يتذكر حرارة الاستقبال .. وتسابق السكان فى احضار زجاجات الخمر من أماكنها الخفية ، ورغم هذا الاستقبال الحار فقد كان يومذاك حديث العهد بخطيئته ، أما الان ، فهو فى عودته الى جحرهم هذا النائى اشبه ما يكون بالمهاجر الذى يعود الى وطنه معدما مفلسا فاشلا ..

وقالت المرأة للواقفين :

« هذا هو الاب »

وراود الامل قلبه .. ممن يدرى .. فلعلهم لم يتعرفوا عليه فى أول الامر ، ومن ثم راح ينتظر تحيتهم له .. وأقبلوا ، الواحد بعد الاخر ، يقبلون يده ، ثم يتراجعون عنه ، وينتظرون .

وقال لهم :

« انى سعيد برؤيتكم .. »

وكاد يقول « يا أولادى » ولكنه تذكر أن الرجل المحروم من الذرية هو — فقط — الذى له الحق فى أن ينادى الغرباء بكلمة « يا أولادى » . وفى تلك اللحظة كان « الاطفال » يقبلون اليه ليقبلوا يده ، واحدا بعد الاخر ، بعد الحاح من آبائهم .. ولا عجب فقد كانوا أصغر من أن يتذكروا الايام الخوالى التى كان القساوسة والرهبان فيها يرتدون الملابس الدينية السوداء والبنيقات المقفلة ، ويمتازون عن بقية الاهالى ، بالايدى البدينة الناعمة ، وقد لاحظ الراهب أنهم — أى الاطفال — يشعرون بالرهبة لما يبديه أهلوهم نحوه من مظاهر التوقر والاحترام ورغم أنه لم يكن ينظر اليهم مباشرة ، الا أنه كان يرقبهم ، خفية ، بامعان .. وكانت بينهم طفلتان احداهما نحيلة ضامرة فى الخامسة ، أو السادسة ، أو السابعة من عمرها .. انه لا يدرى على وجه التحديد ، فهى تبدو ، من فرط سوء التغذية أصغر من عمرها الحقيقى ، وفى نفس الوقت كان وجهها الماكر الشرير ينم على أنها أكبر من عمرها أيضا .. وكانت تطل من عينيها نظرات « الانثى » الكامنة فى أعماق نفسها ..

وقال أحد الرجال :

« هل ستمكث بيننا طويلا يا أبى ! ! »

« لا أدرى .. انى متعب وأحتاج الى بضعة أيام من الراحة »

فقال رجل آخر :

« ألا يمكن يا أبى أن .. أن تمضى شمالا .. نحو قرية بوبليتو ؟ »

« لقد ظللنا نسير ، بغير استراحة ، نحو اثنتى عشر ساعة .. أنا والبغلة »

وفجأة قالت المرأة بصوت غاضب من أجله :

« سوف يبيت ليلته هنا طبعا .. هذا أقل مايجب أن نفعله .. »

وقال الراهب :

« لسوف أقيم لكم قداسا فى الصباح .. »

وكان ينطق بهذه العبارات فى لهجة الذى يقدم اليهم رشوة كبيرة ليسمحوا له بالمبيت ، ولكنهم كانوا ينصتون اليه فى ضجر ونفور وكأنما هو يقدم اليهم هذه « الرشوة » من مال مسروق !

وقال أحدهم :

« اذا لم يكن مندوحة من اقامة القداس ، فنرجو يا أبى أن تقيمه فى ساعة مبكرة جدا ، فى سكون الليل اذا أمكن .. »

فقال لهم مدهوشا متسائلا :

« ماذا دهاكم جميعا .. مالكم هكذا وجلون ؟ ! »

« ألم تبلغك الانباء ؟ ! »

« أية أنباء .. ؟ »

« انهم يحتفظون برهائن من كل قرية يعتقدون أنك مررت أوسوف تمر بها ، واذا لم يبلغ أحدهم عنك ، فسوف يقتل بعض الرهائن رميا بالرصاص .. ثم يأخذون غيرهم .. وقد حدث هذا فى أبراشية كونسيبكون .. »

« كونسيبكيون ؟ ؟ »

وأخذ جفن عينه اليمنى يرتعد صعودا وهبوطا بهذه الحركة التى يعبر بها الجسم أحيانا عن القلق واليأس .. وأخيرا قال :

« من .. ؟ ! »

فلما نظروا اليه فى بلاهة ، أردف قائلا فى غضب وتوتر :

« من الذى قتلوه أخيرا هناك ؟ ! »

« بدرو مونتيز .. »

وندت عنه صيحة توجع كالتى تنبعث من كلب يضرب .. لشد ما شعر بالفزع ، وبالحزن .. ! وأرسلت الطفلة ـ العجوز ـ الصغيرة ضحكة ساخرة من صيحته ..

وعاد وهو يقول فى توجع شديد :

« لماذا لم يقبضوا على .. هؤلاء الحمقى .. لماذا لم يقبضوا على .. »

وضحكت الطفلة النحيلة مرة أخرى .. فوجه اليها نظرات جوفاء كأنما هو يسمع صوتها دون أن يرى وجهها .. لقد ذوت زهور السعادة فى قلبه قبل أن تجد الفرصة للازدهار .. لقد شعر كأنه امرأة وضعت جنينا ميتا .. انها تريد أن توارية الثرى بسرعة .. أن تنساه .. ثم تبدأ من جديد .. فلعل الطفل التالى يولد حيا ..

وقال أحد الرجال :

« أرأيت يا أبى .. لماذا .. »

وخامره شعور الرجل المذنب الواقف أمام القضاة .. ثم قال :

« هل .. هل كنتم تفضلون أن .. أن أحذو حذو زميلى بادرجوزيه المقيم بعاصمة الولاية ، هل تعرفونه أو تسمعون عنه ؟ »

فقال بعضهم بلهجة فيها رنين الاقتناع :

« طبعا لا .. يا أبى .. لانريد أن تكون مثله .. »

« أوه .. ماذاأقول الآن ؟ ان الأمر ليس كما أريد أنا أوكماتريدون أنتم .. »

ثم أردف يقول فى حدة وبلهجة آمرة :

« لسوف أنام الآن .. ويمكنكم أن توقظونى قبل الفجر بساعة .. نصف ساعة لسماع اعترافاتكم .. والنصف الآخر للقداس .. ثم أمضى .. »

ولكن .. الى أين يمضى ! ؟

فليس ثمة قرية فى تلك النواحى يمكن أن يرحب أهلها به ..

لقد أصبح الآن مجرد خطر شديد يسير على قدميه أو راكبا بغلة ..
وقالت المرأة :
« هلم يا أبى الى هذه الجهة .. »
وتبعها الى غرفة صغيرة كانت أثاثاتها مصنوعة من خشب الصناديق : مقعد وسرير : عبارة عن مجموعة من الالواح الخشبية فوقها حصيرة من القش ، وسفط عليه بعض الملابس ، ومصباح بترولى . وقال الراهب للمرأة :
« اننى لا أريد أن أحرم أحدا من المبيت فى غرفته هذه ! »
« انها غرفتى .. »
فنظر اليها فى ريبة وقال :
« اذن أين ستنامين أنت ؟ »
وكان يلقى هذا السؤال وهو يرتعد فى أعماق نفسه من الاجابة وراح يرقبها ويختلس النظر اليها ويتساءل فى نفسه : أهذا كل مافى الزواج .. نظرات مختلسة ، ومراوغة فى الحديث ، وشك متبادل ، وعدم الشعور بالراحة النفسية ! هل هذا هو كل ما كان يشعر به أولئك الذين كانوا يعترفون له بذنوبهم العاطفية ! مجرد فراش خشن ، وامرأة مشغولة بالأعباء،وتجنب الحديث عن الماضى:
وأجابت المرأة بهدوء :
« فى كوخ آخر »
وغابت الشمس تماما وراء أشجار الغابة ، وامتدت الظلال حتى أبواب الاكواخ ، ورقد هو على الفراش ، وأخذت المرأة تشغل نفسها بالبحث عن شىء ، فكان يسمعها — دون ان يراها — وهى تنبش أرضيه الكوخ ، ولم يستطع أن ينام بسبب الأفكار التى ظلت تعصف برأسه .. هل حان الوقت أخيرا لان يهرب ! لقد حاول أن يهرب قبل الآن بضع مرات ، ولكن الأهالى كانوا فى كل مرة يمنعونه من الهرب .. كانوا يعتبرونه رمز المقاومة للقوانين الالحادية ، فهل

يريدون الآن أن يتركوه يهرب ! ان أحدا منهم لايحاول أن يمنعه من الهرب فيزعم له ــ كما حدث كثيرا من قبل ــ بأن امرأة مريضة تحتاج الى بركاته ، أو رجلا يحتضر ويحتاج الى صلواته ..

هل أصبح الآن رمزا للمرض . . والموت !

وقال أخيرا المرأة :

« ماريا . . ! ماذا تفعلين ؟ »

« لقد احتفظت لك ببعض الخمر »

وعاد يفكر : واذا هربت الآن من هذه الولاية ، فسوف ألتقى بقساوسة ورهبان آخرين ، ولسوف تتاح لى فرصة الاعتراف بين أيديهم ، فانطهر ، وأظفر بالمغفرة ، واستأنف من جديد حياة الورع والتقوى ، فانه من أهم تعاليم الأديان هى أن يبدأ كل انسان بأنقاذ روحه ــ أولا ــ من الضلال . وأخذت فكرة العقاب والثواب ،والجنة والنار تتحرك فى ذهنه . فان سنوات حياته الأخيرة الخالية من الكتب ومن الاتصال بالرجال المثقفين قد كادت تنسيه كل تعاليم الدين فيما عدا مبادئه الأولية البسيطة .

وقالت المرأة فجأة وهى تحمل فى يدها زجاجة دواء مملوءة بالخمر:

« هذه هى . . »

وكأنما لم يسمع عبارتها ، وانما استمر فى أفكاره : انه اذا تركهم الآن ، فسوف ينقذهم من بطش القوة الغاشمة ، ولكنه فى ذات الوقت سيحرمهم من رمز المقاومة ، فقد كان هو الراهب ــ أو القس ــ الوحيد الذى يتذكره الأطفال .. وهو أيضا الوحيد الذى يلقن هؤلاء الأطفال تعاليم الدين ، فاذا هو تركهم ، فكأنما يترك هذه المنطقة الواقعة بين الجبال والبحر فريسة سهلة لقوانين الالحاد . ولهذا ، أليس من الواجب أن يبقى حتى لو كان عرضة لاحتقارهم ! أليس الواجب أن يبقى حتى لو تعرض بعضهم للقتل رميا بالرصاص بسببه ! أليس من الواجب أن يبقى ، رغم أنه ليس بالمثل الطيب الذى

يحتذى ! انها مشكلة ضخمة تهز كيانه وتعصف به ، وانه ليظل راقدا فى الفراش وقد وضع يديه على عينيه . انه لايجد فى كل هذه المنطقة الواسعة شخصا واحدا يستطيع أن يستشيره .

ورفع زجاجة الخمر الى شفتيه وقال للمرأة بصوت خجول !

« وبريجيتا .. هل هى فى حالة طيبة ؟ ! »

« لقد رأيتها بنفسك منذ لحظات »

« أحقا ؟ ! »

انه لايريد أن يصدق أنه رأى بريجيتا . . ابنته . . دون أن يتعرف عليها . . فهل هذا معقول ! أيعقل أن يرى ثمرة خطيئته دون أن يعرفها ؟ !

وقالت المرأة بلهجة تأكيد :

« نعم كانت بين الأطفال الذين قبلوا يدك »

ثم تقدمت نحو باب الكوخ ونادت على ابنتها :

« بريجيتا .. بريجيتا .. »

واستدار هو بوجهه نحو الباب ليراها وهى مقبلة .. وراح يرقبها وهى تترك ما وراء الكوخ من عالم الفزع والغرائز ، وتدخل اليه .. انها نفس الطفلة الصغيرة ــ العجوز ــ العجفاء التى ضحكت منه ساخرة مرتين ؟ !

وقالت ماريا للطفلة :

« هلم تقدمى وتحدثى مع أبيك .. تقدمى .. ! »

وحاول أن يخفى زجاجة البراندى ، ولكنه لم يجد ثمة مكانا لاخفائها ، فلم يسعه الا أن يغطيها بكفيه وهو يمعن النظر الى ابنته وكأنما هو مذهول بصدمة الحب الأبوى المفاجىء .

وعادت ماريا تقول :

« انها تحفظ حوار أصول الدين .. ولكنها لاتردده .. »

وظلت الطفلة واقفة ترقب الراهب بامعان واحتقار .. ولم يعجب

هو كثيرا لموقفها هذا منه .. فانه ـ وأمها ـ لم ينثرا فى دمائها بذور الحب .. وانما هى مجرد نتيجة ـ أو نتاج ـ للحظة خوف ويأس ونصف زجاجة براندى وشعور عميق بالوحدة جعله يرتكب هـذه الخطيئة التى أثارت ـ بعد ارتكابها ـ أبشـع ألوان الفزع فى قلبه.. ومع هذا كله فقد كان يشعر نحوها بحب فياض يزيد من شعوره بالفزع والخجل .

وراح يختلس اليها نظرات سريعة مراوغة حتى لاتلتقى بنظراتها وهو يشعر بقلبه يخفق فى عنف رهيب ـ كالآلة البخارية ـ ويزخر بالرغبة العنيفة فى أن يحميها وينقذها من ـ كل شىء .. وفجأة راح يسأل نفسه ثم يجيب عليها :

« ولمـاذا أفعل .. »

« هـذه ارادة الله .. »

« ومن أين تدرى ؟ »

وأحس فجأة بعبء ثقيل من المسؤلية يجثم على كاهلـه .. انه شعور مختلط بالحب . وخطر له أن هذا ولا شك هو مايشعر به كل الاباء .. هذا هو الشعور الذى يدفع الرجال العاديين الى المضى فى الحياة وهم يبتهلون ضد الالم والخوف .. هذا هو الشعور الذى نجا منه ـ أو على الاصح ـ الذى ينجو منه زملاؤه الرهبان دون أن يضحوا بشىء الا بشهوة جسدية لا أهمية لها .. ووجد نفسه يتمتم بصوت خافت وهو يضغط بيديه على زجاجة البراندى :

« ياعزيزتى الحبيبة »

لقد عمدها فى آخر زيارة له للقرية ، ولم تكن يومذاك غير مخلوقة صغيرة مكمشة الوجه كأنها «عروسة» من القطن مما يلعب به الاطفال وكان يبدو أنها لن تعيش طويلا ، ولهذا لم يشعر نحوها يومذاك بأكثر من الندم .. وكان من الصعب أن يشعر بالخجل لان أحدا من أهل القرية لم يعتبر فعلته خطيئة .. فقد كان هو الراهب الوحيد ، ولم

يكن ثمة راهب أو قس آخر يمكن أن يقوم بمراسم الزواج بينه وبين ماريا . .

وفجأة سمع الطفلة تقول له :

« هل أنت المجرم الهارب ؟ »

» المجرم الهارب ؟ »

وقالت ماريا بسرعة :

« ان هذه الطفلة الحمقاء تعنى الرجل الاخر الذى يبحث البوليس عنه . . »

وعجب الراهب وهو يسمع لاول مرة ان البوليس يبحث عن رجل آخر غيره ، فقال :

» أى رجل أخر »

« رجل أمريكى الجنسية »

« وماذا فعل . .؟! »

« يقال انه قتل بعض الرجال هناك . . »

« ولماذا يظن البوليس أنه فى هذه المناطق ؟ »

«يظنون أنه فى الطريق الى كوينتارو . . حيث الاحراش الكثيفة»

وكانت منطقة كوينتارو هى المهرب الاخير للمجرمين فى المكسيك. ففيها يستطيع أى انسان أن يعمل بالمزارع دون أن يسأله أحد عن ماضيه .

وعادت الطفلة تقول :

« هل أنت المجرم الهارب ؟ »

« هل أيدو فى هيئة القتلة المجرمين . . ؟؟ »

« اننى لا أعرف »

وعاد يفكر : اذا هو غادر هذه الولاية ، فسوف يترك هذه الطفلة وراءه . . بغير معين .

وقال للمرأة فى ذلة ومسكنة :

« الا يمكن أن أقضى هنا بضعة أيام !! »

« من الخطر الشديد أن تفعل ياأبى »

ومرة أخرى شاهد فى عينى الطفلة تلك النظرة التى أخافته ..
نظرة الانثى الكامنه فى أعماق طفلة تبدو ـ نفسيا ـ أكبر من عمرها.
انها نظرة امرأة تفكر ، وتدبر وتدرك ماهى الحيـاة قبل الاوان . ان
الأمر يبدو له كأنما يرى خطيئته الكبرى تحدق فيه بكبرياء وتحد

وحاول هوأن يخاطب الطفلة ـ لا الانثى ـ فىأعماق نفسها ،فقال:
اخبرينى ياعزيزتى عن الالعاب التى تحبينها .. »

وضحكت الطفلة بسخرية وأزدراء ، ورفع عينيه فجأة نحـو
السقف حيث رأى عنكبوتا يتحرك .. وخطر بباله مثل انبثق من أعماق
طفولته .. وكان والده تمثل به ويردده كثيرا « أفضل رائحة هى
رائحة الخبز ، وأفضل مذاق هو مذاق الملح ، وأفضل حب هو حب
الاطفال .. »

لقد كانت طفولته مرحلة سـعيدة لم يكن يشوبه الا خوفه من
أشياء كثيرة ، والا أنه كان يكره الفقر كراهية الانسان الفاضل للجريمة
. وقد كان ـ وهو طفل ـ يعتقد أنه حين يصبح قسا أو راهبا فسوف
تمتلىء يداه بالمـال . ولهذا قرر أن يقع اختياره على هذه المهنة ،وانه
ليذكر هذه المرحلة الطويلة ، بين مرح الطفولة ، وبين هذا الفراش الذى
يرقد عليه الان ممسكا بزجاجة البراندى ، ولكن هذه المرحلة فى علم
الله لاتزيد عن لحظة ، وأنه ليرى ـ على هذا الاساس ـ أن الفترة
الواقعة بين خطيئة البشرية الاولى وبين ضحكة هذه الطفلة الساخرة
لا تزيد عن طرفة عين وانتباهتها . وبسط يده اليها .. الى الطفلة ؟
كأنما يريد أن يجذبها ـ بالقوة ـ بعيدا عن .. شىء . ولكنه شعر
بالعجز .. فلعل الرجل ـ أو المرأة ـ الذى سيتم أفسادها لم يولد
بعد ، فكيف يستطيع هو أن يحميها من شىء غير موجود ؟!

وتراجعت الطفلة عن تناول يده وهى تخرج له لسانها . وقالت
الام لها وهى ترفع يدها لتضربها :

« أيتها الشيطانة الصغيرة »

ولكن الراهب هتف قائلا وهو ينتصب جالسا على الفراش :

« لا . . كيف تجرؤين ؟! »

« انتى أمها . . ! »

« ليس لنا عليها أية حقوق »

ثم أردف قائلا للطفلة :

« لو أن لديك مجموعة من أوراق اللعب لعلمتك لعبة أو لعبتين من ألعاب التسلية التى تدهشين بها أترابك . . »

ولم يكن يعرف من قبل كيف يتحدث الاطفال الا من فوق المنبر. ونظرت الطفلة اليه فى وقاحة بينما أردف هو قائلا :

« هل تعرفين كيف ترسلين الرسائل عن طريق الاشارة والنقر ؟! نقرة طويلة . . ثم قصيرة ثم طويلة . . — »

فتساءلت الام فى دهشة :

« ما معنى هذا يا أبى ؟! »

« انها لعبة يمارسها الاطفال . . واعرفها . . »

ثم عاد يقول للطفلة :

« ألديك أصدقاء ؟ »

ومرة أخرى ضحكت الطفلة ساخرة عن عمد . . وبدا جسمها الذى لايزيد فى العمر عن سبعة أعوام كأنه جسم قزم يخفى نوعا من النضوج البشع . .

وقالت المرأة لها آمرة :

« أخرجى من هنا . . »

وقامت الطفلة بحركة أخيرة تنم عن الوقاحة والشر ، ثم خرجت من الغرفة : ربما الى الابد بالنسبة للراهب . وخطر له فى تلك اللحظة أن الانسان عادة لا يقول « وداعا » للاعزاء الاحباب وهم على فراش الموت وقد شملهم جو مفعم بعطر البخور والفراغ . . !

وقال للمرأة :

« انني أتساءل . . هل يمكننا أن نعلمها ـ »

ثم راح يفكر في موته هو ، وفي حياتها من بعده ، ولعله قد يشعر بعذاب الجحيم وهو يراها تلحق به تدريجيا وتمر مثله في مرحلة كلها الذل والخطر . . وذلك بعد أن ترث عنه الضعف كما يرث الابن مرض الصدر عن أمه .

وعاد يرقد على الفراش ويستدير بوجهه بعيدا عن بقايا ضوء الشمس الغاربة ، وبدا عليه كأنه استغرق في النوم مع أنه كان في تمام اليقظة وشغلت المرأة نفسها ببعض الاعمال الخفيفة ، حتى اذا غربت الشمس انطلقت أسراب البعوض الى أهدافها الآدمية كأنها السهام المرسلة باحكام .

وقالت المرأة له :

« هل أحيط الفراش يا أبى بكلة ؟!

« لا . . لا لزوم لها . . »

وما جدوى الكلة وهو الذى عانى من الحميات خلال السنوات العشر الأخيرة مالا يحصى من المرات . . انه بعد هذا كله لم يعد يهتم . . فليأت البعوض أو ليرحل . . لقد أصبح جزءا من حياته .

وغادرت المرأة بعد قليل الكوخ ، وراح يسمع صوتها وهي تتبادل الحديث مع النسوة في الخارج . وشعر بالدهشة ، وبشيء من الراحة ، لنكوصها عن مجرد الحديث ـ أو الاشارة ـ عما كان بينهما في الماضي . فقد حدث منذ سبع سنوات ، ولمدة لاتزيد عن خمس دقائق ، أن كانا عشيقين ، اذا صح أن تطلق هذه الكلمة على علاقة بين امرأة ورجل لم تذكر هي اسمه ذات مرة مجردا . لقد كانت هذه الدقائق بالنسبة لها مجرد حادث عابر كأنه جرح بسيط لم يلبث أن التأم . بل لعلها كانت ـ ولم تزل ـ تشعر بالفخر لانها تزوجت راهبا ولو لمدة خمس دقائق . أما هو ، فانه يمضى في الحياة بجراح

دامية ليس لها التئام ، وكأنما أصبح العالم ــ بالنسبة اليه ــ هباء وفناء .

... ...

كان الظلام لم يزل ناشرا ظلاله السوداء الكثيفة على الوجود ،ولم يكن فى الجو مايبشر بقرب انبلاج الفجر . وكان هو (الراهب) واقفا فى أكبر الأكواخ يلقى مواعظه على مجموعة من الرجال لايتجاوز عددهم أربعة وعشرين . ولم يكن فى مقدوره أن يراهم بوضوح ، فقد كان القنديل الموضوع على صندوق فارغ يرسل من ذبالته ضوءا خافتا ممتزجا بالدخان ، ولم يكن ثمة تيار هوائى فى الكوخ بسبب اغلاق الباب ، وكان هو يتحدث اليهم عن السماء وهو واقف فيما بينهم وبين القنديل بملابسه الممزقة ، وكانوا هم يغمغمون فى ضيق ، ويتململون فى قلق .. انه يعرف مبلغ لهفتهم على الفراغ من هذا القداس ، ولهذا السبب أيقظوه فى بهيم الليل ليقوم به حين تواترت الأنباء عن اقتراب رجال البوليس من القرية ..

وقال لهم :

« لقد ذكر واحد من آبائنا أن اللذة تعتمد دائما على الألم .. لان الألم جزء منها ، أننا نشعر بألم الجوع ، ولكن هذا الألم هو الذى يجعلنا نشعر بلذة الطعام حين نقبل عليه أخيرا ، ونحن نشعربالظمأ»

وتوقف فجأة وهو يرسل نظراته الى الرجال القابعين فى الكوخ كالظلال ، وتوقع أن يسمع ضحكة ساخرة ، ولكن أحدا لم يضحك، فاستطرد يقول :

« ولهذا فنحن نحرم أنفسنا لكى نتمتع فى النهاية باللذة الأبدية .. ولعلكم قد سمعتم أن الرجال الأغنياء فى أمريكا يأكلون الطعام الزاخر بالملح حتى يشعروا دائما بالظمأ ، وبذلك يشربون أكبر كمية من الكوكتيل ــ : وكذلك قبل الزواج ، يمر الانسان بمرحلة الخطبة »

وتوقف مرة أخرى عن الحديث وهو يشعر كأن تفاهة شأنه

شيء ثقيل فوق لسانه ، وكان فى جو الغرفة رائحة شمعة فى نهاية الاحتراق ، وتحرك الرجال متململين مرة أخرى بين الظلال ،وطغت على رائحة الشمعة المحترقة ، رائحة أخرى أشد وأنفذ .. رائحة الأجسام البشرية التى لم تغتسل فى الصباح .. ولكنه لم يلبث أن صاح بعناد وفى لهجة آمرة حازمة !

« وهذا هو السبب فى قولى لكم أن السماء هنا .. معكم .. هذا المكان الذى تعيشون فيه هو جزء من الجنة كما أن الألم جزء من اللذة .. ! »

ثم أردف قائلا :

« ابتهلوا الى الله أن تشعروا بمزيد من الألم والعذاب فى هذه الدنيا .. لاتملوا أبدا هذه الشعور بالألم .. ان رقابة البوليس لكم .. واغتصاب الجنود لأرزاقكم تحت اسم الضرائب ، وضرب المدير لكم كلما عجزتم عن الدفع ، والحميات ،والجدرى ، والجوع، كل هذا جزء من الجنة .. تمهيد لها .. فمن يدرى .. فلعلكم بدون هذه الآلام لاتظفرون بالنعيم الكامل .. لاتستمتعون بالجنة على أتم وجه .. والجنة .. ماهى الجنة .. »

وراح يحاول أن يصفها لهم بعبارات بسيطة .. ولكن الأمر اختلط عليه وهو يحاول أن يصف لهم صورة منها .. لم يدرماذا يقول .. هل يقول بأنها من الأحجار الكريمة والذهب ، ولكن هؤلاء الناس لم يروا الذهب فى حياتهم ، فضلا عن الأحجارالكريمة!

وأخيرا راح يقول « ان الجنة هى المكان الذى ليس فيه حكام ظالمون .. ولا قوانين استبدادية .. ولا ضرائب باهظة ، ولاجنود .. ولا جوع .. وأولادكم لن يموتوا فيها »

وفتح باب الكوخ ، وتسلل من الخارج رجل راح يتبادل الهمس مع بعض الجالسين فى الظلال .

واستمر الراهب فى موعظته قائلا :

« انكم .. هناك ، لن تشعروا بالخوف أبدا .. ولن تشعروا بالخطر .. فليس هناك قمصان حمراء .. ولن يعرف أحدكم معنى الشيخوخة والعجز .. ولن تخذلكم محصولاتكم .. أوه .. وما أكثر الأشياء البغيضة التى يمكن أن نحصيها ونقول انها غير موجودة بالجنة .. المهم ان الله هناك .. والمشكلة هى أنى لا أجد الألفاظ التى أستطيع أن أعبر بها عن أشياء بعيدة عن متناول حواسنا .. اننا نقول « الضوء » ونحن نفكر فى الشمس ونقول « الحب »

وتوقف عن الحديث وهو يعانى أشد الصعوبة فى تركيز أفكاره: فقد كان رجال البوليس يقتربون حثيثا .. ويبدو أن الرجل الذى تسلل داخلا كان يحمل آخر أنباء تحركاتهم . ولكنه استمر فى حديثه قائلا :

« ونقول الحب .. ونحن ربما نعنى ... الابناء .. »

وفتح الباب مرة أخرى ، ومن فرجته رأى فجر يوم آخر وهو يتسلل على صفحة المكان ، ثم سمع صوتا يهمس له فى لهفة !

« أبى »

« نعم .. ! »

« ان رجال البوليس فى طريقهم الينا .. أصبحوا على مسيرة ميل .. انهم آتون عن طريق الغابة .. »

ولم يكن ذلك بالشىء الجديد عليه .. فقد كان يتوقع دائما أن يدخل رجال البوليس كالاشباح فيما بينه وبين عقيدته ، ومن ثم استطرد يقول بعناد :

« وفوق كل شىء يجب أن تذكروا أن الجنة هنا .. »

ترى هل جاء رجال البوليس راجلين أم راكبين ؟ ! اذا كانوا راجلين فلن يصلوا قبل عشرين دقيقة ، وهى مدة كافية لان يفرغ من القداس ويختفى ..

« نعم هنا .. الآن .. ان مخاوفكم .. ومخاوفى جزء من الجنة التى لن نشعر فيها بالخوف أبدا .. »

واستدار بظهره اليهم وراح يقرأ بسرعة ورد الايمان . وقد سبق له من قبل أن قرأ مثل هذا القداس وهو فى أشد حالات الفزع ، وذلك عندما قرأه عقب ارتكاب تلك الخطيئة الكبرى .. ولكن الحياة لم تلبث أن زودته بالأعذار حتى لم يعد يحفل كثيرا بذكرى هذه الخطيئة وما سوف يلقاه من عذاب بسببها أو مغفرة ، ما دام يواصل كفاحه لانقاذ هؤلاء من هاوية اليأس ..

واستدار أخيرا نحو المجتمعين ، واستطاع أن يرى فى الضوء الشاحب اثنين منهم راكعين وقد بسطا اذرعتهما على هيئة صليب ، وكان عليهما أن يبقيا هكذا حتى تنتهى مراسم القداس ... وكان هذا يعنى مزيدا من الالم الذى يعتصر حياتهم الاليمة الجافة ، وخامره شعور بالذلة والخضوع وهو يرى رجالا عاديين يحتملون — طائعين — هذه الآلام التى يحتملها هو مرغما .. !

« يا الهى .. انى أحب جمال جنتك .. »

وتصاعد الدخان من ذبالة القنديل ، وتململ الجالسون والراكعون وشعر فجأة بلون عجيب من السعادة يطفو على نفسه قبل أن يعاوده الشعور بالقلق ، وخيل اليه أنه قد سمح له أن يرى من الخارج بعض مكان الجنة .. فلا شك أن الجنة تضم رجالا كهؤلاء جائعين يمنعهم الخوف والفزع من الشعور بأداء الواجب ، وفى تلك اللحظة ، شعر بالرضى العميق لانه استطاع أن يتحدث الى هؤلاء المعذبين فى غير نفاق أو رياء .. ذلك أنه كان من العسير على رجل الدين البدين المرفه أن يصور للناس جمال الفقر .

وبدأ صلاته من أجل القديسين .. قائمة طويلة من الشهداء الاحياء فى السماء .. وكانت أسماؤهم ترن فى الكوخ كوقع خطوات منتظمة : كورنيلى كيبريانى .. اورنتى .. كريسوبى ، وحالا سوف يصل رجال البوليس الى الساحة المعشبة فى الغابة ، حيث حطت بغلته فجأة ، وحيث غسل وجهه فى مياه الجدول العكر .. وانطلقت

من طرف لسانه بسرعة ، الاسماء اللاتينية ، الواحد فى أثر الآخر ، وهو يشعر بموجة القلق تطغى على المجتمعين معه .

ثم بدأ فى تدشين القربان « وكان مجرد قطعة خبز من فرن ماريا «كان مثل هذا القربان فى العهد الاول رقاقا» وفجأة خيمت السكينة على قلوب الجميع ، وأخذ كل شىء يجرى فى رتابة وانتظام كقوله « أن الذىعانى العذاب فى اليوم السابق . أخذ الخبزالمقدس بين يديه الطاهرتين » ، وأيا كانت تحركات أولئك الذين فى خارج الكوخ ، فقد ظلت السكينة منتشرة فى داخله ، وشعر الراهب أن الله معه.، فى هذا الكوخ ، لاول مرة منذ ست سنوات .. وعندما رفع فى يده القربان ، تخيل وجوه المجتمعين وهى ترفع اليه كأنها نظرات كلاب جائعة .. ثم بدأ فى تدشين الخمر ، فى قدح مشقوق ، وكان هذا التدشين نوعا آخر من سلسلة الاستسلامات التى اضطر اليها ... ذلك أنه ظل يحمل هذا القدح المشقوق أكثر من عامين ، وقد كاد ـ بسببه ـ أن يفقد حياته ، لولا أن ضابط البوليس الذى عثر عليه فى حقيبته كان يدين بالمذهب الكاثوليكى سرا ، وقد كان من الممكن أن يفقد ضابط البوليس حياته لو أن أحدا رآه وهو يعيد القدح الى الحقيبة بسرعة ...

وكانت هذه المراسم كلها تجرى فى هدوء .. فلا أجراس ترن ، ولا أناشيد تلقى ، وأخيرا ركع الراهب بجانب الصندوق الفارغ ، متعبا ، متهالكا .. وفتح الباب من الخارج ، وهمس رجل فى صوت كله اللهفة والقلق :

« لقد وصل رجال البوليس .. »

اذن لم يكونوا راجلين ، وانما على صهوات الجياد .. هكذا راح يفكر فى ذهول .. وسمع الجميع ، من مكان ما ، فى سكون الفجر ، صهيل جواد .. على مسافة لا تقل عن ربع ميل .

ونهض واقفا .. ووقفت ماريا بالقرب منه تقول :

« قطعة الجوخ يا أبى .. هات قطعة الجوخ .. »

ووضع قربان الخبز بسرعة فى فمه ، ثم شرب قطرات الخمر فى القدح ، بينما انتزع أحدهم قطعة الجوخ المفروشة على الصندوق الفارغ ، ودسها فى حافظة الاوراق ، ثم أطفأ بعضهم القناديل والشموع وقصوا ذبالاتها حتى لا تترك وراءها دخانا يتصاعد ، وأخليت الغرفة بسرعة . ولم يبق الا صاحب الكوخ واقفا أمام بابه فى انتظار تقبيل يد الراهب وهو يخرج . وكان العالم خارج الكوخ يبدو فى شحوب الفجر غامضا .. وصاح ديك فى مكان ما بالقرية .. وقالت ماريا :

« هلم يا أبى الى كوخى بسرعة »

ولكنه قال دون أن تكون فى ذهنه فكرة معينة :

« بل يحسن أن أمضى حتى لا يقبض على هنا .. »

« انهم قد ضربوا الحصار على القرية كلها .. »

وراح يتساءل فى نفسه : أهذه هى النهاية ؟ انه يعرف أن شبح الخوف يتربص به لينقض عليه ، ولكنه لم يكن فى تلك اللحظة خائفا وتبع المرأة ــ مهرولا ــ عبر الساحة ، الى كوخها وهو يردد ــ آليا ــ بعض الدعوات ، انه لا يدرى متى سينقض عليه شبح الخوف ، فقد شعر بالفزع مرة حين فتح رجال البوليس حافظة أوراقه لتفتيشها .. ولكن هذا حدث منذ سنوات ، وقد شعر مرة أخرى بالفزع حين اختبأ بين سباطات الموز فى مخزن الكابتن « فيلوز » وهو يسمع الصبية « كورال » تراوغ ضابط البوليس ، وكان هذا منذ أسابيع قليلة . وليس من شك فى أنه سوف يشعر بالخوف سريعا . ولم يكن ثمة أثر لرجال البوليس فى الساحة .. وانما ضوء الفجر الباهت وبعض الدجاج والديكة الرومية التى راحت تهبط من غصون الاشجار حيث أمضت ليلتها . ومرة أخرى سمع صياح الديك .

فلو أن رجال البوليس عرفوا كيف يحسنون التفتيش ، لامكنهم العثور عليه هنا .. فتكون النهاية ..

وجذبته ماريا قائلة :

« أسرع بالرقاد على هذا الفراش »

وكان الواضح أن لديها خطة تريد تنفيذها .. فالمعروف أن النساء فى مثل هذه المواقف ، يكن عمليات ، فهن ينشئن خططا وأفكارا جديدة على أنقاض الخطط والافكار القديمة غير الصالحة ، ولكن .. ما الفائدة فى حالة ميئوس منها كهذه !

وعادت تقول :

« دعنى أشم أنفاسك .. يا الهى .. ان رائحة الخمر واضحة فيها .. لسوف يسألوننا عن سبب شربك الخمر فى مثل هذه الساعة » .

ثم غابت داخل الكوخ برهة كأنما تبحث عن شىء . وفجأة سمعت حوافر جواد وهو يبرز من الغابة التى لا تبعد مائة ياردة ، وكان سكون الفجر مخيما حتى ليكاد الانسان أن يسمع الصرير الجلدى لجراب المسدس فى حزام الضابط .

وأحاط رجال البوليس بالاكواخ والساحة .. ويبدو أنهم كانوا يجدون السير فى الغابة على أقدامهم ، ذلك أن ضابطهم وحده هو الممتطى صهوة جواد ، وشرعوا يقتربون من الاكواخ حاملين البنادق . وكانوا شرذمة قليلة العدد ترمز للقوة فى اسفافها وانحطاطها .. فقد كان قلشين أحدهم يجرجر وراءه ويبدو أنه اشتبك فى شىء داخل الغابة ، وقد تعثر الجندى فيه مرتين وسقط على الارض ، وكان الضابط الراكب يتلفت حوله قبل أن يركز ــ أخيرا ــ نظراته المفعمة بالغضب والمرارة على الاكواخ الساكنة ..

وكانت المرأة فى داخل الكوخ تجذبه وتهمس له :

« أقضم هذه بأسنانك .. بسرعة .. فلم يعد لدينا وقت .. »

وأشاح بوجهه عن رجال البوليس المتقدمين نحو الساحة ،

واستدار الى ظلال الكوخ حيث رأى المرأة ممسكة ببصلة وهى تردد :

« أقضم هذه .. فان رائحتها تغلب رائحة الخمر .. »

وراح يعض البصلة وقد أخذت دموعه تنحدر ، وقالت المرأة :

« أليس هذا أحسن ؟ »

وكان يسمع دقدقة حوافر الجواد وهو يتقدم بحذر فيما بين الاكواخ ، ثم قال وهو يرسل ضحكة خفيفة بلهاء :

« بل هذا فظيع .. »

« حسنا .. أعدها الى .. »

وأخذتها منه وأخفتها بين طيات ملابسها بينما قال هو :

« أين حافظة أوراقى ؟ »

« لا تهتم بها الآن .. أرقد على هذا الفراش »

وقبل أن يتحرك من مكانه ، كان جواد الضابط يسد الباب ، وكان فى مقدوره أن يرى ساق الضابط بحذاء الركوب ذى الخطوط الحمراء والمهماز النحاسى اللامع ، ويده المستترة بالقفاز معتمدة على عجرة السرج . ووضعت « ماريا » يدها على ذراع الراهب ، وكانت تلك أول حركة تحمل فى طياتها معنى العاطفة بينهما .. ولم تكن العاطفة فى حياتهما غير وهم باطل . وفجأة سمع الجميع صوتا آمرا يقول :

« أخرجوا من الاكواخ .. جميعا .. »

وضرب الجواد الارض بحافره حيث أرسل فى الجو خيطا من الغبار ، بينما تكرر الصوت الامر قائلا :

« قلت لكم .. أخرجوا جميعا .. »

ودوت فى مكان ما ، طلقة نارية .. وغادر الراهب الكوخ الى الساحة . وكان الفجر قد أسفر تماما ، وشاعت فى الجو تباشير الصباح ، وكان ثمة رجل قد رفع فوهة مسدسه الى أعلى حيث كانت سحابة من دخان البارود لا تزال منعقدة فى الجو . ترى .. أهذه

هى اللحظة التى سينقض فيها شبح الفزع عليه ويمزق نفسه !

وكأن أهل القرية جميعا قد بدأوا يخرجون من أكواخهم فى تكاسل .. الاطفال أولا ، وكان الفضول يتملكهم دون أن يشعروا بالخوف ، أما الرجال والنساء فقد كان يبدو عليهم سمت الاستسلام المطلق للقوة .. القوة التى لا تعترف بالخطأ :

ولم يحاول أحدهم أن ينظر الى الراهب ، وانما أطرقوا برءوسهم الى الارض وراحوا ينتظرون .. أما الاطفال ، فقد أخذوا يتفرجون على الجواد كأنه أهم شىء فى الامر كله ..

وقال الضابط :

« فتشوا الاكواخ »

ومضت الدقائق بطيئة .. حتى دخان البارود المنعقد فى الجو ، ظل على أجنحة الهواء لايريم ، وخرجت بضعة خنازير من أحد الاكواخ ، ورفرف الديك الرومى الى منتصف الساحة بكبريائه الوقحة ، وأخيرا جاء أحد الجنود الى الضابط وحياه قائلا :

« جميع سكان القرية مجتمعون هنا .. »

« ألم تجد شيئا يثير الاشتباه ؟ »

« لا »

« اذن أعد الكرة .. »

ومرة أخرى توقف مرور الزمن كأنه ساعة معطلة .. وتناول الضابط علبة سجائر ، وبدا عليه التردد برهة ، ثم أعادها الى مكانها. واقترب الجندى مرة أخرى وقال للضابط :

« لا شىء ياسيدى .. »

وصاح الضابط بصوت كالعواء ؟

« انتباه .. كلكم .. هلم أنصتوا الى .. »

وأخذت حلقة رجال البوليس المحيطة بالساحة تضيق وتحصر بينها سكان القرية وتضغطهم فى مجموعة صغيرة أمام الضابط . أما

الأطفال ، فقد تركوا أحرارا . ورأى الراهب طفلته بريجيتا واقفة بجانب جواد الضابط ، ولم تكن رأسها تبلغ حذاءه فى الركاب ، ورفعت يدها ولمست جلدة العنان المدلاة ، بينما قال الضابط :
« اننى أبحث عن رجلين : أحدهما مجرم هارب .. أمريكى .. قاتل .. ويبدو لى بوضوح أنه ليس بينكم .. وهناك جائزةمقدارها خمسمائة بيزة لمن يقبض عليه ، فافتحوا عيونكم جيدا .. »

ثم توقف برهة وراح يحدق بنظراته فى وجوههم .. وشعر الراهب أن نظرات الضابط توقفت على وجهه ، فأطرق برأسه الى الأرض كبقية زملائه .

واستطرد الضابط فى الحديث قائلا وهو يرفع طبقة صوته بضع درجات :

« أما الآخر .. فهو قسيس .. راهب .. وأنتم تعرفون معنى هذا .. انه خائن للجمهورية .. وكل واحد يتستر عليه سيكون خائنا مثله . »

ويبدو أن جمودهم أثار الغضب فى نفسه اذ قال :

« اذا كنتم لاتزالون تصدقون مايقول القساوسة والرهبان لكم فأنتم بلهاء وحمقى ، ان كل مايريدونه منكم هى أموالكم .. ماذا فعلت السماء التى يحدثونكم عنها لكم ؟ هل أرسلت عليكم ما يكفى لاطعامكم .. ؟ هل منحتكم مايكفى لاطعام أولادكم . ! انهم يزعمون لكم أن كل شىء سيصبح رائعا بعد وفاتكم .. أما أنا فأقول لكم أن كل شىء سيصبح رائعا بعد وفاتهم هم .. ويجب أن تساعدونى للقضاء عليهم .. »

ووضعت الطفلة بريجيتا يدها على حذائه ، فنظر اليها بمزيج من العطف والرثاء ، ثم قال بلهجة تأكيد .

« هذه الطفلة البائسة فى نظرى خير من البابا الجالس على عرشه فى روما »

ومال رجال البوليس معتمدين على بنادقهم كأنما سيغلبهم النوم

على أمرهم ، وتثاءب أحدهم ، وانطلق الديك الرومى عائدا الى الكوخ، واستطرد الضابط يقول :

« اذا كان أحدكم قد رأى هذا الراهب المختفى، فليبلغنى أمره .. فاننا قد رصدنا جائزة مقدارها سبعمائة بيزة لمن يخبرنا عن مكانه .. »

ولم ينطق أحد بكلمة ..

وحول الضابط رأس جواده نحوهم ثم قال :

« اننا واثقون أنه فى هذه المنطقة .. ولعلكم لاتعرفون ماذا حدث لرجل فى مدينة كونسيكيون .. »

وشرعت احدى النساء تبكى بينما استطرد الضابط يقول :

« هلم تقدموا الى .. واحدا بعد الآخر .. وليذكر كل منكم اسمه لى .. لا .. لاتتقدم النساء .. أريد الرجال فقط .. »

وشرع الرجال يتقدمون فرادى فى عبوس واكتئاب، وأخذالضابط يسألهم الواحد بعد الآخر قائلا :

« ما اسمك ؟ بماذا تشتغل .. ؟ أمتزوج ؟ ومن هى زوجتك .. ؟ هل سمعت شيئا عن مكان الراهب .. »

ولم يبق غير رجل واحد بين الضابط والراهب ، فأخذ هذا يتمتم بصلاة خافتة فى شىء من الشرود والذهول، فكان يقول« ان خطاياى، لا لأنها أدت الى صلب مخلصى المحبوب ولكن الاهم لانها أغضبت »

ووجد نفسه فجأة وجها لوجه مع الضابط .. ولكنه استمر فى صلاته الصامتة فقال :

« وانى أتوب اليك يا رباه وأتعهد بألا أفعل أبدا مايغضبك .. »

وكان يشعر أن الواجب يحتم عليه ترديد هذه الصلاة فى تلك اللحظة ، وكأنها الوصية الأخيرة ينطق بها الرجل وهو على فراش الموت .

« ما اسمك .. »

وانبثق فى ذهنه اسم الرجل الذى قتل فى كونسبكيون ، فقال :
« «مونتيز .. »
« هل رأيت الراهب ذات مرة ؟ «
« لا .. »
« بماذا تشتغل ؟ »
« فى قطعة أرض صغيرة »
« هل أنت متزوج »
« نعم .. »
« أين زوجتك ؟ »
وتقدمت « ماريا » بسرعة وقالت :
« أنا زوجته .. ولماذا توجه اليه كل هذه الأسئلة .. أتراه أمامك يشبه من بعيد أو من قريب أى راهب أو قسيس ؟ »
وكان الضابط فى تلك اللحظة يتأمل شيئا فى يده ، صورة قديمة، وأخيرا قال :
« أرنى يديك .. »
ورفع الراهب الى الضابط يدين خشنتين كأيدى العمال . وفجأة مال الضابط من فوق السرج وراح يشم انفاسه ، وخيم الصمت العميق على القرويين .. الصمت الرهيب الخطير الذى قد يوحى للضابط بأنهم خائفون يترقبون . وشرع يحدق فى الوجه الشاحب الغائر الوجنتين النابت الشعر ، ثم يعيد النظر الى الصورة ،وأخيرا قال :
« حسنا .. ليأتى من بعده .. »
وقبل أن يتراجع الراهب الى مكانه ، هتف الضابط آمرا :
« انتظر .. »
ثم وضع يده على رأس الطفلة بريجيتا ، وراح يشد فى رفق شعرها الاسود الخشن وهو يقول :

« اسمعى يا طفلتى .. انك تعرفين كل سـكان هذه القرية . أليس كذلك ؟ ! »

« نعم .. »

فأشار الى الراهب وقال :

« من هو هذا الرجل ؟ ماهو اسمه ؟

« لا أعرف .. »

وأمسك الضابط أنفاسه برهة ثم قال :

« ألا تعرفين اسمه ؟ ! هل هو غريب اذن ؟ »

وعندئذ أسرعت أمها « ماريا » تقول بصوت مرتفع :

« ان هذه الطفلة حمقاء . . لاتكاد تعرف اسمها .. اسألها من هو أبوها .. »

فنظر الضابط الى الطفلة ثم قال :

« من هو أبوك ؟ »

ورفعت الطفلة عينيها الى الضابط ، ثم تحولت بنظراتها الماكرة الى الراهب الذى راح يردد لنفسه فى لهفـة واخلاص « اغفر لى يا الهى .. فمـا أشد ندمى وأسفى على ما ارتكبت من خطايا وذنوب »

وقالت الطفلة بهدوء وهى تشير الى الراهب :

« هذا هو أبى .. »

فقال الضابط :

« حسنا .. ليأتى من بعده »

وراح يردد أسـئلته واستجواباته : الاسم .. العمل .. الزواج. وأطلت الشمس المشرقة من وراء الغابة ، ووقف الراهب فى موضعه وقد شبك يديه أمامه : مرة أخرى تأجلت ساعة موته .. لشـد مايحس بأغراء عجيب يدفعه لان يلقى بنفسه أمام الضابط ويكشف عن حقيقته قائلا « اننى الشخص الذى تبحث عنه .. »

هل سيعدمونه رميا بالرصاص فورا ؟ . ان رغبة جامحة تستبد به لكى يستسلم ويضع نهاية لمخاوفه وقلقه وتشرده .. ورأى ، فى

السماء ، عقابا يحلق كأنه نقطة سوداء ــ لايريم .. كأنما هو ينتظر جثة أو رمة ينقض عليها وينهشها .. وخيل للراهب أن هذا العقاب المحلق فى الجو يقول له ساخرا « ليس الموت هو نهاية الألم .. والايمان بالسلام والراحة الأبدية نوع من التخريف والبدع .. »

ولما فرغ الضابط من سؤال آخر رجل ، قال للجميع :

« ألا يريد أحدكم أن يساعدنى ؟ »

وظل الجميع واقفين فى صمت .. فعاد الضابط يقول :

« لقد سمعتم بما حدث فى كونسبكيون ؟ لقد أخذت رهينة من أهلها .. فلما أيقنت فيما بعد أن الراهب قد مر بهذه القرية ، شنقت الرهينة فى أقرب شجرة .. نعم .. اننى لن أعدم رجلا يغير رأيه لسبب ما ويفشى السر .. وهذا ماحدث فى كونسبكيون .. فقد جاءنى بلاغ من أحد أهلها يؤكد لى أن الراهب مر بها .. وهكذا قتلت الرهينة .. ولعل الرجل الذى أرسل الى البلاغ كان يحب زوجة الرجل الذى أخذته رهينة ويريد أن يتخلص منه ليظفر بها .. وليس هذا شأنى .. ليس لى أن أتحرى عن حقيقة الأغراض التى تدفع بعض الناس الى الغدر ببعض .. ولكنى أعرف اننا عثرنا على مخزن صغير للخمر كان الراهب يملكه فى كونسبكيون .. ومن يدرى .. فلعل أن يكون هنا فى هذه القرية رجل يريد أن يظفر بزوجة رجل آخر ، أو بقطعة أرضه ، أو ببقرته ، فيغدر به ويرسل الى بلاغا يخبرنى فيه أنه شاهد الراهب فى هذه القرية ، فلا يسعنى حينئذ الا أن أقتل الرهينة التى سيقع اختيارى عليها .. الأفضل لكم أن يتقدم أحدكم ويذكر الحقيقة الآن فينجو من القتل ، لانه قد يكون هو الرهينة ، ويظفر بثروة لم يكن يحلم بها .. »

وبعد أن صمت برهة ليلتقط أنفاسه ، أضاف قائلا :

« ليس بكم حاجة الى مجرد الكلام .. اذا كان الراهب بينكم الآن ، فما على أحدكم الا أن ينظر اليه .. ولن يعرف أحد مطلقا من هو الذى نظر الى الراهب وأفشى سره ، بل أن الراهب لن يعرف

بهـذه الطريقة من الذى نظر اليه وبذلك لن يستطيع أن يستنزل عليه لعناته ان كنتم خائفين من هذا..هذه هى فرصتكم الأخيرة..»

ونظر الراهب الى الارض حتى لا يثير الحرج فى نفس الذى سوف ينظر اليه ويفشي سره ..

ولـكن أحدا لم ينظر اليه ، ولم يفش سره ..

وقال الضابط أخيرا :

« حسنا .. لسوف أختار الآن رجلا من بينكم ليكون رهينة بين يدى .. فاذا علمت فيما بعـد أن الراهب مر بقريتكم .. مجرد مرور .. فسوف أقتل الرهينة بدون محاكمة .. وأنتم المسئولون عن هذا .. »

وشرع يتأملهم بأمعان من فوق جواده .. وكان أحد الجنود قد أسـند بندقيته على المقعد القديم بالساحة ، وراح يربط قلشينه، وظل أهل القرية واقفين ، فى صمت مطرقى الرءوس الى الأرض.. كان كل منهم يخشى أن يرفع عينيـه حتى لايلتفت رغمـا عنه الى الراهب ، وانفجر الضابط قائلا :

« لمـاذا لاتريدون أن تثقوا بى . ؟ انى لا أريد الموت لأحدكم .. الا ترون أن أقل واحد منكم هو فى نظرى أفضل من ذلك الراهب.. انى أريد أن أمنحكم .. »

ثم رفع يديه باشارة لم يكن لها من أثر ، لان أحدا لم يرها ، قبل أن يضيف قائلا :

« كل شيء .. »

ثم أشار الى شاب بين الواقفين وقال فى صوت غليظ جاف :

« أنت يا هذا .. ستكون رهينة عندى »

وصاحت احدى النساء بصوت باك :

« هذا ابنى « ميجويل » .. انك لاتستطيع أن تأخذ ابنى ..

فقال بنفس اللهجة الغليظة الجافة :

« كل واحد هنا ابن امرأة أو زوج لامرأة .. اننى أعرف هذا..»

وظل الراهب واقفا فى صمت ، عاقدا يديه ، شـــاعرا بأن جميع الذين حوله قد بدأوا يكرهونه لانه ليس ابنا أو زوجا لامرأة منهم ..

وفجأة قال :

« أيها الضابط »

« ماذا تريد ؟ ..

« أريد أن تأخذنى رهينة بدلا من الشاب « ميجويل » .. فأنا رجل عجوز ولم أعد صالحا للعمل فى الحقل .. »

واندفع قطيع من الخنازير من ركن وراء أحد الاكواخ ، دون أن تحفل بما يجرى فى الساحة . .وفرغ الجنـــدى من ربط قلشـــينه وانتصب واقفا .. وارتفعت الشمس قليلا فوق أشـــجار الغابة ، وراحت أشعتها تنعكس على زجاجات المياه الغازية فى الجوسق .

وقال الضابط :

« اننى أختار رهينة للاعدام ــ لا لتقديم الطعام والمـأوى مجانا لرجل عجوز كسول ، فاذا كنت لا تصلح للعمل فى الحقول ، فأنت لا تصلح لان تكون رهينة .. »

ثم أصدر أمره قائلا :

« قيدوا يدى الشاب واقتادوه .. »

وسرعان ما نفذ الجنود الامر ، ولم ينسوا أن يحملوا معهم ثلاث أو أربع دجاجات وديكا روميا ، فضلا عن الشـــــاب « ميجويل » الرهينـــة ، حتى اذا غابوا عن الابصار ، هتف الراهب لاهل القرية قائلا :

« لقد بذلت كل ما أستطيع من جهد .. فلماذا لم تؤدوا واجبكم وتسلمونى ! ماذا كنتم تنتظروننى أن أفعل ؟ فليس من واجبى أن أستسلم لليأس وأسلم نفسى بنفسى .. »

فقال أحد الرجال :

« حسنا ياأبى .. اننا غير نادمين .. ولكن نرجو منك أن تكون

أكثر حذرا فلا تترك وراءك خمرا كما فعلت فى كونسيكيون .. »
وقال آخر :
« لا فائدة من بقائك فى هذه الولاية ياأبى .. لسوف يقبضون عليك فى النهاية بعد أن رأوا وجهك هنا .. انهم لن ينسوا هذا الوجه اذا عثروا عليك فى مكان آخر .. ويحسن أن تمضى الى الشمال .. الى الجبال ــ عبر الحدود ..
وقالت امرأة :
« ان الولاية المجاورة ، عبر الحدود ، مكان جميل رائع .. فلا تزال الكنائس باقية فيها وان كان محرما على الاهالى أن يذهبوا اليها .. ولكن يكفى أن يمتع الانسان عينيه بمنظر دار العبادة والصلاة وهناك أيضا قساوسة ورهبان .. لقد ذهب ابن عم لى عبر الجبال الى مدينة لاس كاساس وحضر قداسا فى منزل .. بالمراسيم والتقاليد المتبعة .. فقد كان هناك منبر .. ومحراب .. وكان الراهب يرتدى ملابس رجال الدين التقليدية كما كان الحال فى الايام الاولى .. وليس من شك فى أنك ستشعر بالسعادة هناك ياأبى .. »
وتبع الراهب المرأة « ماريا » الى كوخها .. وهناك كانت زجاجة الخمر موضوعة على الخوان ، فلمسها بأصابعه ، وكانت بها كمية ضئيلة ، فقال للمرأة :
« أين حافظة أوراقى ياماريا .. »
« من الخطر الشديد أن تحمل حافظة أوراقك بعد اليوم .. »
« اذن كيف أخفى الخمر .. ؟ »
« لن يكون هناك خمر بعد اليوم .. »
« ماذا تعنين .. »
« اننى لا أريد أن تعرض نفسك ــ أو غيرك ــ للخطر .. لقد حطمت الزجاجة التى تحملها فى حافظة أوراقك لتخفى الخمر فيها ويمكنك أن تلعننى اذا شئت .. »

فقال فى صوت رقيق حزين :

« لا تكونى من المؤمنين بالخرافات .. ان الزجاجة التى حطمتها لم تكن تحوى غير خمر عادية .. فليست هناك خمر مقدسة أوشبه مقدسة .. وقد كنت احتفظ بزجاجة الخمر فى حافظة الاوراق لانى لا أستطيع أن أحصل على الخمر بسهولة فى هذه النواحى . أما فى كونسبكيون ، فقد كان لى مخزن صغير منها .. وهو المخزن الذى عثروا عليه »

فقالت المرأة فى لهجة حادة قاطعة :

« يمكنك الان أن تذهب .. أن تمضى الى غير رجعة .. فانك لم تعد تصلح لاى شىء أو لاى انسان .. ألا تفهم ياأبى .. اننا لا نريدك بيننا .. »

« نعم .. انى أفهم .. ولكن المسألة ليست ما تريدين أنت أو ما أريد أنا .. »

فقالت بوحشية :

« اننى لست جاهلة حمقاء .. اننى أعرف كل شىء .. فقد ذهبت فى صباى الى المدارس .. اننى لست ـ كهؤلاء القرويين ـ أمية . . انى أعرف أنك راهب شرير .. ولم يقتصر شرك على ما حدث بيننا فى ذلك اليوم .. فأنا أراهن أن هذه ليست خطيئتك الاخيرة .. فقد سمعت عنك مساوىء كثيرة .. هل تريد أن أقولها هل تظن أن الله راض عنك .. عن راهب سكير مثلك ؟ »

وظل واقفا أمامها فى خضوع كما وقف أمام الضابط ، ينصت ويعجب .. ذلك أنه لم يكن يعرف أن فى مقدورها أن تفكر هكذا .. !

وعادت المرأة تقول :

« أتعتقد أن الله يرضى لك أن تبقى هنا وتموت ؟ ولنفرض أن هذا حدث .. أى أنك مت .. اذن ستكون فى نظر الجميع قديسا شهيدا .. أليس كذلك ..؟ اذن أى نوع من القديسين الشهداء تعتقد انك

ستكون ؟ انك فى هذه الحالة ستكون السبب فى أن يسخر النـاس ويهزأوا من القديسين والشهداء .. »

ولم يكن يدور بباله من قبل مثل هذا الاحتمال .. أن يصبح فى يوم ما قديسا شهيدا ، ومن ثم قال :

« نعم .. هذه مشكلة .. مشكلة سأفكر فيها .. اننى لا أريد أن تتعرض الكنيسة للسخرية والتحقير .. »

« اذن فكر فيها عبر الحدود »

« حسنا .. »

« لقد كنت أشعر بالفخر لمـا حـدث بينى وبينك .. كنت أظن أن محنة الدين ستنجلى بسرعة ونصبح زوجين .. فليس فى مقدور كل امرأة أن تتشرف بزواج رجل من رجال الدين .. والطفلة ... كنت أعتقد أنك ستكون لها نعم الاب والمهذب .. أما الآن .. فانك لا تفترق عن أى .. أى لص »

فقال فى شىء من الذهول :

« هناك كثير من اللصوص .. الطيبين .. »

« أرجوك ، بحق الله ، أن تحمل هذه البقية من الخمر وتمضى »

« هناك شىء واحد .. فى حافظة أوراقى .. أرجو ألا .. »

« اذهب وابحث عنه بنفسك .. هناك .. فى مباءة القمامة حيث ألقيت بالحافظة »

« والطفلة ؟ ! انك يا ماريا امرأة طيبة .. أعنى أن فى مقدورك أن تعنى بها وتنشئيها مهذبة .. متدينة .. »

« انها لن تصلح لشىء اطلاقا .. ولعلك رأيت هذا بنفسك »

فقال فى رجاء ولهفة :

« لا يمكن أن تكون شريرة الى هذا الحد فى مثل سنها هذا »

« لسوف تنمو وتشب كما هى »

« لسوف أجعل القداس التالى من أجلها .. »

فقالت وكأنها لم تسمع عباراته :

« بل انها ستزداد سوءا كلما كبرت .. »

وخيل اليه أن العقيدة توشك أن ترفع من النفوس .. وأن اقامة القداس لن يصبح بعد فترة أخرى الا مجرد تميمة للحظ .. كمرور قطة سوداء فى الطريق . انه يخاطر بحياته من أجل أناس لن يلبثوا أن يفقدوا كل شعور حقيقى بالايمان .

وقال أخيرا :

« أين بغلتى .. »

« انهم يقدمون لها حطام الاذرة »

ثم اردفت قائلة :

« يحسن بك أن تمضى نحو الشمال .. فانك لن تجـد فرصة الافلات فى المناطق الجنوبية »

« ظننت أن مدينة كازمن قد تكون .. »

« لا شك أن المراقبة هناك محكمة .. »

فقال فى صوت محزون :

« أوه .. حسـنا .. ربما .. فى يوم ما .. عنـد ما تتحسن الاحـوال .. »

ولم يكن فى حاجة لان يتم حديثه .. وانمـا شرع يباركها وهى واقفة أمامه فى صبر نافد اذ كانت تريده أن يمضى .. الى غير عودة

« حسنا .. يا ماريا .. وداعا .. »

« وداعا .. »

وسار عبر الساحة مطرق الرأس ، منحنى الكتفين ، شاعرا بأن جميع السكان ينظرون الى انصرافه فى رضى وسرور .. انه رجـل مثير المتاعب فى نظرهم ، ولكنهم لسبب ما فى أعماق نفـوسهم ، يرفضون أن يسلموه البوليس . انه يشعر بالحسـد لذلك المجرم الهارب المجهول الذى لايترددون فى الايقاع به عند سنوح أول فرصة

فان هذا المجرم ـ على الاقل ـ لا يحمل على كاهله عبء الاعتـراف بجميلهم وأفضالهم عليه .

وسار فى الطريق المنحدر نحـو النهر .. الطريق الذى مهدته حوافر البغال مع بقايا جذور الشجر .. وهناك .. على جانب من هذا الطريق الضيق ، كانت مختلف أنواع القمامة ملقاة تحت لافتة مكتوب عليها « ممنوع القاء القاذورات » وكانت جميـع مهملات القرية وقاذوراتها متناثرة بالقرب من شـاطىء النهر ، بحيث اذا هطلت الامطار فى الموسم ، حملتها وألقت بها الى مياه النهر نفسه . ووضع قدمه بين العلب والصفائح الفارغة ، وبقايا الخضر المتعطنة ، وانتشل حافظة أوراقه وهو يتنهد .. لقد كانت دائما حافظة نافعة له .. انها احدى ذكريات الماضى السعيد .. ولن يبعـد الوقت الذى ينحدر فيه هو الى مباءة الحياة كما حدث لهذه الحافظة ... لقد أنتزع القفل منها ... وما أن وضع يده فى داخل كيسها المبطن بالحرير ، حتى عثر على الاوراق ..

وترك الحافظة تسقط من يده الى القاذورات ، واحتفظ بالاوراق التى عثر عليها فى قبضة يده .. وشعر ، وهو يرى الحافظة تسقط كأنما سقطت معها مرحلة كاملة من شباب حياته الموسومة بالتقدير والرضى والاحترام .. نعم .. فقد كانت ـ أى الحافظة ـ هـدية تقدير واعجاب قدمها اليه رعايا ابراشـيته بمدينة كونسبكيـون لمناسبة مرور العام الخامس على توليه منصبه الدينى .

وأحس كأن شخصا مجهولا يتحرك وراء شـجرة عـلى جانب الطريق ، فرفع قدمه من مباءة القمامة وقد شـالت أسراب الذباب حولها ، ثم استدار نحو الشجرة ، والاوراق فى قبضته ليرى هـذا المجهول الذى يتجسس عليه ..

ورآها .. انها طفلته بريجيتا .. كانت جالسة على جذع شجرة تحرك ساقيها وتضرب اللحاء بكعبيها ، وتغمض عينيها بقـوة .. فقـال لها :

« ما الذى يشقيك يا عزيزتى ؟ ! »

ففتحت بسرعة عينيهـــا الحمراوتى الاهداف ، المتلئتين بالشر والوقاحة ، ثم قالت :

« انه أنت .. أنت »

« أنا . . .؟ »

« نعم . . أنت سبب شقائى . . »

فتقدم نحوها بحذر شديد ، وكأنها حيوان نفور لم يألفه بعد . وكان يشعر برعدة تسرى فى جسمه من فرط اللهفة والشـــوق ، ثم قال :

« لمـــاذا يا عزيزتى ؟ ! »

فقالت بغضب شديد :

« لانهم يسخرون منى . . »

« بسببى ؟ »

« ان لكل طفل فى القرية والدا يشتغل . . »

« وأنا أيضا أشتغل . . »

« انك راهب . . اليس كذلك ؟! »

« نعم . . . »

« ان بدرو يقول انك لست رجلا . . لا تصلح لمعاشرة النســاء . . ولست أفهم ما يعنى . . »

« وأكبر الظن أنه هو أيضا لا يفهم . . »

« انه يفهم بالتأكيد . . فهو فى العاشرة من عمره . . وأنا أريد أن أفهم أيضا ، انك ستنصرف عنا . . أليس كذلك ؟ ! »

« أجل . . . »

وفزع مرة أخرى من أمارات الانوثة الـكامنة فى أعماقهـا حين ارتسمت على شفتيها ابتسامة عجيبة غامضــــة . وفجأة قالت فى صوت لا يخلو من دلال المرأة .

« اخبـرنى . . . »

وكانت تجلس فى استهتار على جذع الشجرة بجانب مجموعة من العلب الفارغة والخضر المتعطنة . وخيل اليه أنه يرى الحيـاة بكل ما فيها من فسـاد مركزة فى قلبها ، كأنها نقطة عطن سـوداء فى ثمرة فاكهة . انها تعيش دون راع أو حام .. نهـا محرومة من نعمـة الجمال البرىء ، والرقة التى قد تكون سـيـاجا لها ضد الشرور والاثام .. واحس بقلبه يرتعد اشفاقا عليها وعلى ضياعها فى الحياة فقـال لها :

« يا عزيزتى .. يجب أن تكونى على حذر » .

« على حذر من أى شىء ؟ لماذا أنت منصرف عنا .. ؟ ؟ »

واقترب منهـا قليلا وهو يقول لنفسـه « أن من حق الوالد أن يقبل ابنته » ولكنها كانت تتراجع وهى تصيح ضاحكة فى صـوت أعجف قبيح :

« لا تلمسنى .. »

وخطر له أن كل طفل يولد وهو يعرف بغريزته الحب .. انه يسترضعه من ثدى أمه . ولكن نوع الحب يتوقف بعد ذلك عـلى نوع الآباء والاصدقاء الذين يشب الطفل بينهم ، فقـد يكون النوع الذى يضىء وينجى ، أو النوع الذى يحرق ويدمر .. والشـهوة أيضا لون من الحب .. وانه ليراها ملتصقة بنفسية هذه الطفلة كما تلتصق الذبابة بالورق اللصاق .. انه يتخيل يد أمها ماريا وهى ترتفع فى الهواء لتضربها .. واحاديث هذا الصبى غير المهذب فى شـفق الغروب ، ورجال البوليس يفتشون القرى . انه الشر والعنف فى كل مكان ..

وراح يتمتم بصلاة خافتة :

« ياالهى .. افعل بى ماتشاء .. واجعلنى امت مثقلا بالخطـايا والذنوب . ولكن أسألك فقط أن تنقذ هذه الطفلة .. »

لقد كان رجلا من منقذى الارواح ، أو هذا هو المفروض ، ولشد ما

كانت عملية انقاذالارواح تبدو يومذاك سهلة ميسورة وهو يؤديها بالوعظ ، واقامة القداسات واعداد الحفلات الدينية والاجتماعات . وشرب القهوة مع سيدات فى سن الكهولة وراء نوافذ محصـــنة بالقضبان ، وتدشين المنازل الجديدة بالعطور ، وارتداء القفـازات السوداء . . كل هذا كان سهلا . . فى سهولة ادخار المال . . أما الآن فان الامر قد التبس عليه . . انه غامض . . خفى وانه ليشـــعر بالعجز والقصور الى حد الياس . .

وركع على ركبتيه وجذبها اليه وهى تحاول التملص منه ضاحكة : ثم قال :

« اننى احبك لانى ابوك . . حاولى ان تفهمى الحقيقة . . »

ثم امسك بمعصمها فى قوة جعلتها تقف امامه ساكنة وتنظر اليه ، بينما اردف قائلا « اننى على استعداد لان اضحى من اجلك بحياتى . بروحى . . . ياعزيزتى . ياعزيزتى حاولى ان تفهمى وان تدركى اهميتك العظيمة لى »

وادرك فى تلك اللحظة وجه الخلاف بينه وبين خصومه من زعماء السياسة . . انهم لايحفلون بشىء الا بنظم الحكم والســلطان فى الجمهورية . اما هذه الطفلة فهى فى نظره اهم من قارة باكملها . .

وعاد يقول لها :

«يجب ياعزيزتى ان تهتمى بنفسك كل الاهتمام . لانك مهمة جدا . . ان الرئيس فى العـاصمة له حراس يحرسونه بالبنـادق والمدافع . اما انت . فان الملائكة تحرسك . . . »

ولما رآها ترسل اليه من عينيها السوداوين الشريرتين نظرات الانسان الذى لايفهم مايقال له ادرك ان محاولة انقاذها جاءت متاخرة ومن ثم قال :

« وداعا ياطفلتى . . »

ثم قبلها ببلاهة وهو يشعر انه رجل عجوز احمق وانه بمجردان

يترك يدها ويمضى نحو الساحة بالقرية سيترك وراء ظهره عالما غليظا لن يلبث أن يطبق على الطفلة ويدمرها ..

ورأى بغلته هناك فى الساحة مسرجة ، ومربوطة فى جوسق المياه الغازية ، وسمع رجلا يقول له وهو واقف يلوح بيده مودعا .

« يحسن بك ياابى ان تمضى نحو الشمال »

وكان الراهب يعلم ان على الانسان المؤمن أن يحمل الحب لكل انسان غيره كأنه ابنه الوحيد . وان الرغبة فى حماية الغير يجب أن تنتشر من قلبه حتى تعم العالم كله . ولكنه أحس فى تلك اللحظة أن هذه العاطفة النبيلة كحيوان مقيد القدمين مربوط فى شجرة داخل قلبه ولهذا لم يتجه الى الشمال وانما مضى نحو الجنوب ...

كان يسير فى نفس الطريق الذى سار فيه رجال البوليس بعد مغادرتهم القرية ، وكان يدرك أنه سيظل بمأمن طالما هو يمضى فى بطء ، دون أن يلتقى بعابر طريق .. ان كل مايريده الان .. هى الخمر .. وهو يدرك انه بدونها لا يصلح لشىء .. وقد كان فى مقدوره أن يمضى نحو الشمال ويعبر الجبال الى الولاية التالية حيث تكون أقسى عقوبة يمكن ان توقع على راهب يضبط وهو يؤدى الطقوس الدينية مجرد غرامة بسيطة ، او بضعة أيام فى السجن اذا عجز عن دفع الغرامة ، ولكنه لم يكن مستعدا بعد للهرب نهائيا ، وهو ـ اى الهرب ـ نوع من الاستسلام السلبى . وهو لايريد ان يستسلم بل سيبقى ، شهرا أو عاما ، أو أكثر ، طريدا ، مشردا ، ينتظره الموت فى كل خطوة .. كل هذا فى سبيل ابنته .. فى سبيل ان يرضى الله عنه ، وينقذ ابنته من أجله .. وفجأة ثبتت البغلة حوافرها فى الارض وتسمرت فى مكانها .. فقد رأت أمامها حية خضراء ترفع رأسها فى وسط الطريق وهى ترسل فحيحها ثم تختفى فى الاعشاب النامية على جانب الطريق .

واستأنفت البغلة سيرها ..

وعند ما اقتربت من احدى القرى قرر أن يتوقف خارجها ،

ويترك البغلة ، ثم يمضى سائرا حتى يتأكد انها خالية من رجال البوليس الباحثين عنه ، ثم يعود فيركبها ويخترق القرية بسرعة دون أن يتبادل الحديث مع أحد فيما عدا التحية العابرة فاذا غادر القرية الى طريق الغابة من الناحية الأخرى ، استطاع أن يلتقط أثار جواد الضابط ، فيسير فى طريقها .. ومع هذا فلم تكن فى ذهنه خطة معينة أو مكان خاص يبغى الوصول اليه .. كل ماكان يريده ، هو أن يبتعد بقدر الامكان عن هذه القرية التى امضى فيها ليلته .. وكان لم يزل محتفظا بالورقة التى أخذها من الحافظة ، فى قبضة يده ،

وكان بعضهم قد ربط سباطة موز بها نحو خمسين ثمرة فى سرج البغلة ، بجانب الحقيبة الصغيرة التى يحتفظ فيها بالشموع . وكان بين الحين والاخر يأكل ثمرة موز شديدة النضوج ، سوداء رطيبة لها مذاق الصابون .. وكانت تترك على شفته العليا أثرا واضحا كأنه شارب .

وبعد ست ساعات من المسير المتواصل ، وصل الى قرية لاكانديلوريا ، وكانت قرية مستطيلةذات أكواخ لها أسقف من الصفيح وتقع على فرع من فروع نهر كريجالا .. وتقدم فى حذر الى الشارع المغبر .. وكان الوقت فى سمت الاصيل وكانت العقبان جاثمة على أسطح الاكواخ ، تحمى رءوسها الصغيرة من حرارة الشمس تحت أجنحتها ، وكان ثمة عدد قليل من الرجال راقدين داخل السررالمعلقة فى هذه الظلال الضيقة التى تلقيها المساكن . وراحت البغلة تخب فى السير فى الجو الحار بينما كان الراهب يميل معتمدا على عجرة السرج «رأس السرج»

وتوقفت البغلة من تلقاء نفسها بجانب سرير معلق كان يرقد فيه رجل أخرج ساقه منه ليدفعه بها الى الحركة والتأرجح حتى يظفر ـ عن طريق هذه الحركة ـ بتيار هوائى يستروح به .. وقال الراهب له :

« طاب مساؤك .. »

وفتح الرجل عينيه وراح يرقب الراهب دون أن يجيب . فعاد ذاك يقول :

« كم تبعد المسافة الى مدينة كارمن ؟ »

« ثلاثة فراسخ .. »

« هل أستطيع أن أستأجر قاربا ؟ »

« نعم » ..

« أين » ؟ ..

ولوح الرجل بيد عجفاء كأنما يريد أن يقول : فى أى مكان الا ئ هـذا المكان ، وكان أدرد فيما عدا نابين كانا يبرزان من فمه الى خارج شفتيه ،كأنهما بقايا أسنان حيوان تاريخى قديم ..

وعاد الراهب يسأل :

« ماذا كان رجال البوليس يفعلون هنا »

وهبطت أسراب من الذباب فجأة وحطت على عنق البغلة ، فراح الراهب يذبها بطرف عصاه ، فطارت فى بطء تاركة وراءها ، عـلى عنق البغلة ، خيطا من الدماء ، ثم عادت وحطت مرة أخـرى على موضع آخر من جسم البغلة التى بدت كأن الامر لا يهمها فى قليل أو كثير ، ومن ثم ظلت واقفة فى الشمس برأسها المرتخى لا تريم .

وقال الرجل :

« انهم يبحثون عن شخص هارب »

« لقد سمعت أن ثمة جائزة مرصودة لمن يقبض على مجـــرم أمريكى هارب »

وراح الرجل يؤرجح سريره المعلق وهو يقول :

« خير للانسان أن يكون فقيرا حيا .. على أن يكون غنيا ميتا »

« هل أستطيع أن ألحق بهم اذا واصلت المسير نحو مدينـــة كارمن ؟ »

« أنهم لن يذهبوا الى كارمن »

« لن يذهبوا ؟ ! »

« انهم ذاهبون الى المدينة .. أعنى العاصمة »

وسار الراهب فى طريقه .. وبعد عشرين ياردة تقريبا ، توقف بجانب جوسق مياه غازية وسأل الغلام العامل به قائلا :

« هل أستطيع أن أستأجر قاربا أعبر النهر فيه »

« لا يوجد هنا قارب .. »

« لا يوجـــد .. »

« لقد سرقه شخص مجهول »

« حسنا .. اعطنى زجاجة سيدرال »

وشرب السائل الغازى الاصفر الفوار الذى تركه أشد مما كان ظمأ ، ثم قال للغلام :

« كيف يتسنى لى عبور النهر ..؟ »

« ولمـاذا تريد أن تعبره ..؟ »

« لانى فى الطريق الى كارمن .. كيف عبره رجال البوليس ؟ »

« عبروه سباحة .. »

فانطلق الراهب ببغلته وهو يهتف بها ليحثها على الاسراع ، حتى اذا تجاوز كشك الموسيقى العتيق والتمثال البدائى الذى يرمز لامرأة فى غلالة رومانية تحمل اكليلا من الزهور ـ وكان جزء من القاعدة محطما وملقى فى عرض الطريق ـ مضت البغلة فى الطريق نحـــو الشاطىء .. والتفت الراهب وراءه ، فرأى ، هناك فى أول الطريق ذلك الرجل ذا النابين جالسا فى سريره المعلق يرقبه من بعيد ... وانحرفت البغلة نحو ممر شديد الانحدار يؤدى الى النهر مباشرة ، وعاد الراهب يلتفت وراءه حيث رأى ذلك الرجل المولد ذا النابين لايزال فى سريره المعلق ، ولكنه كان قد أخرج ساقيه ليهم بالخروج منه . وشعر الراهب بهذا القلق المألوف الذى يجعله يضرب البغلة ليحثها على السرعة فى السير .. ولكن البغلة ظلت تسير كما تهوى ، منحدرة نحو ماء النهر ..

وعندما بلغت حافة المـاء على الشاطىء رفضت أن تهبط فيه ، وشق الراهب طرف عصاه بأسنانه ثم غرز الجزء المدبب منهـا فى ردف البغلة ، فاذا هى تقتحم الماء فى تكاسل . وصعد الماء أولا الى الركاب ، ثم الى الركبتين ، وشرعت البغلة تسبح دون أن يبدو منها على سطح النهر غير عينيها وفمها .. وكأنما هى تمساح أمريكى ..

وصاح رجل على الشاطىء ..

والتفت الراهب وراءه ، فاذا هو يرى المولد ذا النابين واقفا عند حافة الماء يهتف له بصـوت خافت كأنما يريد أن يبين له أن ثمة سرا بينهما لا يجوز لغير الراهب أن يعرفه .. وراح يلوح بذراعيه ويطلب من الراهب أن يقفل عائدا ، ولكن البغلة استمرت فى السباحة حتى بلغت الضفة الاخرى ، وراحت تصعد الى الشـاطىء دون أن يحفل الراهب بأمر ذلك المولد .. فقد كان القلق يستبد به ، ومن ثم أخذ يدفع البغلة للانطلاق داخل مزرعـة الموز دون أن يلتفت وراءه ... وقد كان يعلم فى خلال تلك السـنوات السـوداء أنه لا يستطيع أن يشـعر بالراحة والامن الا فى مـكانين : فى مدينـة كونسيكيون ، حيث تقع ابراشيته ، وقد أغلقت هذه فى وجهه تماما الآن ، والمكان الثانى هو مدينة كارمن حيث ولد ، وحيث دفن والده .. وقد ظن ، ذات يوم أن هناك مكانا ثالثا .. ولكنه قرر الا يعود اليه مرة أخرى ...

ووجه خطام البغلة فى الطريق الى كارمن ، ولم يلبثا أن مضيا فى ظلال احدى الغابات .. فاذا استمرا على هذا المعـدل فى السـير ، فسوف يبلغان مدينة كارمن مع الليل ، وهذا ما يريده ، وسارت البغلة دون ضرب ، بخطوات سريعة نشطة وقد أرخت رأسـها وانسابت منها رائحة خفيفة من الدماء ، ومال الراهب الى الامام معتمدا على عجرة السرج ، واستغرق فى النوم ..

وحلم أثناء نومه أنه يرى فتاة صغيرة فى ثوب حـريرى أبيض ، تقرأ دعاء المغفرة ، وفى مكان ما وراءها وقف الاسقف مع لفيف من

راهبات فى منتصف العمر ، شاحبات الوجوه ، متدينات السمات متزينات بشرائط مزركشة زرقاء . وقال الاسقف وهو يصفق بيديه مشجعا :

« عظيم .. عظيم جدا .. »

وقال رجل فى ملابس الصباح :

« اننا فى حاجة الى مبلغ خمسمائة ليرة لاتمام شراء الارغن الجديد . ولهذا اقترحنا ان نقيم حفلة موسيقية خاصة ولعلنا نستطيع »

وتذكر الراهب ـ فى الحلم انه لم يكن يليق به أن يكون فى هذا المكان . فهو ليس مكان ابر اشيته .. وان عليه ان يعود ادراجه الى ابراشيته فى كونسبكيون .. ولكنه يرى الرجل مونتيز ـ الرهينة القتيل ـ يظهر وراء الفتاة ذات الثوب الابيض ويشير اليه كأنما يريد أن يذكره بشىء .. لقد حدث شىء لمونتيز .. فان فى جبينه أثر جرح عميق ، وشعر فجأة بأن ثمة خطرا يهدد الفتاة الصغيرة ، فهتف فى خوف :

« يا الهى ـ »

واستيقظ على ترنح البغلة فىمسيرها ، وعلى وقع خطوات وراءه .

والتفت وراءه .. انه الرجل المولد ذو النابين يقبل نحوهوالمياه تتساقط من ملابسه . فلا شك أنه عبر النهر سباحة .. وكان ناباه ، وهو يبتسم ، قد برزا فوق شفته السفلى .

فقال له الراهب فى حدة :

«ماذاتريد !! »

« لماذا لم تذكر لى انك ذاهب الى كارمن ؟ »

«ولماذا افعل ؟ »

«لانىاريدانأذهب الى كارمن ايضا . .وبديهى ان السفرمعالغير أفضل من السفر على انفراد . »

وكان الرجل يرتدى قميصا وسراويل بيضاء قذرة وحذاء من المطاط كانت اصبع قدمه تبدو منه كبيرة صفراء ، مستديرة كانها احدى الحشرات التى تزحف فى التراب .

واقترب الرجل مصطنعا المودة نحو الراهب وهو يحك ابطيه ويقول :

« هل انت غاضب ايها السيد »

« لماذا تنادينى بلفظ السيادة ؟ »

« كل انسان يستطيع ان يفطن الى انك رجل مثقف .. »

« ان الغابة مباحة للجميع .. المثقف او غير المثقف . »

« هل تعرف الكثيرين فى كارمن . ؟ »

« لا ... أعرف عددا قليلا من الاصدقاء فيها »

« اظن انك ذاهب اليها فى مهمة خاصة .. »

ولم يجب الراهب . وانما شعر بيد الرجل وهى توضع على قدمه فى لمسة خفيفة مسترحمة ، وعاد الرجل يقول :

« توجد استراحة صغيرة فى الطريق على مسيرة فرسخين من هنا .. ويحسن ان نبيت فيها الليلة .. »

« اننى مستعجل . . »

« ولكن ماجدوى وصولنا الى كارمن فى الواحدة او الثانية بعد منتصف الليل ؟ الافضل ان نقضى الليلة فى الاستراحة ثم نصل الى كارمن فى بكور الصباح ..

« اننى افعل مايحلو لى .. »

« طبعا ايها السيد . طبعا . »

وأخذ الرجل يرمقه قبل أن يستأنف الحديث قائلا :

« ليس من الحكمة ان يسافر سيد مثلك دون مسدس فى بهيم الليل .. اما انا ، فلا يهم ان اسافر مسلحا او غير مسلح »

«اننى رجل فقير . ويمكنك ان ترى هذا بنفسك . .ليس معى مايستحق ان يسرق »

« ولكن لاتنس ذلك المجرم الهارب . يقال انه رجل شديد الخطر قاتل محترف وقاطع طريق لايرحم .. انه ياتى اليك ويقول لك بلغته : قف .. اين الطريق الى .. اى مكان .. وانت لاتفهم حديثه طبعا . وربما بدرت منك حركة غير مقصودة ، فيطلق الرصاص ولكن .. لعلك تعرف اللغة الامريكية ايها السيد .. »

« اننى لاأعرف بطبيعة الحال .. وكيف اعرفها وانا رجل فقير اننى على كل حال لااحب سماع القصص الخرافية ... »

« هل انت آت من بعيد ؟ »

وفكر الراهب برهة قبل أن يقول :

« من كونسبكيون .. »

وبدت على الرجل ــ برهة ــ أمارات الاقتناع ، فسار بجانب البغلةويده علىالركاب وهو يبصق على الارض بين الحين والآخر . وكان الراهب ، اذا نظر الى أسفل ، يستطيع أن يرى اصبع قدم الرجل تتحرك كأنها دودة على الارض ، ومن المحتمل أن يكون مسالما ، ولكن ظروف حياته هى التى تثير فى نفسه الريبة فى كل انسان .. وانتشر على الغابة شفق الغروب ، ثم تبعته فورا أستار الظلام ، وظلت البغلة تسير فى بطء ، وانطلقت الاصوات المبهمة ، المختلفة فى كل مكان حولهما ، وبدأ الامر كالمسرح عندماتنزل الستار وترتفع مختلف الاصوات والاحاديث فى الدهاليز وراء الكواليس ، وكانت الاصوات الغامضة فى الغابة تصدر من مخلوقات لا أسماء لها .. قد يكون بينها زئير النمر الامريكى ، فىمكان ما بكهوف الغابة ، وتحركات القردة على أغصان الشجر ، وطنين البعوض فى كل مكان كأنه صرير آلة خياطة ...

وقال الرجل فجأة :

« ان السير يثير الظمأ .. فهل أجد لديك بمحض الصدفة قليلا من الشراب ؟ »

« لا ... »

« اذا أردت أن تبلغ مدينة كارمن قبل الثالثة صباحا ، فعليك أن تحث البغلة للاسراع فى السير .. أعطنى العصا .. »

فقال الراهب فى صوت مسترخ ينم عن الرغبة فى النوم :

« لا لا .. دعها على طبيعتها .. »

« انك تتحدث كأنك قس أوراهب : »

فطار النوم من عينيه ، وتلفت حوله ، ولكنه لم ير شيئا تحت الاشجار العالية ، ثم قال :

« ما هذا اللغو الذى تتحدث به ؟ ! »

فقال الرجل وهو يربت قدم الراهب :

« اننى مسيحى متدين جدا .. »

« يبدو عليك هذا .. ليتنى مثلك .. »

فبصق الرجل وقال :

« آه .. أعتقد أنه من واجبك أن تأتمن الناس »

« ليس لدى ما أئتمن الناس عليه .. فهاهى سراويلى ممزقة .. وهذه بغلة كما ترى لا تساوى شيئا .. »

وساد الصمت برهة ، ثم اذا المولد يقول فجأة كأنما كان يفكر فى العبارة الاخيرة : « أنها بغلة طيبة اذا عرفت كيف تعاملها .. اننى خبير فى البغال .. والواضح لكل ذى عينين أنها مرهقة مجهدة .. »

فنظر الراهب الى رأس البغلة المتأرجح ببلاهة وقال :

« أعتقد هذا ؟! »

« ماهى المسافة التى قطعتها أمس »

« نحو أثنى عشر فرسخا »

« حتى البغال تحتاج للراحة »

ورفع الراهب قدميه الحافيتين من الركاب ، وهبط الى الارض وخطت البغلة فجأة خطوة واسعة ، ثم عادت تسير كما كانت ببطء . وأخذت الجذور والحصى والنباتات الجافة المتناثرة فى طريق الغابة تدمى قدمى الراهب وتسيل منها الدماء بعد مسيره خمس دقائق

وقد حاول ــ عبثا ــ ألا يعرج فى مشيته وأخيرا هتف الرجل المولد قائلا :

«ما أرق بشرة قدميك .. كان الواجب أن ترتدى حذاء »

فقال الراهب فى صوت ينم عن العناد :

« اننى رجل فقير .. »

« انك لن تصل مطلقا الى كارمن على هذا المعدل من السـير .. كن عمليا يارجل فاذا لم تكن بك رغبة فى المبيت بالاستراحة الحكومية فانى أعرف مكان كوخ صغير لايبعد أكثر من نصف فرسخ من هنا .. وفى مقدورنا أن ننام بضع ساعات فيه ثم نصل الى كارمن معاسفار الصباح .. »

وسـمع الراهب حفيفا وصريرا بالقرب من الطريق ، وفـكر فى الأفاعى وفى قدميه الحافيتين .. وكان البعوض يدمى معصـميه ، وكأنما لسعاته كابر حقن مملوءة بالسم ومصـوبة الى الشرايين .. وكانت احدى الذبابات المضيئة تقترب بين الحين والآخر من وجه الرجل المولد وترسل عليه شعاعا باهتا من الضوء الخفيف .

وقال الرجل أخيرا فى لهجة اتهام :

« انك لاتريد أن تثق بى لانى رجل يحب أن يسدى الخيرللغريب .. لانى مسيحى متدين .. لاتريد أن تثق بى .. »

وكان يبدو أنه يحاول أن يثير مشاعره الى درجـة من الغضب المصطنع وهو يردف قائلا « اذا كنت أريد أن أسرقك ، فماذا يمنعنى .. أنك رجل عجوز .. »

فقال الراهب فى رفق :

« لست عجوزا جدا كما تظن »

وبدأ ضميره يتحرك آليا : كأنه جهاز آلى منالنوع الذى يعمل اذا وضعت فيه قرشا ، أو أىقطعة فىحجم القرش . أنكلمات : الكبرياء، والاشتهاء ،والحسد ، والجبن والجمود، كلها تحرك لوالب ضميره .. فاذا كل معانى هذه الكلمات تنطبق عليه .

وعاد الرجل المولد يقول له :

« هأنذا أسير معك ـ كدليل ومرشد ـ بضع ساعات فى الطريق الى كارمن ، ولست أبغي من هذا جزاء ولا شكورا لانى مسيحى طيب .. ومن المحتمل أنى قد ضيعت فرصا للكسب خلال هذه الساعات .. ولكن .. لا عليك .. »

فقال الراهب فى وداعة :

« ظننت أنك قلت ان لك أعمالا فى كارمن »

« متى قلت هذا ؟ »

وفكر الراهب : نعم .. انه لم يقل هذا . اذن .. فأنا أيضا .. غير عادل .. ظالم .

واستطرد الرجل قائلا :

« كيف يمكن أن أقول شيئا لا يتفق مع الحقيقة : لا .. لقد ضيعت من حياتى يوما كاملا لاساعدك .. ومع هذا فانك لاتحفل بما يشعر به دليلك من التعب ... »

فقال الراهب محتجا برفق :

« اننى فى غير حاجة الى دليل »

« انك تقول هذا بعد أن أصبح الطريق واضحا سهلا .. ولكن .. لولا معاونتى ، لاتخذت طريقا آخر وضللت .. وقد قلت بنفسك أنك لا تعرف الطريق السوى الى كارمن .. وهذا هو ما حفزنى الى ارشادك .. »

وعندئذ قال الراهب :

« ولكن .. طبعا .. اذا كنت تشعر بالتعب الشديد .. فيجب أن تستريح .. »

وشعر فى أعماق نفسه بأنه مخطىء مذنب بسبب شعوره الطبيعى بعدم الثقة فى الغير .. ولكن .. ماذا فى وسعه أن يفعل .. ان هذا الشعور فى نفسه كالنبات الشيطانى ، لاتقتلع جذوره الا السكين ..

وبعد نصف ساعة ، وصلا الى الكوخ ، وكان مبنيا من الطين

وأغصان الشجر ، ومقاما فى منفسح صغير بين الشجر .. وكان الواضح أنه كان ملكا لفلاح أرغمته الغابة على الرحيل حين امتدت أشجارها الى حقله الصغير وابتلعته بعد أن عجز تماما عن مقاومتها بوسائله البدائية كالمناجل والنيران. وكانت بعض آثار المقاومة لاتزال على الأرض ، سوداء ، محترقة ، عندما حاول الفلاح أن يقضى على نباتات الغابة الممتدة اليه ليفسح مكانا لزراعة بعض المحاصيل البسيطة ..

وقال الرجل :

« لسوف أعنى بالبغلة .. ويمكنك أن تدخل أنت الكوخ وترقد لتستريح »

« ولكنك أنت .. الذى تشعر بالتعب .. »

« أنا أشعر بالتعب .. ؟ من قال لك هذا ؟ اننى لا أعرف معنى التعب اطلاقا »

وحمل الراهب مخلاة السرج،ومضى ـ فى شىء من الحزن والأسى، ودفع باب الكوخ ، ودخل .. وكان الظلام كثيفا فى الداخل ، فأوقد شمعة رأى على ضوئها أن الكوخ خال تماما من الأثاث .. لم يكن به غير نشز مستطيل من الطين فوقه حصيرة عتيقة بالية لاتستحق مجرد رفعها من مكانها .. وبعد أن ثبت الشمعة فى جانب من النشز، جلس على الحصير وراح ينتظر .. وغاب الرجل المولد فترة غير قصيرة .. وكان هو لايزال يحتفظ فى قبضة يده بالورقة التى أخذها من حافظة أوراقه ، فقد كان يرى أن على الانسان أن يحتفظ بأثر من حياته الماضية اذا أراد أن يبقى حيا ..

وتساءل فى نفسه : ترى هل سرق المولد البغلة ؟ ! ثم راح يلوم نفسه لانه لم يحرص على الاستمرار فى الشعور بالريبة نحو الرجل ..

وفتح الباب ، ودخل الرجل بنابيه الصفراوين البارزين ،وبأظافره التى يحك بهاأبطيه ، وجلس على الارض ، واعتمد بظهره على الباب، بعد أن أغلقه ، ثم قال :

« أرقد واستغرق فى النوم ، فانك متعب ، ولسوف أوقظك فى الوقت المناسب لاستئناف الرحيل .. »

« ليست بى رغبة ملحة فى النوم .. »

« اذا أطفئت الشمعة ، فسوف تشعر بالرغبة فى النوم »

فقال الراهب وقد استبد به الشعور بالخوف :

« اننى لا أحب الظلام .. »

« ألا تصلى يا أبى قبل أن نرقد للنوم ؟ »

فقال الراهب فى حدة وهو يحملق ـ خلال ظلام الكوخ ـ الى المولد الجالس مستنداً بظهره الى الباب :

« لماذا تدعونى هكذا ؟! »

« لقد استنتجت هذا طبعا .. ولكن .. لاحاجة بك لان تخشانى .. فانى مسيحى طيب »

« انك مخطىء فى ظنك »

« من السهل على أن أقيم الدليل على صحة استنتاجى .. يكفى أن أعرب لك عن رغبتى فى الاعتراف ، ولن تستطيع عندئذ أن ترفض الاستماع الى اعترافات رجل مثقل بالذنوب »

وصمت الراهب فى انتظار أن يبدى المولد رغبته فى الاعتراف .. وارتعدت يده القابضة على الورقة .. وقال الرجل فى بطء وحذر :

« لا حاجة بك لان تخشانى .. فلن أغدر بك .. فانى مسيحى طيب ، وأعتقد أن الصلاة نافعة لنا فى هذه الظروف »

« ان الصلوات لا تقتصر على القساوسة فقط .. كل انسان يستطيع أن يصلى اذا شاء »

وغمغم بعبارة لاتينية ، وأقبلت أسراب البعوض نحو ضوء الشمعة ، وراح هو يدفع عن نفسه الرغبة فى النوم .. فلا شك أن للرجل خطة يريد تنفيذها ، نعم أنه واثق من هذا .. وأن ضميره لم يتحرك ليتهمه هذه المرة بالقسوة والشك الذى لا موضع له .. انه يعرف أنه الان جالس .. مع يهوذا .. الخائن الابدى ..

وأمال رأسه الى الخلف ، واعتمد على الجدار بكتفيه ، وأغمض عينيه قليلا ، وراح يستعيد فى ذاكرته الاحتفالات بالاسبوع المقدس فى الايام الخوالى ، عند ما كان الناس يصنعون من الفرائر المحشوة بالقطن تمثالا ليهوذا الاسخريوطى ثم يعلقونه فوق نار مضرمة ، بينما الاطفال يقذفونه بالحجارة والعلب الفارغة . وانه يذكر أن بعض رجال الدين الشيوخ قد أعلنوا احتجاجهم على هذا التقليد ، قائلين ، أن من الخطأ الشديد أن يهتم الناس فى احتفالاتهم بالخائن الابدى الذى وشى بسيده المسيح .

ولكنه لم يحفل بالاحتجاج ، وترك رعايا ابراشيته يحتفلون كما يحلو لهم ، فقد كان يرى أن من الخير دائما أن يتخذ الناس من الخائن الابدى مادة للسخرية والاحتقار والا ، فقد يأتى اليوم الذى يعتبره فلاسفة الدين رجلا حاول أن يحارب ربه ، فسقط ضحية نبيلة فى معركة غير متكافئة . . . !

وسمع صوت المولد يأتيه همسا من ناحية الباب :

« هل أنت مستيقظ ؟ »

وأرسل الراهب ، فجأة ، ضحكة بلهاء خفيفة وهو يتصور هذا الرجل المولد ، تمثالا محشوا بالقطن والامشاج ، مخطط الوجه ، على رأسه قبعة من الخوص ومعلقا فى الساحة فوق نار مضرمة ، بينما الاهالى يحتفلون بالعيد ويتبادلون الاحاديث السياسية .

وعاد الرجل يقول :

« ألا تستطيع النوم ؟ »

وهمس الراهب :

« كنت أحلم . . »

ثم فتح عينيه ورأى الرجل ، عند الباب ، جالسا يرتعد بعنف وقد أخذ ناباه يتواثبان فوق شفته السفلى ، فقال له :

« أتشعر بالمرض ؟ »

« انها حمى بسيطة .. ألديك بعض الدواء ؟ »
« لا .. »

وسمع صرير الباب الناتج من ارتعاد ظهر الرجل الذى أخذيقول:
« لقد أصبت بالرطوبة وأنا أعبر النهر سباحة — »

وانزلق راقدا على الارض وأغمض عينيه ...

وشرعت أسراب من البعوض — ذات الاجنحة المحترقة فى لهب الشمعة — تزحف على النشز وأرضية الكوخ . وقال الراهب لنفسه : لا يجب أن أنام .. اننى فى خطر .. يجب أن أراقب هذا الرجل بحذر ..

ثم فتح يده وبسط الورقة .. ان عليها سطورا من الكلمات مكتوبة بقلم رصاص خفيف .. انها كلمات مفردة .. أوائل عبارات وجمل وأواخرها وبعض الارقام . انها الاثر الوحيد الباقى الذى يدل على مدى الاختلاف الرهيب بين حياته هذه ، وبين حياته الاخرى فى عهد الحرية الدينية .. انه يحملها معه كأنها تميمة للحظ الحسن ، كأنها حجاب يحفظ الانسان من السوء ... لانها — أى الورقة — تقول له بصمتها البليغ ، انه ليس من المستحيل أن تعود الحرية الدينية كما كانت ..

وبدأ ضوء الشمعة يذوى فى جو الكوخ الحار المختنق بالدخان .. وأدنى الراهب الورقة من الضوء الذاوى وراح يقرأ الكلمات : جمعية المحراب .. جماعة العشاء الربانى المقدس .. أبناء العذراء مارى .. ثم تحول بنظراته عبر الكوخ الى الباب ، فرأى المولد يرقبه بعينيه الصفراوين من أثر حمى الملاريا ..

ان يهوذا يستطيع أن يواصل المراقبة ساعة أخرى ..

وقال الرجل بصوت فيه اغراء مصطنع وهو يرتجف بعنف :
« ما هذه الورقة يا أبى ؟ »
« لا تنادنى بكلمة أبى مرة أخرى !. انها قائمة بذور نباتية أريد شراءها من مدينة كارمن .. »

« هل تستطيع الكتابة .. »

« أستطيع القراءة .. »

وعاد ينظر الى الورقة ، حيث خيل اليه أن احدى العبارات فيها تطالعه منها ضاحكة مازحة ، انها عبارة مكتوبة عن شيء « من معدن وأحد » . وقد كان يشير بهذه العبارة الى بدانته وامتلائه بالشحم وعلاقة هذا بالعشاء الفاخر الذى كان قد فرغ منه فى احدى المأدبات .. وقد تلقى المدعوون من رعايا ابراشيتة هذه الفكاهة منه بالابتسام والضحك اللطيف ..

كانت تلك حفلة تكريم له أقيمت فى كونسبكيون بمناسبة مرور عشرة أعوام على توليه فيها منصبه الدينى . وكان جالسا على رأس المائدة .. ترى من كان جالسا عن يمينه ؟ وكان ثمة اثنا عشر صحنا أمامه .. وقد حاول أن يتفكه فى الحديث فذكر العلاقة بين عدد الاصحن والاسباط الاثنى عشر .. وقد ابتسم المدعوون لفكاهته .. ولا عجب .. فقد كان يومذاك فى أوج الرجولة . وكان يحيط به عدد من النساء والرجال المتدينين المزينين ملابسهم بالشارات والاشرطة المذهبة . وقد أسرف قليلا فى شرب الخمر يومذاك ، ولم يكن قد أدمن عليها بعد .. آه .. لقد تذكر الآن ذلك الجالس عن يمينه ، انه مونتيز .. والد الرجل الذى أعدموه بعد أن اتخذوه رهينة ..

وقد تحدث مونتيز فى تلك الحفلة طويلا .. تحدث عن تقدم جمعية المحراب ونشاطها فى العام السابق ، وذكر أن رصيد الجمعية قد بلغ اثنتين وعشرين بيزة . وقد سجل الراهب فى تلك الورقة هذه الحقيقة فكتب ج . م « جمعية المحراب » ٢٢ بيزة . وقد ذكر مونتيز أيضا أنه شديد الاهتمام بانشاء فرع لجمعية سانت فنسنت دى بول . وقد اشتكت بعض السيدات ــ فى تلك الحفلة أيضا ــ من رواج بعض الكتب الشريرة فى المدينة بعد وصولها من العاصمة على متون البغال ، وقالت انها ضبطت ابنها وهو يقرأ رواية « زوج

الليلة واحدة » . وقد قال هو ، فى أثناء خطبته ، انه سوف يكتب عن هذا الامر للحاكم العام .

وفى تلك اللحظة التى قال فيها هـذه العبارة ، التقط أحـد المصورين صورة للحفلة بعد أن أطلق ضوء المغنسيوم ... وان الراهب ليتذكر نفسه فى تلك اللحظة تماما كأنه شخص غريب ينظر الى الحفلة من الخارج بعد أن لفتت أسماعه أصوات الحديث والمرح والسرور ، فهو يرى فى شىء من الحسد ، أو اللهو ، هذا الراهب البدين واقفا ، رافعا يده فى وقار وسؤدد ، ولسانه ينطق ـ ببساطة ـ بكلمة « الحاكم » وأفواه المجتمعين فاغرة ببلاهة ، ووجوههم بيضاء ساطعة بضوء المغنسيوم الذى محا الخطوط والسمات العامة عنها .!

وقد أعادته هذه اللحظة من الوقار والسؤدد الى الحـديث الجاد المتزن الخالى من الفكاهات والدعابة ، فقال « أن مبلغ الاثنتين وعشرين بيزة الذى وصل اليه رصيد جمعية المحراب ليس هو الحافز الوحيد لتبادل التهنئة فيما بيننا ـ رغم كونه حدثا عظيما فى كونسبكيون ـ ذلك أن جمعية أبناء مارى قد زاد عددها تسـعة أعضـاء جدد ، وجماعة العشاء الربانى المقدس ، استطاعت فى الخريف المـاضى أن تؤدى لنا خـدمات جليلة . ولـكن هذا النجاح المتواصـل يجب ألا يغرينا بالتكاسل . وأنا أعترف أن لدى خططا ومشـاريع قد تثير دهشتكم ، ولا شك أنكم الآن تعتقدون أننى رجل طموح واسع الآمال ، حسنا ، انى أريد أن نقيم فى كونسبكيون مدرسة أفضل .. وهـذا يعنى تعليما دينيا أفضل ، أننا هنا أبراشية كبيرة ، ويجب أن يحاط راعيها بالمظهر اللائق .. وأنا لا أتحدث عن نفسى ، وانما عن الكنيسة . ولن نتوقف عند هذا الحد ، رغم أن الأمر يقتضى ـ حتى فى مدينة مثل كونسبكيون ـ مرور بضع سنوات قبل أن نجمع المـال الكافى لتنفيذ هذه المشروعات .. » وكان يتخيل ، وهو يتحدث ، صورة مستقبله الذى يمتد أمامه .. لقد كانت الآمال والمطامح تملأه ... انه لا يرى أى سبب يحول بينه ، فى يوم ما ، وبين أن يجد نفسـه

أسقف الكتدرائية فى العاصمة ، تاركا راعيا غيره فى كونسبكيون ، يسدد ديون مشروعاته . واستمر فى خطابته وهو يلوح بيدهالبدينة فى بلاغة قائلا « ولكن كثيرا من الأخطار ـ طبعا ـ هنا ، فى المكسيك تتهدد كنيستنا العزيزة ، ونحن فى هذه الولاية أسعد حظا من غيرنا، فان رجالا كثيرين فقدوا حياتهم فى ولايات الشمال ، ولكن علينا أن نعد أنفسنا .. » ثم رطب حلقه بجرعة من الخمر قبل أن يتم عبارته قائلا « لأسوأ الاحتمالات .. وواجبنا أن نرقب ونصلى .. » وتوقف برهة قبل أن يستطرد قائلا فى غموض « نعم .. وواجبنا أن نرقب ونصلى .. فان الشيطان كالوحش الثائر ... »

وكانت المدعوات من « جمعية أبناء مارى » ينظرن اليه بعيون محملقة ، وأفواه فاغرة ، والشرائط المطرزة الزرقاء تزين الاجزاء العليا من ملابسهن القاتمة ..

وظل يتحدث طويلا وهو مستمتع برنين صوته ..وأخمد حماس مونتيز لانشاء فرع لجمعية سانت فنسنت دى بول ، لانه كان يرى عدمتشجيعرجل مدنى على القيام بمثلهذه المشروعات الدينية.وقد سرد عليهم قصة مشوقة عن طفلة كانت على فراش الموت بعد أصابتها بمرض السل ، وكانت متدينة شديدة الايمان وهى لم تتجاوز الحادية عشرة من عمرها .. وقد سألت عن الواقف بالقرب من سريرها ، فقيل لها انه الأب « فلان » فقالت « لا .. اننى أعنى ذلك الواقف وعلى رأسه تاج من الذهب »

ولما فرغ الراهب من قصته ، بكت احدى أعضاء العشاء الربانى المقدس من فرط التأثر ، وشعر كل مدعو بالرضى والسعادة .وكانت قصة واقعية تلك التى سردها عليهم فى تلك الحفلة ، ولكنه لم يستطيع أن يتذكر أين سمعها .. لعله قرأها فى كتاب ذات يوم ؟ ووضع أحدهم بعض الخمر فى كأسه ، واستأنف هو خطابته قائلا « يا أبنائى »

... وفيما كان الرجل المولد يتحرك ويغمغم بجانب الباب ، فتح

الراهب عينيه ، فاذا ذكريات تلك الحياة الماضية تتلاشى كالحلم العذب ، واذا هو راقد بسراويله المدنية الممزقة على نشز من الطين فى كوخ مظلم مهجور ، وجائزة ضخمة مرصودة للقبض عليه . لقد تغير العالم كله .. فلم يبق هناك كنائس ، ولا زملاء من رجال الدين فيما عدا بادرجوزيه ـ الراهب المنبوذ بالعاصمة ـ وتساءل فى نفسه لماذا لم ينهج سبيل بادرجوزيه ويخضع لقانون زواج الرهبان : وقال لنفسه : لانني شديد الطموح ... هذا هو السبب ولعل بادر جوزيه أفضل عند الله منى .. فقد بلغ من التواضع حدا جعله يتقبل برحابة صدر كل ألوان السخرية والتحقير .. وقد كان فى أسعد الأيام لايعتبر نفسه جديرا برسالة الكهنوت .. وقد حدث ذات يوم أن أقيم اجتماع عام للقساوسة ورهبان الابراشيات فى العاصمة ، فى عهد الحرية الدينية والحكومة السابقة ، وانه ليذكر كيف كان بادر جوزيه يلجأ الى الصف الأخير ليكون بعيدا عن أنظار المجتمعين . فلا يحاول أن يفتح فمه بالحديث .. ولم يكن يفعل هذا عن خطة مرسومة ، وانما عن تواضع شديد ينم عن ايمانه العميق بالله . وعندما كان المجتمعون يبدأون فى رفع القرابين المقدسة ، كانت يداه ترتعدان ، لا كما كان القديس توماس يفعل حين يضع يديه فى داخل جراحه ليزداد ايمانا ـ ولهذا أصبحت الدماء تنساب دائما فوق كل مذبح ـ وقد حدثه بادر جوزيه فى نوبة من الثقة المتبادلة قائلا « فى كل مرة كنت أشعر .. بأشد الخوف » .

وقد كان والده من العمال الزراعيين ـ أو على الأصح ـ من عبيد الأرض ...

أما هو ـ الراهب ـ فقد كان الأمر جد مختلف معه .. كانت له مطامح وآمال .. ورغم أنه أوسع ثقافة من بادر جوزيه ، الا أن والده كان أمين مخزن ، وكان يعرف القيمة الحقيقية لرصيد يبلغ ٢٢ بيزة ، ويعرف كيف يستطيع أن يستغله فى عمليات الرهن والاستثمار .. ولم يكن بطبيعة الحال قانعا بالبقاء مدى حياته مجرد

راع لابراشية صغيرة . وانه ليشعر الآن بمطامحه هذه ترتد اليه كأنها شيء يثير الضحك والسخرية .. ووجد نفسه فجأة يرسل ضحكة تنم عن الدهشة والمرارة.. وفتح الرجل المولد عينيه وقال :

« ألا تزال مستيقظا ؟ »

فقال وهو يمسح العرق عن وجهه بكم قميصه :

« ولماذا لاتنام أنت ؟ ! »

« انني أشعر برعدة برد شديد »

« انها الحمى .. أتحب أن أخلع عليك قميصي هذا .. انه شيء بسيط .. ولكن .. قد ينفعك »

« لا لا .. لا أريد منك شيئا .. فانك لا تثق بي .. »

نعم .. لو كان يعرف معنى التواضع والخضوع ، لامكنه الآن أن يعيش في العاصمة مع ماريا متمتعا بالامن وبالمعاش الدائم . ولكنها الكبرياء .. الكبرياء الشيطانية ، هي التي تدفعه الآن لان يقدم قميصه للرجل الذي يريد أن يغدر به .. وحتى محاولاته للهرب كان يعدل عنها في اللحظات الاخيرة بدافع الكبرياء .. بدافع الخطيئة التي جعلت أحد الملائكة شيطانا . وقد تضاعف شعوره بهذه الكبرياء عندما أصبح الراهب الوحيد الباقي في الولاية ، انه بمثابة شيطان ـ هكذا فكر ـ يبشر بالايمان معرضا حياته للخطر آملا في حسن الثواب ذات يوم ...

وراح ، في ضوء الكوخ الخافت ، يدعو ويبتهل بحرارة قائلا :

« يا الهي .. أسألك الصفح والغفران .. انني رجل متكبر .. طماع .. شهواني .. لقد أسرفت في حب المجد والسؤدد .. وهؤلاء الناس هم ، في الحقيقة ـ الشهداء ، لانهم يحمونني بتعريض حياتهم للموت ... انهم جديرون بقديس يرعاهم ، لا بأحمق مأفون مثلي يهوى كل قبيح وتافه من مظاهر الحياة .. »

ومرة أخرى ، وجد نفسه يواجه ـ بعد الاعتراف الشخصي ـ هذه المشكلة الحائرة :

« ماذا يجدر بى أن أفعل ؟ »

وعند الباب ، كان الرجل المولد يتقلب فى نومه غير المريح ..

ما أقل ما يذكى روح الكبرياء فى نفسه هذه الايام .! أنه لم يؤد غير أربعة قداسات فى هذا العام ، ولم يسمع أكثر من مائة اعتراف .. وليس هذا بالشىء الكثير ، فان أقل حارس أبله للمدافن يستطيع أن يقوم بأكثر من هذا ..

ونهض واقفا فى حذر ، وراح يسترق الخطى على أطراف أصابعه عبر الكوخ .. يجب أن يمضى الى كارمن .. ثم ينطلق فيها .. قبل أن يستيقظ هذا الرجل الذى كان فمه مفتوحا يكشف عن لثته الخالية من الاسنان ، فيما عدا النابين .. وكان يغمغم ويتحرك فى منامه ، ثم اذا هو يستلقى على الارض ساكنا ..

وبدا عليه ـ على الرجل ـ سمت الانسان الذى يئس من المقاومة ، فسقط ضحية للقوة الغالبة . ولم يكن على الراهب الا أن يخطو فوق ساقيه ويدفع الباب الذى كان يفتح الى الخارج .

وفيما هو يخطو فوق ساقى الرجل ، اذا بيد تمسك بقدمه واذا صوت المولد يقول وهو يحدق فيه :

« الى أين أنت ذاهب ؟ ؟ »

« أريد أن أقضى حاجة .. »

فظلت اليد قابضة على القدم ، والرجل يقول :

« ولماذا لا تقضيها هنا ؟! »

ثم أردف يقول بصوت الكلب المتوجع :

« ماذا يمنعك من قضاء حاجتك هنا يا أبى .. انك أب .. أليس كذلك ؟! »

« ان لدى ابنة من صلبى ومن امرأة .. اذا كان هذا ما تعنى به من كلمة أب ».

« انك تعرف ما أعنى .. وانك تعرف الله .. أليس كذلك .؟ »

واشتدت قبضة اليد المحمومة على قـــدم الراهب ، والرجل يستطرد قائلا :

« وأنت ظل الله على الارض .. أليس كذلك .. ان الله دائما معك لتبارك به المرضى . حسنا ، وأنا مريض .. فلماذا لا تسبغ بركتــه على .. أم أن الله يريد ألا تكون لمثلى أية عــلاقة به ! آه .. لو كان يعلم ... »

ولكن الرجل لم يتوقف .. بدا فى نظر الراهب كاحـــدى هذه الآلات التى رآها ذات مرة فى حقل بترول وهى ترســـل السائل الاسود فى الجو الى ارتفاع بعيد .. وكان هــذا الحقل البترولى قد اكتشف فى ضواحى كونسبكيون ، ولكن ثبت فيما بعد انه لا غناء فيه .. فقد ظلت الآلة الخاصة ترسل السائل الاسود مدة ثمان وأربعين ساعة ، بمعدل خمسين ألف جالون فى الساعة .. وكان السائل الاسود يجرى على الارض القاحلة ويمضى بعيدا الى العدم .. وان الراهب ليشبه هذا كله بالاحساس الدينى فى نفوس بعض الناس .. عمود مرتفع من الدخان والسوائل السوداء تنبثق فجأة ثم يمضى الى العدم ..

وعاد الرجل المحموم يقول :

« هل أخبرك ماذا فعلت ؟ ان من واجبك أن تسمع .. لقـــد سرقت من النساء مالا ، أتعرف لماذا .. لا — »

« اننى لا أريد أن أسمع »

« هذا واجبك .. »

« انك مخطىء .. »

« لا .. لست مخطئا .. انك لن تستطيع أن تخدعنى .. لقـد كنت أنفق المال على — انك تعرف ما أعنى .. وكنت آكل اللحوم فى أيام الجمع .. »

وظلت اليد المحمومة القابضة على قدم الراهب تزداد ارتعادا ،

وظل لسان الرجل يتلوى كالافعى بين نابيه الاصفرين وهو يرسل هذا الخليط الرهيب من البلاهة قائلا :

« وقد كذبت كثيرا .. ولم أقم بفرض الصيام الكبير مرة واحدة فى حياتى ، وقد جمعت ذات مرة بين زوجتين .. وسوف أخبرك ماذا فعلت .. أيضا .. »

وكان الرجل يتحدث وهو يشعر بأهميته الشخصية ، وكأنما لا يدرى انه مجرد قطعة نموذجية من عالم كله العنف والقسوة والغدر والشهوة .. عالم أسود كأنه المحيط الذى تضيع فيه قطرات الخطايا التى ارتكبها هذا الرجل . كم مرة سمع فيها الراهب مثل هذه الاعترافات ؟ ما أضيق حدود خطايا الانسان ؟ ان هذا المسكين الذى يظن أنه أكبر الآثمين لم يستطع أن يبتكر لونا جديدا من الخطايا .. وفى سبيل هذا العالم قد تعذب المسيح فى دنياه .. وعلى قدر ما يكون حولك من شرور وآثام ، يكون المجد فى التضحية . فليس أسهل على الانسان أن يموت من أجل الدفاع عن الاهداف الطيبة الجميلة .. عن أولاده واسرته ووطنه والحضارة البشرية .. ولكن .. أية روعة .. وأى مجد يكلل هام الرجل الذى يضحى بحياته فى سبيل هؤلاء المذنبين .. المحطمين .. الضالين !

وقال للرجل أخيرا :

« لماذا تقول لى هذا كله ؟ »

ورقد الرجل متهالكا مجهدا .. ولم يقل شيئا .. وبدأ العرق يتفصد من جسمه ، وتراخت قبضته عن قدم الراهب الذى دفع الباب وغادر الكوخ .. وكان الظلام كثيفا فى الخارج .. فكيف يعثر على بغلته ؟ لقد وقف يرهف السمع .. انه يسمع عواء حيوان غير بعيد .. وان الخوف يستبد به .. وانه ليعود الى الكوخ : لقد انطفأت الشمعة .. ولقد عكر صفو السكون بقبقة صوت كريه .. ان الرجل الملون يبكى .. وان الراهب ليذكر مره أخرى ذلك السائل الأسود المنبثق من الآلة .. وصوت بقبقته وهو يتجمع فى بحيرات صغيرة قبل أن يسيل ويمضى الى العدم ..

وعاد الراهب الى الخارج ، وأشعل عودا من الثقاب ، وسار الى الامام فى خط مستقيم : خطوة .. وثانية .. وثالثة .. واصطدم بشجرة .. فان ضوء عود الثقاب فى بحر هذا الظلام لا يزيد عن ضوء ذبابة مضيئة .. وهمس ينادى بغلته :

« ميولا .. ميولا .. »

لقد كان يخشى أن يسمعه الرجل المولد .. ولم يكن من المحتمل أن تستجيب البغلة الحمقاء لندائه حتى لو رفع صوته .. وشعر بالكراهية لها .. لرأسها المتراخية الملتوية ، ولفمها الشره الاكول الذى لا يكف عن المضغ .. ولرائحتها المفعمة بالروث والدماء ...

واشعل عودا آخر من الثقاب واستأنف الخطو .. ومرة أخرى ـ بعد خطوات معدودة اصطدم بشجرة .. وفى داخل الكوخ ، استمر صوت بقبقة السواد المنبثق من نفس بشرية . ان عليه أن يصل الى كارمن قبل أن يتمكن هذا الرجل من الاتصال برجال البوليس وعاد يستأنف السير بحذر ، ولكنه بعد الخطوة الرابعة يصطدم بشجرة ، وتحرك شىء بالقرب من قدميه .. وفكر فى العقارب .. ومرة أخرى .. خطوة وثانية وثالثة .. وسمع صوت البغلة ، فقد ارتفع صوتها العجيب الكريه فى سكون الليل كأنما تعلن عن شعورها بالجوع أو عن احساسها باقتراب حيوان وحشى .

كانت مربوطة على مسافة بضع ياردات وراء الكوخ .. وكان الرجل المولد قد رفع عنها السرج وأخفاه .. وقرر الراهب ألا يضيع الوقت فى البحث عنه لاسيما وقد أوشكت أعواد الثقاب على النفاد .. ولما ركب البغلة ، تبين استحالة دفعها الى الحركة بدون عنان ـ ولو كان قطعة من الحبال ـ أو بدون عصا .. وحاول أن يلوى أذنيها ولكنهما كانا فاقدى الاحساس كمقبض الباب ، فقد وقفت متسمرة فى مكانها كأنه فوقها تمثال فارس . وأشعل عودا من الثقاب ولسعها بناره ، فأطلقت ساقيها الخلفيتين فى رفسة مفاجئة جعلت الثقاب يسقط من يده ، ثم عادت وتسمرت فى موضعها ..

وفجأة سمع صوتا يقول فى لهجة عتاب :

« آتريد أن تتركنى هنا لأموت ؟ ! »

« ما هذا اللغو ؟ اننى أريد الاسراع بالذهاب الى كارمن .. هذا كل ما فى الامر ، ولسوف تصبح على ما يرام فى الصباح ، أما أنا فلا أستطيع الانتظار .. »

وسمع فى انظلام حركة مفاجئة ، ثم اذا باليد المحمومة تقبض على قدمه ، واذا الرجل يقول فى صوت ملهوف :

« لا تتركنى وحيدا .. اننى ابتهل اليك .. كرجل مسيحى »

« انك غير معرض لأى خطر .. »

« من أين تدرى وذلك المجرم الامريكى الهارب قد يكون فى هذه المنطقة ؟ »

« اننى لا أعلم شيئا عن ذلك المجرم .. ولم ألتق بأحـد يعرف عنه شيئا ، ثم هو لا يعدو أن يكون رجلا .. مثلى ومثلك .. »

« اننى لا أريد أن أترك وحيدا .. فانى أشعر »

فقال الراهب فى ضجر واستسلام :

« حسنا جدا .. ابحث عن السرج والركاب .. »

وبعد أن أسرجا معا البغلة استأنفا الرحيل فى الغابة .. الراهب راكبا ، والمولد سائرا قابضا بيده على الركاب .. وكان الصـمت منعقدابينهما ، وفى بعض الاحيان كان المولد يتعثر فى مشيته .. وبدأت طلائع الفجر الباهتة ترسل ارق أطيافها ، وأحس الراهب بلون من السرور العنيف الجائر كأنه قطعة من الفحم المتوهج فى الجزء الخلفى من رأسه .. فهاهوذايهوذا يسير بجانبه ، مريضا ، مفزعا من الظلام ان فى مقدوره الآن أن يضرب البغلة فتنطلق به تاركة رمز الخيـانة منبوذا وحيدا فى جوف الغابة .. وقد حدث أن غرس طرف العصا فى ردفها فراحت تسير بخطوات سريعة متوثبة .. وكان يشعر فى تلك اللحظات بذراعى الرجل وهو يحاول جذب الركاب بكل مافيه من قوة واهنة .. ثم سمعه يغمغم كأنما يقول « عفوك يا الهى » وأعاد البغلة الى سيرها البطىء ، وشرع يتمتم بصـلاة خافتة « غفرانك

يا رب » فقد تعذب المسيح من أجل هذا الرجل أيضا ... فكيف يخطر بباله أنه بكبريائه ، وشهواته ، وجبنه ، أفضل من هـــذا الرجل المولد ؟ ان هذا الرجل ينوى أن يخونه ليظفر بمال هو فى أشد الحاجة اليه . « أما أنا » هكذ حدث الراهب نفسه « فقد خنت الله بدون أى سبب .. حتى ولو بسبب شهوة حقيقية .. »

وقال للرجل :

« هل اشتد المرض عليك »

ولما لم يسمع ردا ، ترجل عن البغلة وقال :

« اركب أنت وسوف أسير بجانبك قليلا »

فقال الرجل بصوت كله الكراهية :

« اننى فى أحسن حال .. »

« بل يحسن بك أن تركب .. »

فعاد الرجل يقول :

« أتعتقد أنك عظيم ونبيل لانك تساعد أعداءك ... هـذه هى تعاليم المسيح .. اليس كذلك ؟ ! »

« وهل أنت عدو لى »

« هـــذا ما تعتقده أنت .. فأنت تظن أنى أريد الحصول على السبعمائة بيزه .. أعنى الجائزة .. انك تعتقد أن رجلا فقيرا مثلى لا يستطيع أن يملك نفسه ولا يخبر البوليس عنك .. »

« انك محموم .. »

فقال الرجل فى لهجة خبيثة :

« نعم .. انك مصيب طبعا .. »

« اذن يحسن بك أن تركب .. »

وسقط الرجـــل على الارض .. واضطر الراهب الى أن يعينه على الركوب ، وتهالك الرجل أخيرا فوق ظهر البغلة وقـــد تدلت رأسه الى مستوى وجه الراهب ، وراحت أنفاسه الكريهة تصل الى أنف الراهب وهو يقول :

« ليس للرجل المعدم حق الاختيار يا ابى .. فلو انى كنت على شىء من الثراء يسير ، لاصبحت رجلا فاضلا .. »

وتذكر الراهب فجأة ، وبدون سبب ، منظر أعضاء جمعية أبناء مارى وهم يأكلون الحلوى ، ثم تساءل فى نفسه : أهذا هو كل الفضل والخير !! وأرسل فجأة ضحكة بلهاء وقال : « اننى أشك فى هذا ؟ »

وقال الرجل فى حديثه المحموم :

« ماذا قلت يا أبى ؟ !! أنك لاتريد أن تثق بى لانى رجل فقير .. ولانك لا تثق بى .. »

ثم سقط متهالكا ، مغشيا عليه ، فوق عجرة السرج . وراحت أنفاسه تلهث وهو يرتعد ، وأسنده الراهب بيده ، وسار الركب فى بطء نحو كارمن . ولكن .. ما جدوى وصـــوله اليها .. ! انه لن يستطيع المكث فيها الآن .. بل ليس من الحكمة أن يدخلها ، فلوعرف رجال البوليس أنه مر بها ، فسوف يقتلون الرهائن التى أخـذوها منها ...

وسمع من مكان ما .. بعيد .. صياح الديك .. وابتدأالضباب يرتفع من سطح الارض المشبعة بالماء الآسن ، وأخـذ هو يتساءل : ترى فى أية ساعة من الفجر يصـيح الديك ؟ أن من أغرب المظاهر فى هذه المناطق خلوها التام من الساعات الدقاقة الكبيرة .. فانك قد تمضى عاما كاملا دون أن تسمع دقات واحدة منها .. لقد ذهب هذا النوع من الساعات الذى يذكر الناس بنواقيس الكنائس مع الكنيسة .. وهكذا ترك الانسان بمفرده ليتعرف على الوقت بشروق الشمس وغروبها ..

وشيئا فشـيئا بدأ جسم الرجل المولد يتوضـح وهـو متهالك على عجرة السرج ، فظهرت خطوط وجهه الشاحب ، وفمهالمفتوح والنابان الاصفران بارزان فوق الشفتين .. حقا انه لجدير بالمكافأة — هكذا راح الراهب يفكر — فان مبلغ سبعمائة بيزة ليس بالثروة الكبيرة ولكنه — أى المولد — يستطيع أن يعيش به فى تلك القرية النائية الموحشة لمدة عام كامل .

وعاد يضحك ببلاهة مرة أخرى .. انه لا يستطيع أن يأخذ مشكلة امتزاج المصائر البشرية مأخذ الجد وانما هو يظن أن من المرجح انقاذ روح هذا الرجل اذا أتيحت له الحياة المستقرة الناعمة لمدة عام ، فما عليك الا أن تقلب أية حالة على جانبها الآخر حتى تنبثق أمامك هذه الحالات الاخرى الصغيرة المضادة .. فقد حدث أن استسلم ذات يوم لليأس ، فانبثقت من هذه الحالة روح بشرية جديدة ، وحب ـ نعم انه ليس بالحب الفاضل الشريف ، ولكنه حب على كل حال .

وفجأة قال الرجل المولد :

« انه القدر .. لقد أخبرنى أحد المنجمين يوما .. ان .. ان فى حياتى جائزة . »

وأمسك بالمولد ليثبته فوق السرج ، واستمر فى المسير .. لقد كانت قدماه تدميان ، ولكنه كان يعرف أنهما لن يلبثا حتى يجفا ويخشوشنا ويتعود على هذا النمط من الحياة .. وخيم على الغابة جو رهيب من السكون ، وازداد ارتفاع الضباب من الارض المنشعة حتى شمل كل شيء . فقد كان الليل زاخرا بالاصوات الغامضة المبهمة .. أما الآن .. فقد كان كل شيء ساكنا .. وكانما هى الهدنة بعد أن توقفت المدافع عن اطلاق نيرانها بين الجانبين ، وكأنما العالم كله يرهف السمع الى ما لم يسبق لأحد أن يسمعه .. الى السلام .

وسمع صوتا يقول له :

« أنت الراهب المختفى .. أليس كذلك ؟ ! »

« نعم .. »

وكأنما هو قد خرج أخيرا من خندقه فى الجبهة المعادية وراح ليلتقى مع هذا الرجل فى المنطقة الحرام بين الاسلاك الشائكة .. انه يتذكر قصص الحرب العالمية وكيف كان بعض جنود الجبهتين المتعاديتين فى شهورها الاخيرة يلتقون ـ بدافع فجائى ـ بين خطوط القتال فيقول أحدهم للآخر « هل أنت ألمانى » فيرد عليه الآخر نفس

اللهجة الهادئةالتى لاتخلو من الشعور الانسانى « وهل أنت انجليزى ! ! »
« نعم .. »

كررها مرة أخرى والبغلة تكد فى سيرها الى الامام وراحت الافكار العاصفة ، المفعمة بذكريات الماضى والحاضر ، تدور فى ذهنه ، وأخيرا قال للرجل المولد فى صوت رقيق :

« هل تشعر بتحسن الآن ؟ ! هل خف شعورك بالحرارة .. أو بالبرودة ! »

ثم وضع يده بحنان مفاجىء على كتف الرجل ..

ولم يجب الرجل بشىء وانما ظل يتأرجح على ظهر البغلة من هذا الجانب الى ذاك وهى تكد فى سيرها ..

وعاد الراهب يقول مشجعا :

« لم يبق من المسافة الآن غير فرسخين .. »

وكان عليه ، وهو يقترب من المدينة ، أن يحزم أمره .. أن فى ذهنه عنها - عن مدينة كارمن - صورة أوضح من صور أية قرية أو مدينة فى الولاية : المنحدر الطويل المكسو بالعشب ، والصاعد من النهر الى ساحة المدافن الواقعة على قمة تل صغير لايزيد ارتفاعه عن عشرين قدما .. أن والديه مدفونان فى تلك المدافن .. وان سياجها الحجرى المحيط بالساحة قد انهار ، وان صليبا أو اثنين قد تحطما بأيدى بعض المتعصبين من ذوى القمصان الحمراء ، وتمثال ملاك قد فقد أحد جناحيه الحجريتين ، أما ماتبقى من شواهد القبور ومعالمها بغير تحطيم فقد ظل ملقى على أرض الساحة المنشعة . وكذلك تمثال العذراء فقد الاذنين والذراعين وظل قائما - كأنه تمثال فينوس الوثنى - فوق قبر أحد الاغنياء المنسيين من تجار الخشب . وانها لعجيبة ، هذه الثورة العارمة للمحو والازالة ، لان الانسان مهما حاول - فى ثورته - أن يمحو ويزيل آثار السلف ، فانه لن يبلغ حد النجاح الكامل ، لان الاثار - المادية والادبية - هى من صنع الانسان ، فاذا أراد أن يقضى عليها تماما ، فعليه أن يقضى على الانسانية نفسها .. أى على نفسه أولا ..

وقال للرجل المولد :

« هل تحسنت الآن بحيث تستطيع أن تثبت بنفسك فوق البغلة ؟ »

ورفع يده التى كان يسند بها الرجل حين تشعب الطريق الى ناحيتين .. احداهما تؤدى نحو كارمن ، والاخرى نحو الغرب .. ودفع البغلة بقوة نحو الطريق المؤدى الى كارمن وأهوى بالعصا على ردفيها قائلا للمولد :

« لسوف تصل البغلة بك الى كارمن فى خلال ساعتين .. »

ثم وقف يرقب البغلة وهى تنطلق نحو مسقط رأسه ، حاملة الرجل المولد متهالكا فوق ظهرها ..

« وحاول الرجل أن ينتصب جالسا فوق البغلة وهو يقول :

« وأنت الى أين ستمضى ؟ ؟ »

« لسوف تكون شاهدا على انى لم أدخل كارمن .. ولكن يمكنك أن تظفر من رجال البوليس بطعام اذا أنت قلت لهم انك رأيتنى .. »

وحاول الملون أن يلوى رأس البغلة نحو الراهب وهو يقول :

« ولكن .. لماذا .. لماذا ؟ »

وقال الراهب مؤكدا :

« لا تنس أن تخبرهم بأنى لم أدخل كارمن »

ولكن .. الى اى مكان آخر يمكن ان يذهب ! لقد ادرك فجأة عن يقين ــ بأن مكانا واحدا فقط ، فى الولاية كلها ، هو الذى يمكن أن يلجأ اليه دون الخوف من أن يؤخذ أحد الابرياء رهينة انه مخزن الموز فى مسكن الكابتن فيلوز حيث الفتاة العجيبة كورال ولكنه لا يستطيع أن يذهب الى هذا المكان يمثل هذه الملابس .

وتشبث الرجل المولد بقوة فى عجرة السرج وهو يستدير برأسه ويحدق فى وجه الراهب بعينين صفراوين ملهوفتين ، ثم يقول فى استعطاف :

« انك لا تستطيع أن تتركنى هنا .. وحيدا »

انه لم يترك فى ذلك المكان الرجل المولد فحسب ، وانما ترك ما هو أهم وأثمن منه .. فقد وقفت البغلة فى عرض الطريق برأسها المرتخى الاحمق كأنها حاجز بينه وبين المدينة التى ولد فيها . فلا عجب اذا شعر فى تلك اللحظة بأنه كرجل ضائع بغير جواز مرور لا يسمح له بالهبوط فى أية ميناء ..

وصاح الرجل المولد فيه بعد أن استطاع أن ينتصب على متن البغلة جالسا :

« أتسمى نفسك مسيحيا يا ....»

وأخذ ينهال عليه بألوان الشتائم والسباب .. سلسلة ألفاظ بذيئة لا معنى لها راحت تنطلق من بين نابيه فى جو الغابة كأنها ضربات خفيفة لمعول فى يد طفل . ولم يعجب الراهب لهذا الغضب المفاجىء الذى استبد بالرجل .. بل التمس له العذر .. فلا شك انه ضيع عليه قيمة الجائزة .. سبعمائة بيزة .

واختتم المولد صيحاته البذيئة وهو يقول بصوت كالفحيح :

« اذا رأيتك مرة أخرى فلا تلمنى .. اننى لا أنسى وجها رأيته .. »

الفصل الثانى

أخذ الشبان والشابات يجوبون الساحة دورة بعد أخرى تحت أضواء المصابيح الكهربائية الحارة : الشبان فى طريق .. والفتيات فى طريق آخر .. وكل من الفريقين لايوجه الحديث الى الفريق الآخر وكانت ومضات البرق تلمع فى الجانب الشمالى من السماء ، وكانت حركات الشبان والفتيات تبدو فى مظهرها كأنها حفلة دينية فقدت كل معنى رغم ارتداء الجميع لافضل ما لديهم من ثياب . وفى بعض الاحيان كانت جماعة من النسوة العجائز يشتركن فى الاحتفـــال ضاحكات مبتهجات كأنما يستعدن فى ذاكرتهن صور الايام الماضية السعيدة ، قبل ان تحرق جميع الكتب .. وكان ثمة رجل يضع فوق ردفه غدارة يرقب الاحتفال وهو واقف على سلم الادارة المالية وشرطى عجوز ضئيل الحجم كان يجلس عنـــد باب السجن وعلى ركبتيه بندقيته ، وكانت ظلال سعف النخيل متجهة نحـــوه كأنها مجموعة من الحراب الملتوية ، وكان الضوء ينبعث من نافذة عيادة طبيب الاسنان ، حيث كان يتألق على مقعد خلع الاسنان ، وعلى الحشايا الجلدية الحمراء ، وعلى كوب « المضمضة » الموضوع فوق حامله الخاص ، وعلى خزانة الادراج الصـــغيرة الزاخرة بمختلف الادوات ..

أما فيما وراء النوافذ ذات الشبكات السلكية للمنازل الخاصة فقد كانت الجدات العجائز يتأرجحن على المقاعد الهزازة ، بين صور أفراد العائلة المعلقة على الجدران لا يفعلن شيئا ، ولا يتحدثن بشىء وانما يرتدين الملابس الكثيرة ، ويعرقن قليلا .. فتلك هى عاصمة الولاية ..

وعلى مقعد فى الساحة ، كان ثمة رجل فى بذلة كتانية يرقب كل

ما يجرى أمامه ، وسارت شرذمة من رجال البوليس المسلحين فى الطريق الى معسكرها .. وكان الجنود يحملون البنادق كيفما اتفق ويسيرون بخطوات غير منتظمة . وكانت الساحة مضاءة بمصابيح كهربائية فى مجموعات ، كل مجموعة ثلاثة مصابيح ، وكلها معلقة فى أسلاك غليظة قبيحة المنظر .. وكان أحد المتسولين ينتقل من مقعد الى آخر يلتمس الاحسان على غير جدوى . وأخيرا جلس بجانب الرجل ذى البذلة الكتانية وراح يسهب فى شرح ظروفه ! وكان يبدو فى حديثه وتصرفاته مزيج من الرجاء ، والتهديد فى آن واحد . وكانت الشوارع تنحدر فى كل ناحية ، نحو النهر والميناء ، ثم نحو السهل الزاخر بالمستنقعات والآجام ..

وكان المتسول يقول انه متزوج ، وله عدد كبير من الاولاد لم يذوقوا خلال الاسابيع الاخيرة غير القليل جدا من الطعام . ثم توقف فجأة عن الحديث وراح يتحسس البذلة الكتانية وهو يقول :

« كم كلفتك هذه البذلة من ثمن كبير ! »

« ستدهش اذا عرفت ثمنها البسيط »

وعندئذ دقت الساعة النصف بعد التاسعة ، فانطفأت الانوار فجأة بينما قال المتسول :

« ان مايجرى هنا يجعل الانسان يائسا من حياته »

ثم راح يتلفت حوله عندما أخذت دورية الليل تمضى فى منحدر التل . ونهض الرجل ذو البذلة الكتانية ، ونهض المتسول معه وراح يسير وراءه نحو حافة الساحة وقدماه الحافيتان ترسلان على الطوار المرصوف حفيفا بغيضا .. وأخيرا قال :

« أن يضع بيزات لن تؤثر فى ماليتك كثيرا . »

« آه لو تعرف كم تؤثر هذه البيزات فى حياتى كلها .. »

ولم يتراجع المتسول ، وانما قال :

« ان رجلا فى ظروفى يشعر أحيانا بأنه لا يتورع عن ارتكاب أى شىء من أجل عدد قليل من البيزات »

وكانا واقفين ـ كصديقين ـ فى الظلال السوداء بعد انطفاء أنوار المدينة كلها . واستطرد المتسول قائلا :

« فهل تستطيع أن تلومنى ؟! »

« لا لا .. ان آخر شىء يخطر ببالى هو أن ألومك »

ويبدو أن كل ما يقول يزيد المتسول توترا وحمقا . فاذا هو يقول

« أحيانا أشعر كأنى أريد أن أقتل ـ »

« لا لا .. ان هذا ، طبعا ، عين الخطأ .. »

« هل من الخطأ أن أقبض على عنق رجل بيدين من حديد ـ »

« حسنا .. من حق الانسان الموشك على الموت جوعا أن يدافع عن كيانه ـ »

وراح المتسول يرقب الرجل فى غضب وحشى ، بينما هذا يستمر فى الحديث كأنما يناقش مشكلة علمية خطيرة ، فقال :

« ولكن الانسان ، طبعا ـ لايستطيع أن يدافع عن كيانه بارتكاب الجريمة .. فأنا مثلا أملك على التحديد خمس عشرة بيزة وخمسة وسبعين سنتاتو ، ولم أذق الطعام منذ ثمان وأربعين ساعة .. »

« ياإله السماء !! انك قاس كالحجر الاصم .. أليس بين جنبيك قلب ؟ »

وأرسل الرجل ذو البذلة الكتانية ضحكة خفيفة بلهاء بينما أردف المتسول قائلا :

« انك كاذب .. لماذا لم تأكل ما دام فى جيبك خمس عشرة بيزه »

« أتعرف لماذا ؟ لانى أريد أن أنفق المبلغ فى الشراب ... »

« أى نوع من الشراب ؟ »

« النوع الذى لا يعرف الرجل الغريب أن يحصل عليه هنا ! »

« هل تعنى المشروبات الروحية .. ! »

« نعم .. الخمر .. »

واقترب المتسول من الرجل حتى لامست ساقه ، ثم وضع يده على ذراعه حتى ليكاد من يراهما يحسبهما صديقين حميمين ، أو أخوين ، واقفين فى مودة واخاء بين ظلال الليل ، وكانت أضواء

المنازل قد بدأت بدورها تنطفىء ، والسيارات المأجورة « التاكسيات » التى كانت تقف فى منتصف الطريق الى التل أثناء النهار فى انتظار الركاب ، بلا جدوى ، قد بدأت أيضا تنصرف . وومضت شعلة مصباح قبل أن تنطفىء على مدخل مركز البوليس . وعاد المتسول يقول :

« هذا يوم من أيام سعدك يارجل .. كم تريد أن تدفع ... »

« فى الشراب ؟ ! »

« لا .. بل لاقدمك الى رجل يستطيع أن يزودك بقليل من البراندى .. البراندي الاصيل ماركة فيراكروز .. »

فقال الرجل ذو البذلة الكتانية :

« ان حلقا جافا كحلقى أحوج ما يكون الى مثل هذا البراندى الاصيل »

« ان لديه كل أنواع المشروبات »

« خمور ! ؟ »

« خمور معتقة »

فقال الرجل ذو البذلة الكتانية فى لهفة :

« انى على استعداد لان أبذل كل ما معى من نقود فيما عدا العملة الصغيرة .. »

ثم أردف قائلا وهو يغمغم بألفاظ غامضة :

« ولكن بشرط أن أحصل على خمر أصيلة من عصير الكروم . »

وسمع الرجلان ، من مكان ما ، فى منحدر التل عند شاطىء النهر قرع طبلة ، واحد .. اثنان .. ثم وقع خطوات عسكرية تسير — فى غير نظام محكم — على « النقرة » ، ويبدو ان احدى داوريات الجنود أو رجال البوليس ، كانت فى طريق العودة الى المعسكر ..

وعاد المتسول يقول فى صبر نافذ :

« كم ستدفع .. »

« حسنا ! أستطيع أن أدفع الخمس عشرة بيزة ، وتستطيع انت

أن تأتينا بخمر جيدة بالثمن الذى يروقك .. والباقى لك »
« اذن تعال معى »

وشرع الاثنان يسيران فى الطريق المنحدر من التل ، عند الركن الذى يتفرع منه طريقان ، أحدهما يمر أمام مخزن الادوية وثكنات الجنود ، والاخر يمضى نحو الفندق ورصيف الميناء ومخازن البضائع التابعة لشركة الموز المتحدة . وتوقف الرجل ذو البذلة الكتانية فجأة عندما رأى شرذمة من جنود البوليس تسير حاملة البنادق ومعها الرجل المولد بوجهه الشاحب ونابيه الاصفرين البارزين فوق شفته السفلى ، ثم قال للمتسول بصوت هامس :

« قف ! . انتظر ! . »

وظل واقفا فى الظل يرقب الرجل المولد وهو يمضى مع شرذمة الجنود .. وقد حدث فى اللحظة الاخيرة أن أدار المولد رأسه وتقابلت نظراته بنظرات الرجل ذى البذلة الكتانية فى لحظة خاطفة ومضى رجال البوليس صعدا الى الساحة ..

وقال الرجل للمتسول أخيرا فى همس :

« هلم نمضى .. بسرعة .. »

وقال المتسول يطمئنه :

« انهم لن يتدخلوا فى شئونك .. انهم يبحثون عن شخص أهم منك كثيرا »

« وماذا يفعل هذا الرجل الذى يسير معهم ؟ »

« من يدرى .. لعله أن يكون رهينة »

« اذا كان رهينة ، فهل كانوا يتركونه يسير دون أن يقيدوا يديه على الأقل ؟ »

فقال المتسول بأعصاب متوترة :

« وأنى لى أن أعرف .. ؟ »

ثم أردف وهو يكتم ضيقه وضجره :

« هل تريد شرابا أم لا ؟ »

« أريد خمرا .. »

« أنا لا أعرف أى أنواع الخمر عنده .. عليك أن تقبل مايقدمه اليك .. »

وفيما هو يتقدم نحو شاطىء النهر ، أردف قائلا :

« بل انى لا أعرف هل هو موجود الآن فى المدينة ؟ »

وكانت الخنافس الطائرة قد تسللت من أحجارها وانتشرت على الأرصفة ليموت بعضها تحت الأقدام . وتصاعدت من ناحية النهر تلك الرائحة الحادة الخضراء ، وبدا من وسط حديقة عامة صغيرة النصف الأعلى من تمثال قائد حربى ، متألقا فى الظلام ، وكان الجو حارا ، والطريق متربا مغبرا ، وصوت المولد الكهربائى يئز تحت أرضية الطابق الأرضى للفندق الوحيد الذى دخله المتسول والرجل ذو البذلة الكتانية .. وكان ثمة درجات خشبية واسعة ، مغطاة بالخنافس الطائرة ، تؤدى الى الطابق الأول .. وقال المتسول وهو يمضى مع الرجل فوق الدرجات الخشبية :

« لقد بذلت كل مافى وسعى .. »

وفى ردهة الطابق الاول ، شاهد الاثنان رجلا يخرج من احدى غرفات النوم ، مرتديا سراويل سوداء ، وصديريا مشدودا على جسمه ، وعلى كتفه منشفة ، وكانت له لحية رمادية ، أنيقة ، ويحيط وسطه بحزام فضلا عن حمالة السراويل . وفى مكان غير بعيد كان خرير الماء مسموعا وهو ينبثق من صنبور ، وكانت الخنافس الطائرة تصطدم بمصباح كهربائى كبير .

وأخذ المتسول يتبادل الحديث فى همس واهتمام مع الرجل ذى اللحية الرمادية ، وانطفأت المصابيح الكهربائية فجأة ، ثم أضيئت وهى ترتعش ، وكانت الردهة ، بالقرب من رأس السلم تحتوى على مجموعة من المقاعد الهزازة ، وفوق لوحة كبيرة من الاردواز كتب - بالطباشير - أسماء النزلاء .. ثلاثة فقط فى فندق يحتوى على عشرين غرفة نوم ..

واستدار المتسول نحو صاحبه ذى البذلة الكتانية وقال له :

« يقول مدير الفندق ان السيد الذى نريده غير موجود الآن ..

فهل ننتظره ؟ »

« نعم .. فليس للوقت قيمة عندى .. »

ودخل الاثنان الى غرفة نوم كبيرة عارية ، أرضيتها من الآجر ، وليس فيها غير سرير حديدى أسود كأنما تركه الشخص الذى أخلى الغرفة عمدا ، وعلى هذا السرير الحديدى الأسود ، جلس الاثنـــان جنبا الى جنب ينتظران .. وأقبلت الخنافس الطـائرة من ثغرات واسعة فى الشبكة السلكية الموجودة على النافذة ، وراحت تصطدم بالجدران .

وقال المتسول للرجل ذى البذلة الكتانية :

« ان السيد الذى ننتظره شخصية كبيرة .. انه ابن عم الحاكم العام للولاية .. وهو يستطيع أن يقدم اليك أى شىء .. ولكن يحب ــ طبعا ــ أن تتعرف به عن طريق شخص موثوق فيه .. »

« وهل هو يثق فيك »

فقال المتسول بصراحة :

« لقد توسطت له فى اتمام صفقة مريبة ، ومن ثم أصبح مضطرا للثقة بى »

« وهل يعرف الحاكم هذا كله عن ابن عمه ؟ »

« طبعا لا .. انه رجل صارم .. »

وكان خرير الماء الذى ينبثق من الصنابير يسمع بين الحين والآخر ..

وقال الرجل ذو البدلة الكتانية :

« ولكن .. لماذا يثق بى أنا ؟! »

« لان مظهرك ينم بوضوح على ادمانك الخمر .. ولهذا سوف تضطر الى طلب المزيد بين يوم وآخر .. وانها لخمر جيدة هذه التى يبيعها ، ويحسن أن تسلمنى الآن الخمس عشرة بيزة .. »

وبعد أن أحصى عددها مرتين بعناية أردف قائلا :

« لسوف أظفر لك بزجاجة كاملة من أجود أنواع براندى فيراكروز

.. ولسوف تتأكد من هذه الحقيقة بعد قليل .. »

وانطفأت الانوار فجأة ، وظلا جالسين فى الظلام على السرير الذى كان يحدث صريرا كلما تحرك أحدهما ..

وسمع فى الظلام صوت الرجل ذى البدلة الكتانية يقول :

« اننى لا أريد براندى »

« اذن ماذا تريد .. »

« أريد خمرا .. »

« ان الخمر باهظة الثمن »

« باهظة او غير باهظة الثمن .. أما ان تقدم لى خمرا أو ترد الى نقودى » .

« أتقبل خمر سفرجل ؟ »

« لا .. بل خمر كروم .. فرنسيه »

« واذا كانت خمرا من كروم كاليفورنيا ؟ »

« لا بأس .. »

« انه يحصل عليها لنفسه بالمجان .. من ادارة الجمارك .. »

وبدأ المولد الكهربائى يئز ويخفق مرة أخرى فى الطابق الارضى ، وعاد النور خافتا فى اول الامر ، وفتح مدير الفندق الباب وأشار للمتسول ، ثم وقف يتبادل معه حديثا طويلا فى صوت هامس . وتراخى الرجل ذو البذلة الكتانية بظهره فى السرير . وكانت على وجهه آثار جراح خفيفة كثيرة تسببت من شفرة الحلاقة عند ما كان يحلق وجهه بضع مرات . وكان وجهه شاحبا ، مريضا ، غائر الوجنتين ، مستديرا ، ينم على انه كان فى يوم ما بدينا مكتنزا .. وكان مظهره العام يدل على أنه رجل أعمال مفلس سىء الحال ..

وعاد المتسول اليه قائلا :

« ان السيد الكبير مشغول الآن ، ولكن غيبته لن تطول .. وقد ارسل مدير الفندق غلاما للبحث عنه »

« وأين هو الآن ؟ »

« انه يلعب البليardo مع مدير البوليس ، ولا يستطيع أحد أن يقطع حبل اللعب عليه » ثم أقبل الى مكانه من السرير بعد أن قتل خنفستين بقدمه الحافية ، ثم أردف يقول :

« هذا فندق فاخر .. فأين تنزل أنت ؟ ! الواضح عليك انك غريب ! أليس كذلك ؟

« اننى مجرد عابر سبيل .. »

« ان السيد الكبير الذى أحدثك عنه رجل واسع النفوذ .. ويحسن أن تدعوه للشراب معك .. وكذلك يحسن ألا تأخذ الخمر معك الى مسكنك ، وانما الافضل أن تشرب هنا بقدر ما تستطيع »

« انى أريد أن .. احتفظ بقليل منها لاعود بها الى مسكنى »

« ان المساكن كلها سيان .. وخيرها ما تجد فيه مقعدا تجلس عليه ، وكأسا تشرب منه »

« على كل حال ... »

وانطفأت الانوار مرة أخرى .. وومض البرق فى الافق البعيد كأنه ستار مضىء ، وانساب قصف الرعد من خلال أسلاك النافذة كأنه الصوت الذى تسمعه من الطرف الآخر للمدينة عند ما تبدأ حفلات مصارعة الثيران يوم الاحد ..

وقال المتسول بصوت من الود المصطنع :

« بماذا تشتغل ؟! »

« اننى ألتقط الاعمال حيثما تكون ، وكلما استطعت اليها سبيلا »

وخيم الصمت عليهما وهما جالسان ينصتان الى وقع الاقدام على الدرجات الخشبية ، وفتح الباب ، وسمع صوت يغمغم بألفاظ مبهمة ثم يقول :

« من هناك ؟؟ »

وأشعل عود من الثقاب ظهر على ضوئه جانب من وجه غير حليق ، وخفق المولد الكهربائى مرة أخرى ، وما لبثت أن أضيئت

الانوار به ــ وقال الداخل الغريب حين وقعت نظراته على المتسول

« أوه .. أهذا أنت ؟ »

« نعم .. انه أنا »

كان رجلا ضئيل الجسم له وجــه كبير شاحب ، ويرتدى بذلة رمادية ضــيقة ، ويبرز من تحت ســترته مســدس كبــير ، قال « ليس ما أقدمه لك .. لا شيء .. »

ومضى المتســول اليه وراح يحدثه فى اهتمام بصــوت هامس وفى أثناء الحديث ضغط فى رفق بقدمه العارية على حذاء الرجل اللامع ، وزفر هذا أخيرا ، ونفخ الهواء المتجمع فى شدقيه وهو يحدق النظر الى السرير كأنما يخشى أن يكون فى الامر مكيدة ، ثم قال بحدة للرجل ذى البدلة الكتانية :

« اذن فأنت تريد كمية من براندى فيراكروز ؟ الا تعرف أن هذا مخالف للقانون ؟ »

« لا .. ليس براندى .. لا أريد براندى »

« ألا يكفى أن تشرب البيرة ؟ »

ثم تقدم منتفخا متعاليا الى وسط الغرفة وحذاؤه يزيق على آجر الارضية ــ أليس ابن عم الحاكم العام ؟

وقال للرجل ذى البدلة الكتانية مهددا :

« ألا تعرف أن فى مقدورى القبض عليك !؟ »

فانكمش الرجل فى نفسه وقال بتواضع وخضوع :

« طبعا يا صاحب الفخامة .. »

« أتظن أنه ليس لى من عمل الا ارواء ظمأ كل متسول مثلك عندما يريد ... »

« لا لا .. لم يخطر ببالى أن أزعج فخامتك لولا أن هذا الرجل .. »

وبصق ابن عم الحاكم العام على آجر الارضية بينما أردف ذو البدلة الكتانية قائلا :

« اذا شئت يا صاحب الفخامة ، فانى أنسحب .. »

فقال له بحدة :

« اننى لست رجلا قاسيا .. انى أحب عادة أن أسدى الخير لاخوانى فى الانسانية اذا كان ذلك فى مقدورى دون أن أسيء الى أحد .. ان لى مركزى الخاص ، كما تعلم وهذه المشروبات تصل الى بالطرق القانونية »

« طبعا .. طبعا .. »

« ومن حقى أن أطلب الثمن الذى أدفعه فيها »

« مؤكد ... »

« والا أفلست ... »

وتقدم نحو السرير فى شيء من الاختيال ، وجلس عليه ، وخلع حذاءه وقال وهو يستدير برأسه قليلا نحو ذى البذلة الكتانية :

« هل أنت ثرثار »

« لا .. انى أعرف كيف أكتم السر »

« لا بأس من أن تفشى السر ... لمن يريدون الخمر الممتازة »

وكان على السرير حشية كبيرة ممزقة ، فانتزع من داخلها قبضة من القش ، ثم أدخل يده فى جوفها ، واستدار ذو البذلة الكتانية برأسه نحو النافذة وراح يتظاهر بالنظر الى الحديقة العامة ، كأنما الأمر لايعنيه ، ثم انتقل بنظراته الى شاطيء النهر ، والى صوارى السفن حيث كان البرق يلمع وراءها . عند الأفق ، أما قصف الرعد، فكان يقترب شيئا شيئا ..

وقال ابن عم الحاكم وهو يمسك بيده زجاجة خمر :

« انى أستطيع أن أتنازل لك عن هذه .. انه براندى من نوع جيد »

« الواقع انى فى حاجة الى نوع أفضل من البراندى »

« يجب أن تقبل ما نقدمه لك »

« اذن فمن حقى أن أسترد الخمس عشرة بيزة »

فهتف ابن عم الحاكم فى دهشة واستنكار :

« أدفعت خمس عشرة بيزة ؟ »

فأسرع المتسول يقول مفسرا :

« يقصد أنه يريد أن يحصل على كمية من الخمر مع البراندى »

ثم شرعا بجانب السرير ، يتناقشان فى عنف عن السعر والثمن ثم قال ابن عم الحاكم : « من العسير أن أقدم اليك الخمر التى تريدها .. ولكن يمكننى أن أعطيك زجاجتين من البراندى بدلا من زجاجة واحدة .. »

» ولكننى متعود على شرب الخمر المعتقة .. انك لا تدرى مبلغ شوقى اليها .. »

ثم أردف قائلا

« أستطيع أن أقبل زجاجة من البراندى مع زجاجة أخرى..من الخمر .. »

« ان ما أقدمه اليك هو أجود أنواع براندى فيراكروز ... وعلى كل حال كم يمكنك أن تدفع الفرق بين البراندى والخمر ..؟ فان الخمر تكلفنى كثيرا »

« لم يبق لدى فى الدنيا غير خمسة وسبعين سنتاثو .. »

« يمكننى أقدم اليك زجاجة من خمر التكويلا »

« لا لا ... »

« اذن أدفع خمسين سنتاثو أخرى .. فان زجاجة الخمر التى سأقدمها اليك كبيرة »

ثم دس يده مرة أخرى داخل قش الحشية بينما غمز المتسول بعينيه للرجل ذى البذلة الكتانية وهو يقوم فى الهواء بحركة نزع السدادة عن زجاجة الخمر وصبها فى الكأس ..

وقال ابن عم الحاكم وهو يقدم الزجاجة الجديدة لذى البذلة الكتانية : هاهى ذى .. خذها أو اتركها .. »

وأسقط ابن عم الحاكم فجأة عن وجهه قناع التكلف والوفاء المصطنع ، وراح يفرك يديه وهو يقول :

« أن الجو ثقيل مقبض هذه الليلة .. يبدو أن موسم الامطار سيبكر هذا العام .. »

« هل تسمح فخامتك فتشرب كأسا معى نخب تعارفنا ؟ »

« نعم .. نعم .. لا بأس »

وفتح المتسول الباب وطلب من مدير الفندق احضارالكؤوس..

وقال ابن عم الحاكم :

« مضت فترة طويلة أشرب فيها كأسا من الخمر الجيد .. ولهذا لن أجد بأسا فى أن أشرب معك كأسا نخب التعارف »

وقال الرجل ذو البذلة الكتانية :

« هذا شرف يا صاحب الفخامة »

وراح يرقب سدادة الزجاجة وهى تنزع فى قلق ولهفة ثم أردف قائلا :

« اذا سمحت يا صاحب الفخامة فأرجو أن تشرب من البراندى أولا .. »

ثم اغتصب ابتسامة شاحبة وهو يرى مستوى الخمر يتناقص داخل الزجاجة .. ولمس كل منهم كأسه بكأس الآخر ، وجلس ثلاثتهم على السرير .. وكان المتسول يشرب ـ وحده ـ البراندى . وقال ابن عم الحاكم :

« اننى فخور بهذه الخمر .. فهى جيدة النوع .. أحسن مافى كاليفورنيا من مشروبات . »

وغمز المتسول بعينيه للرجل ذى البذلة الكتانية وأشار له بطرف خفى ، فقال لابن عم الحاكم :

« ما رأيك يا صاحب الفخامة فى أن تشرفنى بشرب كأس آخر .. أم ترانى أزكى لك هذا البراندى .. »

« لا .. اذا كان لى ان اشرب كأسا آخر .. فليكن من هـــذه الخمر الجيدة »

وامتلأت الكؤوس مرة أخرى ، وقال ذو البذلة الكتانية :

« لسوف أحمل بعض هذه الخمر معى الى المنزل .. فان أمى مشوقة الى كأس منها »

فقال ابن عم الحاكم وهو يفرغ الكأس فى جوفه :

«انك لن تجد خيرا منها هنا .. اذن فان لك أما »

« وهل هناك من لا أم له »

« انك اذن سعيد .. فأن أمي متوفاه »

وتسللت يده الى الزجاجة وامسكت بها وهو يردف قائلا :

« اني أحيانا أشعر بفراغ الحياة بعدها .. كنت أدعوها : صديقتى الصغيرة »

ثم امال الزجاجة على الكأس وهو يقول :

« بعد اذنك »

فقال الرجل فى صوت ينم عن اليأس وهو يشرب جرعة كبيرة من البراندى :

« طبعا .. طبعا يا صاحب الفخامة .. »

وقال المتسول مشتركا فى الحديث :

« وأنا أيضا لى أم .. »

فصاح به ابن عم الحاكم :

« وماذا يهمنا به »

ثم تراخى فى السرير الذى أرسل صريره فى جو الغرفة ، وعاد يقول بهدوء :

« انى أعتقد دائما أن الأم كصديقة ، أفضل من الاب .. انها بالحب والحنان تستهدف دائما السلام والخير والجود .. وانى أذهب الى قبرها كل عام ، فى ذكرى وفاتها ، واضع عليه باقة من الازهار . »

وحاول الرجل ذو البذلة الكتانية أن يكتم الزغطة . تأدبا . وهو يقول :

« آه .. ليت فى مقدورى أن أفعل هذا .. »

« ولكنك تقول ان أمك على قيد الحياة »

« نعم .. ظننت انك تتحدث عن وفاة جدتك »

« كيف هذا ، انى لا أكاد اتذكر جدتى »

« ولا أنا »

فقال المتسول !

« ولكنى اتذكر انا جدتى »
فقال له ابن عم الحاكم :
« انك تثرثر أكثر مما ينبغى .. »
فقال الرجل ذو البذلة الكتانية :
« هل تسمح فخامتك فأطلب منه تغليف زجاجة الخمر هذه .. يجب الا يرانى بها أحد حرصا على سمعتك .. »
« انتظر .. انتظر .. لاداعى للاستعجال .. انك هنا على الرحب والسعة »
ثم أردف بعد برهة صمت وجيزة :
« كل شىء فى هذه الغرفة تحت أمرك .. اليك كأسا اخر من الخمر .. »
« أظن أن البراندى .. »
« اذن بعد اذنك .. فانى أفضل الخمر الجيدة »
وصب لنفسه بعض الخمر فى كأسه ، وتناثرت قطرات منها على الحشبة ، ثم قال :
« فيم كنا نتحدث »
« عن جداتنا .. »
« لا أظن أن هذا هو مدار حديثنا ..! فأنا لا أكاد أتذكر جدتى .. ولعل أول ما أتذكره فى حياتى .. »
وفتح الباب واقبل مدير الفندق يقول :
« أن مدير البوليس فى طريقه الى هنا .. »
« عظيم جدا .. دعه يدخل .. »
« نعم .. انه رفيق لطيف .. »
« ولكنه غشاش فى لعبة البلياردو »
ووقف بباب الغرفة رجل ضخم الجسم ، يرتدى سترة رسمية خفيفة ، وسراويل بيضاء ، وعلى جانب حزامه جراب مسدس وقال له ابن عم الحاكم مرحباً :
« تفضل .. تفضل بالدخول .. كيف حال أسنانك ؟ لقد كنا

نتحدث عن جداتنا .. »

ثم استدار الى المتسول وقال له بحدة :

« أفسح مجالا للمدير .. »

وظل المدير واقفا فى المدخل يرقب الجميع فى شيء من الارتباك والحيرة ثم قال :

« حسنا .. حسنا .. »

« اننا نستمتع بحفلة صغيرة خاصة .. ومن دواعى الشرف لنا أن تشترك معنا »

واشرق وجه المدير فجأة حين رأى الخمر ثم قال :

« طبعا .. طبعا .. ان قليلا من البيرة لن يضر .. »

« هذا عظيم .. »

ثم أمر المتسول قائلا :

« املأ كأس المدير بالبيرة »

وملأ المتسول كأس المدير بالخمر وقدمها اليه ..

واتخذ المدير مكانه على السرير ، وشرب كأس الخمر فى جرعة واحدة ، ثم تناول الزجاجة بنفسه وهو يقول :

« انها بيرة جيدة .. جيدة جدا .. أهـذه الزجاجة هى كل مالديكم ؟ »

وارتسم القلق الشديدعلى وجهذى البذلة الكتانية وهويقول :

« نعم .. ليس لدينا غيرها .. »

« لا بأس .. »

وقال ابن عم الحاكم :

« والآن .. فيم كنا نتحدث ؟ »

فقال المتسول :

« فى أول ذكرياتك عن الحياة »

فقال المدير بصوت ينم عن السرور والرضى :

« ان أول شيء أذكره فى حياتى »

ثم توقف فجأة وقال مشيرا لذى البذلة الكتانية :

« ان هذا السيد لايشاركنا الشراب »

« لسوف أشرب قليلا من البراندى »

« فى صحتك .. »

« فى صحتك .. »

« ان أول شيء أستطيع أن أتذكره فى حياتى بوضوح هو أول حفلة دينية أحضرها وأنا طفل .. آه .. التأثير الروحى .. وآبائى المحيطون بى »

« كم كان عدد آبائك يومذاك »

« اثنان طبعا .. »

« اذن لم يكن ممكنا أن يحيطا بك .. انك تحتاج الى أربعة للاحاطة بك .. »

« ها .. ها ... »

« فى صحتك .. »

« فى صحتك .. »

« نعم .. كما كنت أقول لكم كم فى الحياة من سخرية ومفارقات .. فلشد ما ألمنى بعد ذلك ان أرى ذلك القس الذى رأس تلك الحفلة الدينية الاولى فى حياتى ، يقتل امامى رميا بالرصاص .. وهو عجوز ضعيف .. واستطيع أن أقول دون خجل انى بكيت .. ولكن عزائى هو أن يكون هذا الشهيد قديسا يصلى لنا ـ نحن أبنائه ـ جميعا ، فليس فى مقدور كل انسان أن يكون له قديس يصلى من أجله ..

« هذه مفارقة عجيبة . »

« ولكن أسرار الحياة لا حد لها »

« فى صحتك .. »

وقال الرجل ذو البذلة الكتانية :

« ألك فى قليل من البراندى يافخامة المدير .. ؟ »

« لم يبق فى زجاجة هـذه الخمر المعتقـة الا القليل ، ولهـذا يحسن ... »

« اننى شديد الرغبة فى ان احمل بعضـا منها لامى . . . »

« أتحمل اليها هذه القطرات المعدودة .. انها اهانة لهـا .. انها قطرات من الرواسب »

ثم أفرغ البـاقى فى الزجاجة فى كأسـه وأرسل ضحكة خفيفة وهو يقول :

« هل خطر لاحد من قبل أنيكون للبيرة .. رواسب و... »

ثم توقف عن الحديث والزجاجة فى يده لاتزال مائلة على الكأس ، وقال فى دهشة للرجل ذى البذلة الكتانية :

« عجبا يارجل !! انك تبكى ؟؟ »

والتفت الرجال الثلاثة نحو ذى البذلة الكتانية ، وراحوا ينظرون اليه بأفواه فاغرة بعض الشىء ، دهشة ، بينما قال هو معتذرا :

« هذا تأثيرها دائما على أعصابى ... أعنى الخمر ... فمعذرة يا سادة ... اننى أسكر بسرعة وعندئذ أرى ... »

« ترى ماذا ؟! »

« أوه .. لا أدرى .. ان كل أمال الحياة تبدأ فى الانحسار و .. والزوال »

« عجبا يارجل .. انك شاعر — »

فقال المتسول :

« ان الشاعر روح الوطن — »

وأرسل البرق وميضة الساطع على النوافذ كأنه أستار بيضاء ، ودوى قصف الرعد فجأة فوق الرءوس ، وارتعش ضوء المصباح الكهربائى بالغرفة ثم انطفأ ، وقال مدير البوليس وهو يسحق احدى الحشرات حين اقتربت من حذائه :

« هذه أخبار سيئة لرجالى »

« لمـاذا ؟! »

«الا ترى ان موسم الامطار قد بكر هذا العام .. ورجـــــالى مشغولون الآن بالمطاردة »

« مطاردة المجرم الامريكى ؟! »

« انه صيد بسيط لايهم .. وانما المهم أن الحاكم اكتشف أن أحد الرهبان لايزال مقيما فى الولاية سرا .. وأنتم تعرفون شعور الحاكم فى حالة كهذه ... لو كان الامر بيدى ، لتركت هذا الراهب البائس وشأنه ، فان مصيره حتما أن يموت جوعا ، أو محموما أو يستسلم .. فليس فى مقدوره أن يفعل شيئا .. لا خيرا .. ولا شرا .. بل ان أحدا لم يفطن الى وجوده الا منذ أشهر معدودة .. »

« اذن عليكم أن تبادروا بالقبض عليه قبل هطول المطر .. »

« أوه .. ليست أمامه أية فرصة للنجاة الا اذا استطاع أن يجتاز الحدود ، وقد ظفرنا أخيرا برجل يعرفه بعد أن رآه وتحدث اليه وقضى معه ليلة كاملة .. هلم نتحدث فى أمر آخر .. فانى أضيق بالحديث فى الشئون البوليسية »

« أين تظنه الآن ؟! »

« لسوف تدهش اذا علمت »

« لمـــاذا ؟! »

« لانه موجود هنا ... فى هذه المدينة أعنى .. وهذا كما ترى استنتاج ، فمنذ أن بدأنا نحتفظ بالرهائن من القرى الريفية ، لم يبق له مجال فى الريف ، فان كل قرية تدفعه بعيدا عنها كلما حاول الالتجاء اليها .. ولهذا أطلقنا وراءه ذلك الرجل الذى يعرفه كأنه كلب بوليسى ، ولسوف يوقع به اليوم أو غدا .. وعندئذ ... »

وعندئذ قال الرجل ذو البذلة الكتانية :

« هل قتلتم عددا كبيرا من الرهائن ..؟! »

« لا .. ليس عددا كبيرا .. ثلاثة أو أربعة .. وقد نتوسع عملية الاعدام اذا لم نعثر عليه أجلا .. حسنا .. هأنذا أشرب آخر قطرة من .. من البيرة »

ثم وضع الكأس الفارغة فى أسف ، والتفت الى ذى البذلةالكتانية وقال :

« والآن أستطيع أن أشترك معك فى الشرب من هذه الزجاجة .. انها سيدرال ، أليس كذلك ؟! »

« نعم .. نعم .. طبعا .. »

« هل التقيت بك من قبل ؟ يخيل لى أن وجهك .. — » .

« أظن أنه لم يسبق لى مثل هذا الشرف »

فقال مدير البوليس وهو يبسط ساقه البدينة التماسا لمزيد من الراحة ومن ثم دفع المتسول الى حديد نافذة السرير :

« وهذه احدى عجائب الحياة .. فأنت تتخيل أحيانا أنك رأيت بعض أشخاص معينين أو بعض أماكن خاصة ... فهل ما رأيته أو تخيلته كان حلما أم قطعة من ذكريات الماضى .. وقد سمعت طبيبا يقول ذات مرة أن الامر لايعدو ان يكون خداعا للبصر .. ولكنه كان طبيبا أمريكيا دهرى المذهب .. »

وقال ابن عم الحاكم :

« أذكر ذات مرة — »

وأرسل البرق وميضا كالصاروخ فوق الميناء ، وقصف الرعد فوق الرءوس ، وهكذا كان الحال دائما فى تلك الولاية .. عواصف فى الخارج ، وفى الداخل يدور الحديث ويدور حول « الروح » و « الاسرار » و « أصل الحياة » ويظل الحديث دائرا بين الجالسين على السرير الحديدى فى الغرفة المظلمة العارية ، لا يعلمون شيئا ، ولا يؤمنون بشىء ، ولا يجدون مكانا أفضل يقضون سهرتهم فيه ..

وقال الرجل ذو البذلة الكتانية :

« أعتقد أنه قد آن لى أن أمضى ..؟ »

« الى أين — ؟ »

فقال فى غموض وهو يلوح بيده نحو عالم من الاصدقاء الوهميين :

« الى .. الاصدقاء »

وقال ابن عم الحاكم :

« يحسن أن تحمل بقية البراندى معك .. فهذا حقك .. لقد دفعت الثمن .. »

« شكرا ياصاحب الفخامة »

وتناول الزجاجة التى لم يكن بها غير ثلاثة قراريط تقريبا من البراندى .. أما زجاجة الخمر المعتقة فقد فرغت تماما ..

فقال ابن عم الحاكم بحدة :

« اخفها يا رجل .. اخفها .. »

« طبعا طبعا يا صاحب الفخامة .. سأحرص على اخفائها »

« لا داعى لان تناديه بلقب صاحب الفخامة »

قال مدير البوليس هذه العبارة وهو يضحك ضحكة عالية ويدفع المتسول من فوق السرير الى الارض .

وغادر ذو البذلة الكتانية الغرفة متسللا فى هدوء وهو يقول :

« لا .. لا .. هذا هو »

وكانت الدموع تنحدر ، من عينيه الحمراوتين الملتهبتين ، وبينما هو يبتعد عن الغرفة كانت الفاظ السر والروح وأصل الحياة تتردد فى حلقة مفرغة خلال الحديث الدائر فى الغرفة ..

....

كانت الخنافس قد اختفت تماما كأنما اكتسحتها مياه الامطار التى كانت تنهمر بقوة وغزارة وانتظام وكأنما هى معاول تدق المسامير الكبيرة فى تابوت ميت . ولكن الهدوء كان رائعا صافيا ، وامتزجت حبات العرق بقطرات المطر على ملابس المارة . ووقف ذو البذلة الكتانية ــ الذى لم يكن احدا غير صاحبنا الراهب ــ فى مدخل الفندق برهة وجيزة ينصت الى خفق المولد الكهربائى وراءه ، ثم وثب بضع خطوات الى مدخل بيت اخر ، وتردد هنية وهو يحدق فى الجزء الاعلى من تمثال القائد فى وسط الحديقة العامة ، وفى الزوارق الشراعية الراسية على شاطىء النهر ، فى سفينة صغيرة قديمة ذات مدخنة من الصفيح المطروق ، . لم يكن ثمة مكان يذهب اليه ، فانه لم يحسب حسابا للمطر المفاجىء ، وانما كان يعتقد ان فى وسعه

أن يهيم على وجهه أثناء النهار ، ثم يبيت لياليه على المقاعد المستطيلة على شاطئ النهر .

ورأى اثنين من رجال البوليس يقبلان فى الطريق المنحدر ، نحو رصيف الميناء وهما يتناقشان بحدة وعنف . وكانا يتركان المطر يتساقط عليهما كأنما الامر لا يعنيهما فى قليل أو كثير ، أو كأنما هذه الامطار ما هى الا مظهر من مظاهر سوء الاحوال . ودفع الراهب الباب الذى كان واقفا بجانبه ، وكان باب أحد النوادى الصغيرة التى يشرب فيها الاهالى المياه الغازية ، ويلعب بعضهم فيها البلياردو .. ودخل الى قاعة صفت على أرفف جدرانها زجاجات المياه الغازية وفى وسطها طاولة البلياردو وقد وقف حولها ثلاثة أو أربعة رجال ، وكان أحدهم قد وضع جراب مسدسه على منضدة الشراب فى جانب الغرفة ، وتقدم الراهب بسرعة جعلته يدفع مرفق رجل كان يوشك أن يطلق عصا البلياردو الى الكرات .. والتفت الرجل هاتفا فى غضب « ما هذا بحق السماء »

وكان واحدا من ذوى القمصان الحمراء ..

يا للفزع !. ألا يستطيع أن يلتمس الامن ، لفترة وجيزة ، فى أى مكان !

وراح يتراجع نحو الباب وهو يعتذر لذى القميص الاحمر فى ذلة وخضوع ، ولكن جيب سترته احتك بالجدار وهو يتراجع بسرعة وصلصلت زجاجة البراندى عند اصطدامها بالجدار . وركز ثلاثة أو أربعة من الموجودين فى قاعة النادى نظراتهم عليه فى خبث واهتمام .. فقد كان فى نظرهم غريبا عن المدينة ، ومن ثم توقعوا أن يضحكوا ويستمتعوا بما سيجرى عليه ..

وقال ذو القميص الاحمر متسائلا :

« ما هذا الذى تحمله فى جيبك .. »

وكان ـ أى ذو القميص الاحمر ـ شابا فى العقد الثالث ، له سن ذهبية ، وفم ينم عن الغرور وحب التسلية على حساب الغير ..

وقال الراهب :

« ليموناده .. »

« ولمــاذا تحمل معك زجاجة ليموناده » »

« لانى سأشربها بعد أن أتناول أقراص الكينين .. »

فتقدم ذو القميص الاحمر نحوه مختالاودفع بطرف عصا البليارد فى جيب الراهب وهو يقول ساخرا :

« ليموناده .. أليس كذلك ؟ »

« نعم .. ليموناده »

« اذن دعنا نرى هذه الليموناده »

ثم استدار نحو الآخرين وأردف قائلا :

« اننى أستطيع أن أشم رائحة مهرب الخمور على مسافة عشر خطوات »

ودس يده فى جيب الراهب وهتف قائلا وهو يرفع بها زجاجة البراندى :

« ها ... ألم أقل لكم .. »

ووثب الراهب بسرعة نحو الباب ، وانطلق كالصاروخ فى الطريق تحت وابل المطر ، وفى الوقت نفسه ارتفع صوت يقول « امسكوه . »

وتحقق للموجودين فى النادى أملهم فى فترة من التسلية والمرح..

وهرع الراهب فى الطريق الصاعد الى ساحة المدينة . ثم انعرج الى اليسار ، ثم الى اليمين ، وكــانت الطرقات ـ لحسن الحظ ـ مظلمة ، والقمر محتجبا وراء السحب ، وكان يدرك انه طالما ظل بعيدا عن الاضواء المنبعثة من النوافذ ، فلن يراه أحد .. وكان فى مقدوره أن يسمعهم وهم ينادى بعضهم بعضا لمطاردته .. فقد وجدوا فى هذه المطاردة تسلية أفضل من لعب البلياردو.. ومن مكان ماانطلقت صفارة رجال البوليس .. ولم يلبث هؤلاء أن انضموا للمطاردين ..

لقد كانت هذه هى العاصمة .. المدينة التى كان يطمح فى أن يصل اليها وهو أسـقف لكتدرائيتهـا ، تاركا رعايا أبراشـينه وراعيها الجديد فى كونسكبيون يسددون ديون مشروعاته الاجتماعية فيهـا

.. لقد راح يفكر فى الكتدرائية .. وفى مونتير .. وفى واد سبق أن رآه وهو ينعطف فى هذا الطريق أو فى ذاك . انه يشعر برغبة كامنة فى أعماقه تدفعه .. انها ارادة الهرب .. وأن هذه الارادة النابعة من الاعماق لتضفى على الموقف كله ظلا موقوتا من المرح المذهل الرهيب .. وضحك ببلاهه وهو يلهث .. وعاد يضحك مرة أخرى .. انه يسمع مطارديه وهم يتصايحون ويصفرون فى الظلام ، وان المطر ليظل فى انهماره بغزارة .. وانه ليتساقط بقوة ويتواثب فوق بلاط قطعة أرض فضاء كانت فيما مضى بناء الكتدرائية « وقد جعلته حرارة الجو غير صالحة للعبة البيولاتا وكانت الاراجيج الحديدية فيها كأنها المشانق » ولم يلبث أن اتخذ طريقه مره أخرى نحو شاطىء النهر .. فقد كانت لديه خطة يريد تنفيذها ..

وازدادت الصيحات اقترابا .. وفجأة سمع جماعة من المطاردين آتين من جهة النهر .. وكان هؤلاء يقومون بالمطاردة فى نظام وترتيب .. وقد أدرك هذه الحقيقة من أصواتهم الخافتة .. وأدرك أيضا انهم من رجال البوليس .. المطاردين الرسميين .. وهكذا وجد نفسه بين فريقين .. المطاردين الهواة ، والمطاردين المحترفين .. وفى نفس الوقت وجد نفسه أيضا أمام باب يعرف صاحبه جيدا .. فدفعه ودخل الى الفناء ثم أغلقه وراءه !

ووقف فى الظلام يلهث وهو يسمع وقع خطوات المطاردين وهم يقتربون فى الشارع .. وكان المطر لايزال ينهمر بغزارة .. وعندئذ شعر كأن شخصا يراقبه من وراء قضبان النافذة ، فرفع عينيه حيث رأى وجها صغيرا مظلما مكمشا كأنه احدى هذه الرؤوس المحنطة التى يشتريها السياح .. واقترب من قضبان النافذة وقال هامسا :

« بادر جوزيه .. ؟ »

وسمع صوتا يقول :

« انه هناك »

ثم رأى وجها آخر يبدو وراء كتف الاول وقد انعكس عليه ضوء

شمعة مرتعش ، ثم وجه ثالث ورابع وكأنما هى نباتات شيطانية تنبثق فجأة ، وشعر بالوجوه جميعا تراقبه وهو يخوض أوحال الفناء الى باب آخر راح يطرقه ..

وفتح الباب وظهر بادر جوزيه .. ولم يتعرف الراهب عليه فى بادىء الامر وهو واقف فى جلباب النوم ممسكا بمصباح ــ فقد رآه آخر مرة فى مؤتمر دينى ، وكان كالمعتاد جالسا فى الصف الاخير ، يقضقض اظافره خوفا من ان يلحظه احد .. وقد كان غير ذى اهمية فى ذلك المؤتمر ، بل لم يكن ثمة أحد من المجتمعين يومئذاك يعرف اسمه .. أما الآن ، فمن العجب العجاب أن يصبح أشهر من أى واحد من اولئك المؤتمرين . قال له وهو يغمز بعينيه فى رفق اثناء وقوفه فى وحل الفناء .

« جوزيه .. »

« من أنت ؟ »

« ألا تتذكرنى ؟ طبعا .. فقد انصرمت أعوام عديدة .. ألا تذكر المؤتمر الذى عقد فى الكتدرائية ؟ »

فهتف يادر جوزيه :

« يا الهى .. »

« انهم يطاردوننى .. وقد خطر لى أنه ربما استطعت أن أختبىء عندك ليلة واحدة ــ »

« لا .. لا .. اذهب .. انصرف عنى »

« انهم لايعرفون حقيقة شخصيتى ، يظنون أنى مجرد مهرب للخمر . ولكنهم فى مركز البوليس سوف يتعرفون على حتما »

« لا ترفع صوتك بالحديث هكذا .. فان زوجتى قد ــ »

فهمس الراهب قائلا :

« أرجوك فقط أن تدلنى على ركن أختبىء فيه .. »

وبدأ يشعر بدبيب الخوف الرهيب يتمشى فى أوصاله .. لاشك أن تأثير البراندى قد شرع ينحسر عنه ومن العسير أن يظل الانسان مخمورا فترة طويلة فى ذلك الجو الحار « فان الكحول لايلبث أن

يخرج من الجسم مرة أخرى مع العرق » أو لعل الرغبة فى الحياة قد عادت تستبد به .. أى نوع من الحياة ؟ ...

وكان وجه بادر جوزيه ، فى ضوء المصباح ، ينم عن الكراهية وهو يقول :

« لماذا تلجأ الى .. ؟ لماذا تظن أننى .... لسوف أستدعى رجال البوليس اذا لم تنصرف .. أنت تعرف أى نوع من الرجال أنا ؟ »

فقال فى ابتهال ورجاء :

« أعرف أنك رجل فاضل ياجوزيه .. كنت أعرف هذا دائما.. »

« لسوف أصيح اذا لم تذهب »

وحاول الراهب أن يتعرف على سر كراهية جوزيه له . وسمع أصوات المطاردين ومناقشاتهم فى الشارع .. ثم اذا هم يطرقون الأبواب .. انهم قرروا تفتيش المنازل ، وأخيرا قال

« اذا كنت قد أسأت اليك ياجوزيه يوما ، فاصفح عنى ، فقد كنت دائما مغرورا ، متكبرا ، متعاليا .. كنت راهبا شريرا ..ولهذا كنت أوقن دائما أنك الرجل الأفضل »

فهمس جوزيه هاتفا به .

« اذهب .. انصرف .. اننى لا أريد أن يستشهد أحد هنا .. اننى لم أعد واحدا منكم .. فدعنى وشأنى .. فانى راض بحالتى هذه .. »

ثم شرع يجمع الحقد فى لعابه ويبصقه على وجه الراهب ، ولكن الرذاذ لم يصل اليه ، وانما تلاشى فى الهواء .. وأخيرا قال

« اذهب ومت بسرعة .. فهذا شأنك »

ثم أغلق الباب فى نفس اللحظة التى فتح فيها باب الفناء الخارجى ودخل رجال البوليس . وفى لمحة خاطفة ، شاهد الراهب ، بادر جوزيه وهو يحدق اليه من وراء قضبان النافذة ،ثم اذا شخص

آخر ضخم الجسم فى ملابس النوم البيضاء يحتويه ويجذبه بعيدا، كأنه روح حارس ، عن معارك البشر الخطيرة .
وصاح صوت :
« هذا هو .. »

وكان صاحب الصوت هو نفسه ذو القميص الأحمر الشاب ، وفى تلك اللحظة الحاسمة ، فتح الراهب قبضة يده ، وترك الورقة تسقط بجانب جدار منزل بادر جوزيه .. الورقة التى كانت تربط ماضيه بحاضره وتزوده بالأمل فى المستقبل . وان تخليه عنها فى تلك اللحظة كأنه التخلى التام عن ماضيه كله ، وعن الأمل فى عودة هذا الماضى ..

كان يعرف أن هذه هى بداية النهاية .. بعد كل هذه السنوات من الكفاح . وانه ليتمتم لنفسه بصلاة الخضوع والتوبة بينما كان مطاردوه يعيدون الى جيبه زجاجة البراندى . ولكنه لم يكن حافلا بما يفعلون ، وكان شعوره فى تلك اللحظة نوعا من المغالطة التى يقع فيها المحتضر وهو يحاول التوبة والندم على فراش الموت .. فالتوبة هى ثمرة الحياة المنظمة الفاضلة لا ثمرة الخوف وحده . وحاول أن يثير الشعور بالخزى والعار فى نفسه وهو يفكر فى ابنته ، ولكنه لم يستطع أن يفكر الا فيما ستلقاه من مصير . أما الخطيئة نفسها فقد صارت قديمة كأنها لوحة تاريخية محا الزمن منها عيوبها ولم يبق فيها الا الرقة والجمال ..

وانتشرت حول الجميع رائحة الخمر ، بعد أن تحطمت الزجاجة على الرصيف ، خفيفة واهنة لانه لم يكن فى الزجاجة غير القليل...
وسار بين آسريه الذين راحوا يعاملونه فى شىء من المودة بعد أن نجحوا فى القبض عليه . وكانوا يعابثونه ويركبونه بالدعابات لمحاولته الهرب من تهمة بسيطة كهذه . أما ذو القميص الاحمر الذى كان السبب فيما حدث ، فلم يشترك فى دعاباتهم . ولم يستطع الراهب

أن يجيب على أسئلتهم العابثة ، أو يستجيب لمزاحهم ، لان غريزة حب البقاء كانت تغلف عقله كأنها كابوس رهيب ، ترى متى سيكتشفون حقيقته ، ومتى سوف يلتقى بالرجل المولد ذى النابين الاصفرين ، أو بضابط البوليس الذى أستجوبه فى تلك القرية ..!

كانوا جميعا يصعدون ببطء فى الطريق المؤدى الى الساحة . وسمع صرير بندقية على الارض أمام مركز البوليس وهم يقبلون عليه ، وشاهد مصباحا صغيرا يتصاعد الدخان من ذبالته وهو معلق بالقرب من الجدار القذر المطلى بالجير .. وفى فناء مركز البوليس شاهد شبكات السرر المعلقة المترجحة وهى تضم بين جوانبها أجسام النائمين كأنها الشباك التى تعلق فيها الدجاج .

وقال أحد الرجال من حوله :

« يمكنك أن تجلس هناك .. »

ثم دفعه فى شىء من المودة نحو مقعد خشبى ، وشعر ان القضاء قد حم الآن ولا سبيل الى رده . فهاهو الحارس يروح ويجىء أمام باب المركز .. وهاهو ذا غطيط النائمين فى السرر المعلقة ينتشر فى جو الفناء .

وسمع صوت شخص يتحدث اليه ، فقال فى استسلام وهو يفغر فاه :

« ماذا ؟ ! »

وبدا له ان ثمة جدلا عنيفا يجرى بين ذى القميص الاحمر ، واحد رجال البوليس ، عن احتمال ازعاج أحد الرؤساء فى تلك الساعة ، فقد كان ذو القميص الاحمر يكرر هذه العبارة قائلا :

« ولكن هذا واجبه ؟ »

ثم أردف يقول وقد بدت أسنانه القواطع كأسنان الارنب :

« لسوف أرفع تقريرا الى الحاكم »

وقال أحد رجال البوليس المراهب :

« انك معترف بذلك .. أليس كذلك ؟ »

« نعم ... »

فاستدار رجل البوليس الى ذى القميص الاحمر وقال :

« ماذا تريد أكثر من هذا الاعتراف ! ان الحكم لن يتجاوز غرامة خمس بيزات ، فلم نزعج أحدا فى مثل هذه الساعة ؟ »

« ليس هذا من شأنك »

وعندئذ قال الراهب فجأة :

« لن يحصل عليها أحد .. »

« لا أحـد ؟ ؟ »

« ان كل ما أملكه فى دنياى هو مبلغ خمسة وسبعين سنتاثو .. »

وفتح باب احدى الغرف الداخلية ، وظهر فيه ضابط البوليس الذى قال وهو يتقدم نحو المجتمعين :

« ما هذه الضجة بحق الله ؟ »

وانتصب رجل البوليس فى وقفته ـ رغما منه ـ بينما قال ذو القميص الاحمر للضابط :

« قبضت على هذا الرجل متلبسا بحمل زجاجة خمر .. »

وجلس الراهب مطرقا برأسه الى الارض يتمتم فى دعاء التـوبة والندم « لانه تعذب .. تعذب .. تعذب .. » وارتج عليـه ، فلم يستطع أن يتم الدعاء لفرط شعوره بالخوف ..

وقال الضابط :

« حسنا .. وما شأنك أنت بهذا ؟ اننـا نقبض على عشرات من أمثـاله ! »

فقال أحد الرجال :

« هل نأتى به الى مكتبك ؟ »

والقى الضابط نظرة على وجه الراهب الشاحب الغائر الوجنتين وقال آمرا :

« قف .. »

ووقف الراهب وهو يقول لنفسه « الآن .. انتهى كل شيء »
ورفع عينيه .. ولكن الضابط كان مشيحا بوجهه نحو باب المركز حيث كان الحارس يروح ويجيء ، وكان وجهه الملوح الحاد ينم فى تلك اللحظة عن الضجر والرغبة فى الانفجار .

وفجأة صاح بالحارس :

« ياالله السماء .. الا يمكن أن تتعلم .. »

ثم سار بضع خطوات نحو الحارس ، ثم استدار وقال :

« فتشوا الرجل ، فاذا لم يكن معه نقود ، ائتوا به فى السجن ، واعهدوا اليه بعمل يؤديه .. »

ثم مضى الى خارج الباب ورفع يده فجأة واهوى بها فى صفعة شديدة على أذن الحارس وهو يقول :

« انك نائم على نفسك .. سر يا رجل كأن بين جنبيك بعض الكبرياء »

وكرر الصفعة والحديث مرة أخرى ، بينما ظل المصباح البترولى يرسل دخانه على الجدار القذر المطلى بالجير ، ورائحة دورة المياه تنتشر فى الجو ، وغطيط النائمين يعلو وهم منطورن فى شباك السرر المعلقة ..

وقال جاويش :

« هل نسجل اسمه ؟ »

فقال الضابط دون أن ينظر اليه وهو فى طريق العودة الى الفناء .

« نعم .. طبعا .. »

ووقف برهة فى العراء يتلفت حوله والمطر يتساقط على ملابسه الرسمية الخفيفة وكان يبدو فى مظهر الرجل الذى يستبد بذهنه شيء .. وكأنما يسيطر عليه انفعال نفسى خفى مؤلم حطم رتابة حياته .

وعاد الى غرفة مكتبه .. فهو لايستطيع ان يهدأ فى مكان واحد ..

ودفع الجاويش بالراهب الى غرفة داخلية ، يضيئها مصباح بترولى كبير ، وعلى جدرانها المطلية بالجير علقت صورة فتاة مولدة سمراء فى ملابس السباحة تعلن عن نوع من المياه الغازية وثمة عبارة مكتوبة بالقلم الرصاص ، وبخط جميل ، تقول انالانسان لا يملك فى الحياة ما يفقده الا .. قيوده ..

وقال الجاويش وهو يجلس الى المكتب :

« اسمك .. ؟ » :

ووجد الراهب نفسه يقول فجأة قبل ان يراجع نفسه :

« مونتيز .. »

« محل اقامتك ؟ »

وذكر اسم قرية نائية .. وقد كان فى تلك اللحظة مشغولا بالنظر الى صورته المعلقة على الجدار .. انها تمثله وهو جالس بين النساء والفتيات فى ملابسهن الحريرية البيضاء أثناء احد الاحتفالات الدينية وكان ثمة شخص مجهول قد رسم حول وجهه فى الصورة دائرة ليميزه عن الغير .. وكانت هناك صورة اخرى على نفس الجدار .. صورة المجرم الامريكى الهارب من سان انطونيو بولاية تكساس والمتهم بجرائم القتل والسرقة .

وقال الجاويش فى حذر :

« أعتقد أنك اشتريت هذه الخمر من رجل غريب ؟ »

« نعم .. »

« من رجل لا تعرفه ولا تستطيع أن تتعرف عليه » .

« نعم .. »

فقال الجاويش مؤيدا :

« هذا ما يحدث عادة .. »

وكان الواضح انه يريد ان يفضى بشىء . وامسك بالراهب فى شىء من المودة ـ وسار به عبر الفناء وهو يمسك فى يده الاخرى مفتاحا ضخما . وتحرك بعض الراقدين فى السرر المعلقة .. وبدا من

بينهم جانب من وجه كبير حليق كانه شيء تبقى بلا بيع فى دكان جزار . واذن كبيرة مقطوعة، وساق عارية سوداء الشعر . ترى متى سيظهر له وجه الموزتيزو « الرجل المولد » وهو يسطع بالبهجة بعد التعرف عليــه ؟ . . .

وفتح الجاويش بابا صغيرا محصنا بقضبان الحديد ، ودفع بقدمه جسما مكوما على المدخل ، وهو يقول :

« انهم هنا رفاق طيبون ــ رفاق طيبون . . »

وراح يشق طريقه بالحذاء بين الكتل البشرية المكومة . . وكان الجو فى الزنزانة مفعما برائحة رهيبة ، ومن مكان ما فى ظلامهـــا سمع انين الباكين .

ووقف الراهب برهة فى المدخل يحاول أن يمد بصره فى الظــلام الكثيف الذى بدا له كانه يتململ ويتحرك . . وتمتم أخيرا يقول :

« انى شديد الظمأ . . الا أحصل على بعض الماء » .

وانسابت الرائحة الكريهة المفزعة الى منخريه فاذا هو يشـــعر بغثيان شديد .

وقال الجاويش مجيبا على سؤاله :

« ستشرب المــاء فى الصباح . . ويكفى ما شربت الليلة مــن الخمر . . »

ثم وضع كفه الضخم على ظهر الراهب ، ودفع به فى قوة الى الداخل ، واغلق الباب . ووضع الراهب وجهه على قضبان البــاب الحديدية وقال فى لهجة فزع واحتجاج :

« ان الغرفة هنا مزدحمة . . ليس فيها موضع لقدم . . من هم المزدحمون فيها ؟ »

وسمع فى الخارج ، من بين السرر المعلقة ، ضحكة الجاويش وهو يقول له :

« أيها المتشرد . . ألم يسبق أن قضيت ليلة فى السجن ! »

. . . .

الفصل الثالث

. . . . . .

وسمع صوتا يقول عند قدميه :

« هل معك سيجارة ؟ »

فتراجع بسرعة وهو يدوس فوق ذراع ، بينما ارتفع صوت آخر في لهجة آمرة

« اسقنى . . بسرعة »

وكانما اراد صاحب الصوت الامر ان ياخذ هذا الغريب على حين غرة ويجعله يقدم ما قد يكون معه من ماء .

« هل معك سيجارة ؟ »

« لا . . ليس معى شيء قط . . »

وخيل اليه أنه يشعر بالكراهية تتصاعد حوله كأنها سحابة من الدخان . وتحرك ثانيا من مكانه ، وقال أحدهم .

« حذار أن تصطدم بالجردل ! »

اذن ، فمن هذا الجردل كانت تتصاعد تلك الرائحة الكريهة . وتسمر واقفا في موضعه حتى تعتاد عيناه الظلام . وكان المطر في الخارج قد بدأ يتوقف اذ كانت قطراته تتساقط رذاذا ، وابتعد دوى الرعد ، وأصبح في مقدوره أن يعد « أربعين » فيما بين ومضة برق واخرى . . ومعنى هذا ، كما تقول الخرافة ، ان البرق قد ابتعد اربعين ميلا . . اى نصف المسافة الى البحر ، او الى الجبال . .

وشرع يتحسس المكان حوله بقدمه ، آملا أن يجد مكانا يتسع لجلوسه ، ولكن بدأ له أنه لن يجد مكانا للجلوس قط . وعندما كان

البرق يومض ، كان فى مقدوره أن يرى من خلال قضبان الباب ، السرر المعلقة فى الفناء .

وقال صوت عند قدميه :

« ألديك شىء يؤكل .. »

فلما لم يجب ، كرر الصوت السؤال ، فقال مجيبا :

« لا . . »

وقال صوت آخر :

« هل معك نقود ؟ »

« لا . . »

وسمع فجأة ، على مسافة خمسة أقدام داخل الزنزانة صيحة خافتة لامرأة .

وقال صوت ثالث ينم عن الاعياء والضجر :

« ألا يمكن أن تلزموا الصمت ؟ . . »

وظل الراهب يسمع ، فى طيات الظلام ، وخلال الرائحة الكريهة الاخاذة ، حركات مريبة لم يستطع ان يفهم معناها . ومرة اخرى وضع قدمه خطوة ، وراح يشق طريقه ، بوصة بعد بوصة ، بعيدا عن الباب ، وكان يعلو فوق الاصوات البشرية صوت آخر .. منتظم رتيب ، كأنه آلة صغيرة ، أو جهاز كهربائى ضبط على نغمة خاصة .. انه صوت كان يملأ فترات السكون ، ويعلو فوق صوت الانفاس الآدمية .. انه طنين البعوض ..

وابتعد عن الباب الى الداخل نحو ست اقدام ، وابتدأت عيناه تتبينان الرؤوس الآدمية . . لعل السحب قد انقشعت عن صفحة السماء . . ان الرؤوس تبدو فى طيات الظلام كأنها ثمار القرع الكبير .

وقال صوت :

« من أنت .. !؟ »

ولم يجب .. فقد كان يشعر بالفزع يدب فى صدره مرة أخرى ، وفجاة وجد نفسه يصطدم بالجدار الخلفى للزنزانة ، وكانت حجارته

تحت يده مبللة لزجة .. وادرك ان طول الزنزانة لايزيد على عشرين قدما .. ولم يجد مكانا يستطيع الجلوس فيـه بشىء من الراحة ، فلم يسعه الا ان يجلس القرفصاء وقد طوى ساقيه تحت فخذيه ، وشعر برجل عجوز يتوكأ برأسه على كتفه ، وقد استنتج عمره من خفة عظامه ، ومن أنفاسه الواهنة اللاهثة .. فقد كان كأنه مخلوق يوشك أن يدخل الحياة أو يخرج منهـا ، ولم يكن معقولا أن يضم هذا المكان طفلا وليدا ....

وفجأة قال الرجل العجوز للراهب :

« اهذه انت ياكاترينا »

ثم تلاشى صوته فى زفرة طويلة صابرة كأنما هو قد ظل ينتظر فترة طويلة ولا يزال على استعداد للانتظار فترة أخرى ..

وقال الراهب :

« لا .. لست كاترينا .. »

وصمت كل من فى الزنزانة عندما تحدث .. انهم يرهفون السمع كأنما لحديثه أهمية خاصة . ولما صمت ، عادت الاصوات والحركات الى ما كانت عليـه . وشعر بشىء من الراحة عندما سمع صوته الخاص وحين تبادل الحديث مع جار ..

وعاد العجوز يقول :

« من المستحيل أن تكون أنت كاترينا .. وأنا أعرف هـذا فى الواقع .. لانها لن تعود .. »

« أهى زوجتك »

« ما هذا الذى تقول .. ؟ اننى غير متزوج »

« اذن من تكون كاترينا ؟ »

« انها ابنتى .. »

وكان كل من فى الزنزانة يرهفون السـمع فيما عدا أولئـك المشغولين بأنفسهم عن كل شىء . وقال الراهب :

« لعلهم لا يسمحون بوجودها معك هنا »

« انها لن تحاول اطلاقا .. »

وكان يتحدث بصوت ينم عن اليأس واليقين التام . وشعر الراهب ببدء الالم فى ساقيه المنطويتين تحته وهو يقول :

« اذا كانت تحبك — »

وقطع حديثه فجأة حين سمع تلك الحركة المريبة التى لا يفهم معناها تصدر مرة اخرى من ركن الزنزانة .. اما الرجل العجوز فقال:

« ان القساوسة هم المسئولون عما حدث .. القساوسة .. »

« القساوسة ؟ »

« نعم القساوسة .. »

« ولماذا القساوسة ؟ »

« انهم القساوسة .. »

وسمع صوتا خافتا بجانب ركبتيه يقول :

« ان هذا العجوز مخبول ، فما جدوى القاء الاسئلة عليه ؟ »

وعاد العجوز يقول حين سمع نبرات الصوت الجديد :

« أهذه أنت يا كاترينا ؟ اننى فى الواقع لا أصدق أنك أنت ، كما تعرفين — ولكنه مجرد سؤال .. »

وقال صاحب الصوت الغامض :

« لقد وجدت الآن سببا أشكو منــه .. ان واجب الرجل أن يحمى عرضه ، وأنت تعترف بهذا .. أليس كذلك ؟! »

« اننى لا أعرف شيئا عن الشرف »

« لقد كنت فى النادى عندما جاءنى الرجل الذى أحدثك عنــه وقال لى ان أمى بغى ، ولم يكن فى وسعى أن أفعل له شيئا .. فقد كان يحمل مسدسه . وكل ما استطعت أن أفعله هو أن أنتظر .. وكان يسرف فى شرب البيرة . . وأنا كنت اعرف انه سيسرف فى الشرب تلك الليلة .. وعندما غادر النادى يترنح ، سرت وراءه ،

وكانت معى زجاجة حطمتها على جدار .. أترى .. ! لقـد جعلت منها سلاحا لانى لم اكن احمل مســـدسا .. ولولا انه كانت لاسرته علاقة وطيدة بمدير البوليس لما كنت أنا هنا الان »

« انه لشىء فظيع أن يقتل الانسان انسانا »

« انك تتحدث كأنك راهب أو قس »

فقال الرجل العجوز :

« انهم القساوسة .. هم المسئولون ، وأنت محق فيما تقول »

« ماذا تراه يعنى ؟ »

« وماذا يهمك مما يعنيه رجل عجوز كهذا ؟ اننى أحب أنأخبرك عن شىء آخر »

وقال صوت امرأة فى الظلام :

« انهم أخذوا الطفلة بعيدا عنه »

« لمـــاذا .. »

« لانها ابنة غير شرعية ... وحسنا فعلوا .. »

وشعر بقلبه يخفق فى حنين موجع وهو يسمع كلمة « ابنة غير شرعية » وكأنما هو رجل يحب أن يسمع رجـــلا آخر ينطق باسم زهرة ينطبق اسمها على اسم حبيبته .

« ابنة غير شرعية » ان هذه الكلمة تفعم قلبـــه بلون عجيب من السعادة الحزينة ! انها تزيد ابنته قربا منه .. وانه ليتخيلها كمـــا كانت جالسة تحت الشجرة بجانب أكوام القمامة ، وحيدة . بغير حام أو راع ، وردد كلمة « ابنة غير شرعية » وكأنما يردد اســـمها فى حنـــان ..

وقالت المرأة مستطردة :

« قالوا انه والد غير صالح لرعاية الطفلة ، ولكن ، عندما هرب القساوسة والرهبان ، اضـــطرت الطفلة للحياة معه ، والا أين كان يمكن أن تذهب .. ؟ »

وشعر الراهب بأن عبارة المرأة الاخيرة كالنهاية السعيدة ، ولكنها أردفت قائلة :

« على أن الطفلة شعرت نحوه بالكراهية ـ طبعا ـ فقد كان رجال الدين يحسنون تعليمها وتهذيبها وتبصيرها بشئون الحياة »

وخيل المراهب أن هذه المتحدثة امرأة صغيرة الفم مثقفة .. ترى ماذا تفعل هنا ؟

وسأل قائلا :

« وما الذى جاء به الى السجن ؟ ؟ »

« لقد ضبط وهو يحمل صليبا صغيرا بين ملابسه »

وكانت الرائحة المتصاعدة من الجردل تزداد خبثا طوال الوقت .. وكان ظلام الليلة يحيط بهم كالسياج الحجرى ، لا منفذ فيه ، وسمع شخصا يبول فى الجردل محدثا فى جوانبه المعدنية رنينا كريها . وقال الراهب :

« لم يكن من شأن رجال الدين أن يؤلبوا الطفلة على أبيها .. »

« لقد فعلوا ما حتمه الواجب عليهم .. فقد كانت ابنة غير شرعية ، ومعنى هذا أنه ارتكب خطيئة كبرى .. »

« ليس من واجبهم أن يعلموا الابنة كيف تكره أباها على كل حال »

« انهم أدرى بما يجب ومالا يجب »

فقال بحماس :

« لا شك أنهم كانوا رجال دين أشرارا حين فعلوا هذا .. لقد ارتكب الخطيئة وانتهى الامر ، وكان الواجب عليهم أن يعلموها ... الحب ـ لا الكراهية ! »

« أنت لا تعرف ما هو الواجب .. ولكن رجال الدين يعرفون »

وبعد برهة من التردد ، قال بصوت واضح :

« اننى أحد رجال الدين .. راهب .. »

وهكذا كانت النهاية .. لم يعد فى حاجة ليتشبث بأهداب الامل بعد الآن . ان عشر سنوات من مطاردة البوليس له قد انتهت أخيرا .. وانه ليشعر بالسكون التام مخيما حوله ، وانه ليحس أن هـذا المكان يشبه العالم تماما ، فهو مزدحم بالمطـامع والجـرائم والحب الخبيث .. انه القنطرة الى السماء ، ولكنه أحس ، رغم هذا ، أن من الممكن أن يجد الراحة فيه .. راحة اليـأس ، ما دام الوقت الباقى من حياته قد غدا قصيرا للغاية .

وقالت المرأة أخيرا :

« راهب .. ؟ ؟ »

« نعم .. »

« وهل يعرف رجال البوليس هذا ؟ »

« لم يعرفوا بعد »

وشعر بيد تمسك بكم سترته ثم سمع صوتا يقول :

« ما كان لك أن تذكر هذه الحقيقة هنا يا أبى .. فان فى هـذه الحجرة كل أنواع القتلة والمجرمين ـ »

وارتفع صوت الرجل الذى وصف جريمة القتل التى ارتكبهـا ببقايا الزجاجة قائلا :

« ليس من حقك أن تشتمنا .. ان ارتكابى جريمة قتل رجل لا يعنى أنى ـ »

وابتدأ الهمس فى كل مكان بينما أردف صاحب الصوت يقول بمرارة :

« اننى لست خائنا أو واشيا رغم انى قتلت الرجل الذى سب امى فى عرضها »

وقال الراهب :

« لن يكون أحدكم فى حاجة لان يشى بى أو يخبر عنى ، فانهـا خطيئة كبرى طبعا .. ولكن عندما يسفر الصباح فسوف يتعرفون على بأنفسهم .. »

وقالت المرأة :

« هل سيعدمونك رميا بالرصاص يا ابى »

« نعم .. »

« وهل أنت خائف ؟ »

« نعم .. طبعا .. »

واشترك فى الحديث صوت جديد آت من ركن الحركات المريبة، فقال صاحبه فى خشونة وتحد :

« ان الرجل لا يخاف شيئا كهذا »

فتساءل الراهب قائلا :

« أحقــا ؟ »

« نعم .. انه شعور سريع قصير بالالم ... ماذا تتوقع غير هذا ؟ كل انسان معرض له يوما »

« ولكننى مع هذا أشعر بالخوف »

« ان وجع الاسنان أقسى من وجع الموت »

« ليس فى مقدورنا أن نكون جميعا رجالا شجعانا »

فقال الصوت فى لهجة تنم عن الاحتقار :

« هكذا أنتم جميعا أيها المؤمنون .. الايمان يجعلكم جبناء . »

« نعم .. قد تكون على صواب .. فأنا ـ كما ترى ـ راهب شرير .. ورجل غير فاضل »

ثم أرسل ضحكة خفيفة وهو يردف قائلا :

« ان موت الانسان وهو مرتكب خطيئة كبرى يدعو الى التامل والتفكير والخوف »

فقال الصوت فى لهجة انتصار كأنما استطاع أن يقيم الدليــل على شىء :

« ها أنت ذا تثبت ما أقول .. ان الايمان يثير الجبن فى الانسان »

« وماذا بعــد ؟ »

« خير لى ألا أكون مؤمنا ـ وأن أكون شجاعا »

فقال الراهب فى صوت ينم عن السخرية الخفيفة :

« آه .. فهمت .. فأنت تستمد شجاعتك من عدم الايمان .. ولا شك أن شجاعتك هذه تبلغ الذروة اذا أوهمت نفسك أن حاكم الولاية لا وجود له ، وأن هذا السجن ليس سجنا ، وانما قطعة من الجنة ! »

« هذا لغو فارغ .. »

« ولكن احساسك بالشجاعة سيختلف اذا ايقنت ان الحاكم مقيم فى قصره بالميدان ، وأن هذا السجن سجن حقا .. انك فى هذه الحالة لاتستطيع أن تفعل ماتشاء خوفا من بطش الحاكم . . . »

« لا يستطيع أحد أن يزعم أن هذا السجن ليس سجنا »

« أحقا ؟ يبدو اذن أنك لا تؤمن بما يقوله رجال السياسة »

وكانت قدماه تؤلمانه اشد الالم وهو جالس القرفصاء لايستطيع ان يخفف الضغط على اعصابهما لضيق المكان . وكانت الساعة لم تبلغ بعد منتصف الليل ، وكان الليل يمتد أمامه الى غير نهاية ..

وقالت المرأة فجأة :

« من كان يتصور أنه يكون بيننا هنا .. شهيد قديس ؟! »

وأرسل الراهب ــ رغما عنه ــ ضحكة خفيفة بلهاء ثم قال :

« لا أعتقد أن القديسين الشهداء على هذا النمط .. »

وتوقف عن الحديث برهة حين تذكر فجأة كلمات ماريا : وهى أنه لا يجوز أن نجعل الشهداء والقديسين موضع الضحك والتندر بانضمامه اليهم .. ومن ثم قال بلهجة جادة :

« ان الشهداء رجال بررة أتقياء متدسون .. ومن الخطأ الكبير أن يطلق اسم الشهيد على كل من يموت فى ظروف كهذه .. لا .. فانى أقول لك انى ارتكبت الخطيئة الكبرى ، واقترفت من الآثام مالا أستطيع أن أذكر بعضها لك .. وانما أستطيع فقط أن اهمس بها فى اثناء الاعتراف أمام راهب آخر »

وكان الجميع ، وهو يتحدث ، ينصتون اليه وكأنما هو يتحدث

اليهم من محراب الكنيسة ، وكان يتساءل فى نفسه : ترى من منهم سيقوم غدا بدور يهوذا ــ الخائن الابدى ــ ولكنه لم يكن حافلا بالامر ، كما لم يحفل به وهو فى الكوخ مع « المولد » ذى الشاربين . وانما كان يشعر بعاطفة قوية من المودة والتراحم نحو زملائه فى هذا المكان . وومضت فى ذهنه عبارة ان « الله رحمن رحيم يحب هذا العالم »

وعاد يقول :

«يجب ياابنائى الا يخطر ببالكم ان الشهداء رجال امثالى فأنتم تطلقون على اسما خاصا .. نعم .. فقد سمعتكم تذكروننى به كثيرا من قبل .. انكم تسموننى الراهب السكير ... وقد جئت الى هذا السجن لانهم عثروا معى على زجاجة خمر .. »

وحاول أن يحرك قدميه من تحت ساقيه ، ولكنه شعر بذلك الخدر الشديد الذى أفقده كل شعور بهما .. ولم يحفل كثيرا بخدر قدميه .. فلسوف يفقد كل شعور بالحياة نفسها بعد ساعات ..

وغمغم الرجل العجوز بكلمات مبهمة .. وارتد هو ــ الراهب ــ بذاكرته الى ابنته بريجيتا . فقد كانت محن الحياة مركزة فى قلبها كأنها البقعة السوداء ــ التى لا تفسير لها ــ فى شريط مصور بأشعة « اكس » . وشعر بحنين شديد ــ جعل أنفاسه تلهث ــ للعمل على انقاذها .. ولكنه كان يعرف القرار النهائى للطبيب : أنه لا أمل فى النجاة . .

وعاد صوت المرأة يقول فى لهجة دفاع :

« هل وجدوا معك قليلا من الخمر يا أبى ؟ ان هذا ليس بالامر الخطير .. »

وتساءل فى نفسه عن سبب وجود هذه السيدة فى السجن .. لعلهم عثروا فى بيتها على صورة دينية مقدسة . فان نبرات صوتها تنم عن تدينها وتقواها .. وأمثالها من الاتقياء المتدينين يقيمون بحماقة وزنا كبيرا للصور الدينية .. لماذا لا يحرقونها ! فان ايمان

القلب فى غير حاجة الى الصور والمظاهر .. وقال فى حزم ردا على حديثهـــا :

« أوه اننى لست سكيرا فقط .. »

وكان دائما يشعر بالقلق على مصير النساء المتدينات .. فانهن - كرجال السياسة - يعشن على الغرور والوهم . انه طالمـا شعر بالخوف من أجلهن . . فانهن يستقبلن الموت دائما بسرور عجيب لا يتهير .. لا أثر فيــــه للمعنى الحقيقى للخوف من الله .. وهو الخوف النابع من فرط الحب . ولهذا كان يشعر أن واجبه - كلما استطاع - أن يسرق منهن ذلك الشعور الوهمى بحقيقـــة الخير والفضيلة . ومن ثم قال بصوت جاف :

« ان لى ابنـــة »

يا لها من امرأة كلها التقوى ! ان صوتها ينم عن الدفاع المستميت عنه وهى تسترسل فى حديث غامض تبين منه عبارة «اللص التائب» ، فقـــال لها :

« يابنتى .. ان اللص قد ندم وتاب .. أما أنا فلم أتب .. »

وعاد بذاكرته الى ابنته وهى تدخل الكوخ ، بنظراتها الزاخرة بخبرة الحياة ، والشمس الغاربة تسطع على ظهرها .. واستطرد يقـــول :

« ولست ادرى كيف اتوب »

وكانت تلك حقيقة ثابتة .. فقد فقد القدرة على التوبة . انه غير قادر على أن يزعم لنفســـه انه يتمنى لو أنه لم يرتكب هــــذه الخطيئة أبدا .. لانه أصبح يحب - ابنته - وهى ثمرة الخطيئـــة دون أن يحفل بالخطيئة ذاتها على مرور الزمن ..

لقد كان فى أشد الحاجة الى زميل له ليعتـــرف بـــين يديه ، لان الإعتراف سيدفع بتفكيره شيئافشيئا الى هذه المرات الملوثة المؤدية الى الفزع ، والخوف ، ثم الشعور بالندم والرغبة فى التوبة . .

ان المرأة صامتة الآن : وانه لايدرى هل كان خشنا فى حديثـــه

معها اكثر مما ينبغى ؟ هل كان من المحتمل ان يتضاعف ايمانها او أنها أعتقدت بأنه قديس شهيد ؟ انه يطرد هذا الاحتمال من ذهنه . حيث ينبغى أن يلزم الانسان جانب الحق والصدق على الدوام . وتململ قليلا فى جلسته المرهقة ثم قال :

« فى أية ساعة يسفر الصباح ؟ »

فقال أحد الرجال :

« فى الرابعة ، فى الخامسة .. أنى لنا أن نعرف يا أبى وليس لدينا ساعة ؟ »

وهل مضى عليك وقت طويل هنا ؟ »

« ثلاثة أسابيع »

« أيبقونكم فى هذا المكان طيلة الوقت ؟ »

« أوه .. لا .. انهم يرغموننا على تنظيف الفناء والزنزانات »

وقال لنفسه : اذن هذا هو الوقت الذى سيكشفون فيه عن حقيقتى ، هذا اذا لم يتعرفوا على فى وقت أسبق ، فليس من شك فى أن أحد هؤلاء النزلاء سيشى به بمجرد أن يفتح الباب فى بكور الصباح . وراحت الخواطر تنساب فى ذهنه حتى وجد نفسه يقول للنزلاء جميعا :

« ان هناك جائزة لمن يرشد عنى .. خمسمائة أو ستمائة بيزة .. لا أدرى على التحديد .. »

ولزم الصمت مرة أخرى .. فانه لم يستطع أن يتمادى أكثر من هذا فى اغراء هؤلاء النزلاء للارشاد عنه .. فانه لو فعل .. أى لو تمادى فى اغرائهم للوشاية به . لبلغ حد ارتكاب الخطيئة . . ولكنه رأى — فى الوقت نفسه — أنه لايوجد أى سبب يدعو لحرمان أحد هؤلاء النزلاء من الجائزة اذا كان فى عزمه أن يرشد عنه .. حقا ان الوشاية به احدى الكبائر .. فى مستوى واحد مع جريمة القتل .. وهى الجريمةالتىتغتفر فى هذا العالم عن طريقالاعتراف أو التوبة .. وقطع عليه تسلسل أفكاره صوت يقول :

« لايوجد هنا أحد يريد مالا ملوثا بالدماء .. »

ومرة أخرى أحس نحو هؤلاء النزلاء بارتباط عاطفى قوى .. انه مجرد مجرم بين قطيع من المجرمين .. وانه لاول مرة فى حياته ليحس بمشاعر من حسن المودة والصحبة نحو هؤلاء الرفاق ، لم يشعر به نحو المتدينين الذى كانوا يقبلون ـ بخشوع ـ يده الموضوعة فى قفاز قطنى ..

وانطلق صوت المرأة التقية نحوه فجأة وهى تقول :

« من الحماقة البالغة ان تقول هذا ياابى لهؤلاء الناس ... انك لاتعرف أى نوع من الحثالة البشرية فى هذا المكان . . لصوص . . وقتلة » .

فقاطعها صوت يقول بغضب :

« حسنا ، وأنت ؟ لماذا أنت هنا .. ؟ »

فأعلنت قائلة بصوت ينم عن الكبرياء والتعالى :

« لقد ضبطوا فى بيتى كتبا دينية » .

وتبين الراهب انه لم ينجح فى زلزلة كبريائها وغرورها الدنى ومن ثم قال :

« انهم فى كل مكان .. وليس هنا فقط »

« الكتب الدينية المهذبة !»

فارسل ضحكة خفيفة وقال :

« لا لا .. اعنى اللصوص والقتلة .. اه .. حسنا يابنى ... لو كان لك مزيد من تجارب الحياة لادركت ان العالم ملىء بما هو أسوأ وأكثر شرا »

وكان الرجل العجوز قد راح فى نوم غير مريح وهو معتمد برأسه على كتف الراهب ، وكان يتمتم فى أثناء نومه بعبارات غامضة غاضبة .. وقد كان الراهب يجد من العسير عليه أن يتزحزح أو يتململ فى مكانه ليخفف من الضغط المؤلم على ساقيه وقدميه ، فاصبح الامر اشد عسرا بعد نوم الرجل العجوز على كتفه . فهو

لا يستطيع أن يحرك كتفه خشية ان يستيقظ العجوز ليواجه الحقيقة المؤلمة طوال الليل .. وقال لنفسه معزيا « حسنا .. لقد كان زملائى من رجال الدين هم الذين حرموه من ابنته غير الشرعية .. فلا أقل من ان أهيىء له قليلا من الراحة » .

وظل ساكنا ، وهو جالس القرفصاء بجوار الجدار الرطيب ، وقدماه المخدرتان من فرط الالم تحت فخذيه . . وظل البعوض مسترسلا فى طنينه وهجماته الدامية .. ولم يكن ثمة جدوى فى مقاومته بضربه فى الهواء .. فقد كانت أسرابه تملأ المكان كأنها أحد عناصر الهواء .. ويبدو ان شخصا آخر راح – كالعجوز – فى النوم ، وارتفع غطيطه فى جو المكان ، وكانما المسكين قد أكل حتى شبع وشرب حتى ارتوى فى حفلة فاخرة ، ثم نام ليستريح !

وحاول الراهب أن يتعرف على الوقت : كم مضى عليه منذ التقى بالمتسول اول مرة فى الساحة ! من المحتمل أن يكون الوقت الان حوالى منتصف الليل .. أى لا تزال هناك ساعات أخرى من هذا العذاب حتى يسفر الصباح ..

وعندما يسفر الصباح ، ستكون النهاية – طبعا – بالنسبة له . ولكن على الانسان فى مثل هذا الموقف أن يكون مستعدا لكل شيء ، ولكل احتمال ، حتى احتمال الهرب ، اذا كان فى علم الله أن ينجو ويهرب – فان الله سبحانه – قادر أن ينجيه حتى وهو واقف امام فوهات البنادق المصوبة اليه فى ساعة الاعدام . ولكن الله رحيم رحمن .. ولن يكون هناك غير سبب واحد يجعل الله سبحانه يحرمه هذه الراحة الابدية بالموت ، ان كان فى الموت راحة ، وهو انه لايزال مقدرا عليه ان يكون اداة لانقاذ روح خاطىء آخر .. روحه هو .. أو روح شخص اخر .. ولكن .. أى نفع يمكن أن يؤديه الان لنفسه أو لغيره بعد أن ضيق عليه البوليس الخناق ، وأصبح غير قادر على دخول أية قرية خشية ان يتسبب فى قتل رهينة منها .. وقد تكون هذه الرهينة رجلا من مرتكبى الكبائر لم تتح له فرصة التوبة

والتكفير .. وليس يدرى أحد كم رجلا سوف يقتل على هذا الحال لا لشيء الا لانه ـ الراهب ـ عنيد متكبر يرفض الاعتراف بالهزيمة.. انه لن يستطيع بعد اليوم أن يقيم قداسا ؟ وليس معه قطرة من الخمر .. فقد ذهبت كلها فى حلقوم مدير البوليس ، وان الامر لمعقد بشكل رهيب .. فهو لايزال خائفا من الموت ، وسيتضاعف خوفه عندما يسفر الصباح ، ولكنه ـ وهنا جانب التعقيد ـ بدأ يشعر بان الموت قد راح يستهديه ويستميله ببساطة ..

وسمع المراة المتدينة تهمس فى أذنه مما يدل على انها استطاعت أن تقترب منه بطريقة ما ، واذا هى تقول :

« ابى .. هل تسمع اعترافاتى ؟ »

« أتعترفين هنـا يا ابنتى ، انه لامر مستحيل . . أين السرية الواجبة لصحة الاعتراف ؟ »

« لقد مضت فترة طويلة لم ـ »

« يكفى أن ترددى بخشوع الدعاء والابتهال ليغفر الله خطاياك... ثقى يا عزيزتى فى أن الله يلتمس العذر للمضطر غير الباغى .. »

« اننى لا أكره احتمال الالم والعذاب فى الدنيا ـ »

« حسنا .. ها انت ذى تتعذبين هنا » .

« انه عذاب لن يطول .. ففى الصباح تكون أختى قد حصلت على قيمة الغرامة فتدفعها ويطلق سراحى .. »

ومرة أخرى صدرت من ركن قصى بالزنزانة حركة مريبة . . فقالت المراة فى صوت ينم عن غثيان النفس من فرط السخط والغضب :

« هؤلاء الحيوانات .. الوحوش ـ »

« لا يليق أن تلتمسى المغفرة من الله وأنت فى هـــذه الحـالة النفسية ـ »

« ولكن .. هذه البهيمية ـ ؟ ؟ »

« من الخطر أن تعتقدى هذا .. لاننا ، أحيانا ، نكتشف فجأة ان للخطيئة بعض الجمال ــ »

فقالت فى ازدراء شديد :

« جمال ــ ؟ ! ! هنا ..؟ فى هذه الزنزانة .. بين هؤلاء الغرباء جميعا ؟ ! »

« أنه جمال من نوع آخر .. ان القديسين يتحدثون عن جمال العذاب فى الدنيا .. حسنا .. وما نحن بقديسين .. انت أو أنا .. أن العذاب بالنسبة لنا كريه .. اننا ننظر الى هذا المكان على أنه قذر .. مزدحم .. مؤلم .. ولكنه جميل بالنسبة لاولئك الذين فى الركن القصى . . وان الامر ليحتاج الى كثير من المعرفة بحقائق الحياة حتى يستطيع الانسان أن ينظر الى الاشياء بعين القديس . وللقديس ذوق خاص فى فهم الجمال وهو ينظر الى هؤلاء الجهلة البؤساء فى ذلك الركن .. أما نحن فليس لنا مثل هذا الذوق .. » .

« انها احدى الكبائر . »

« اننا لا ندرى .. فقد تكون .. ولكن المؤكد أننى راهب شرير .. كما ترين .. وأنا أعرف ــ بالتجربة ــ مبلغ ماكان عليه الشيطان من جمال قبل أن يسقط .. ولن يستطيع أحد أن يزعم أن الشيطان لم يكن ملاكا قبل ان يسقط . . وان للملائكة جمالا وصفاء فوق مايتصور العقل البشرى .. انهم مخلوقون من النور و ــ

وهتفت المرأة تقول حين سمعت الحركة المريبة مرة أخرى :

« يجب أن تضع حدا لهذه البهيمية التى تثير الغثيان فى النفس » .

وشعر الراهب بأصابع المرأة التقية وهى تغرزها فى ركبته ، فقال :

« اننا جميعا زملاء سجن .. وانا فى هذه اللحظة أشد شوقا الى الخمر من شوقى الى التوبة .. وهذه خطيئة أخرى ــ »

فقالت المرأة :

« الآن أستطيع أن اتأكد أنك راهب شرير .. لقـــد آبيت أن أصدق هذا من قبل ، أما الآن .. ! يكفى أنك تلتمس العــذر لهؤلاء الحيوانات .. فلو سمع رئيسك الاسقف بهذا ... »

« انه الآن فى مكان بعيد جدا »

وراح يفكر فى الرجل العجوز المقيم هناك .. فى عاصمة الجمهورية فى واحد من هــذه المساكن المريحة ـ القديمة ـ الزاخرة بالتماثيل والصور الدينية ـ حيث يقيم قداسا فى صباح كل أحد أمام أحــد المحاريب بالكتدرائية ..

وعادت المرأة تقول :

« عندما اخرج من هنا ، فسوف أكتب له .. »

ولم يسعه الا ان يرسل ضحكة خفيفة وهو يرى مبلغ تعصبها وأخيرا قال :

« اذا تسلم خطابك ، فسوف يهتم بشىء واحد .. وهو انى لم أزل على قيد الحياة »

ولكنه لم يلبث ان عاد ينظر الى الامـــور نظرة جادة .. انه لا يستطيع أن يشعر نحوهذه المرأةبأكثرمن الرثاء الذى شعر به نحو المولد ذى النابين الذى التقى به منذ أسبوع فى الغابة .. بل انهيرى أنها اسوأ حالا منــه .. فللمولد بعض العذر بسبب الجهل والفقر والاهانات التى تلاحقه فى كل مكان ..

وقال لها :

« حاولى الا تغضبى على .. وبدلا من الغضب ابتهلى وصــلى من أجلى .. »

« أن خير مصير لك هو الموت »

ولم يكن فى مقدوره أن يراها فى الظلام .. ولكنه يذكر كثيرا من الوجوه التى تتفق مع صوتها ولهجتها فى الحديث .. فأنت حينما تسبر غور انسان ما تشعر نحوه بالرحمــة والعطف لا بالحقـــد والكراهية .. وهذههى احدى المعجزات الخالدة التىيحملها الانسان

بين جنبيه ، فأنت حين ترى العينين وما حولهما من خطوط وأركان وهيئة الفم ، وكيف ينبت الشعر ، تجد من المستحيل عليك ان تشعر بالكراهية .. فان الكراهية مجرد فشل فى الخيـــال . وهكذا بدأ يشعر بالمسئولية الضخمة نحو هذه المرأة المتدينة فقال لها :

« أنت والاب جوزيه .. أن امثالكما هم الذين يجعلون الناس يسخرون من .. من الايمان الحقيقى .. »

وتبين أخيرا ان لها بعض الاعذار التى للمـــولد البائس ، وان كانت ـ أى الاعذار ـ تختلف ، فهويستطيع أن يتخيل حياتها الرتيبة الهادئة التى تقضيها على مقعد هزاز ، فى صالون منزلهـــا المزين بالصور والتماثيل الدينية ، دون ان تحفل بالتعرف على النـــاس أو تعرف الناس لها .

وقال فى صوت رقيق :

« انك غير متزوجة .. أليس كذلك ؟ »

«لماذا تريد أن تعرف »

« وليس لديك أى عمل على الاطلاق .. كأن تكونى راهبـــة فى دير مثلا ؟ »

فقالت فى صوت ينم عن المرارة :

« .. ولعلك لاتصدق هذا ؟؟ رغم انى حاولت »

وراح يفكر : يالها من بائسة .. ليس فى حياتها شىء .. شىء قط .. لوكان فى مقدورالانسان أن يجد التعبير الملائم ... ! وأعتمد بظهره على الجدار الرطب فى يأس وكان يتحرك فى رفق شديد حتى لايوقظ الرجل العجوز .. ولم يستطع أن يجد التعبير المناسب .. فقد ازدادت الهوة اتساعا بينه وبين أمثالها .. ولو كان فى عهـــده الاول لاستطاع ان يجد مايقوله لها دون أن يخامره أى شعور بالعطف والرحمة .. ولاستطاع ـ فى غير اهتمام أو تركيز ذهنى ـ أن يحدثها ببعض عبارات تافهة لاتصدر من القلب ، ولا تصل الى القلب . أما الآن .. فانهغير ذى نفع لها .. انه مجرد مجرم لايستطيع الاالحديث

مع المجرمين .. وقد أخطأ مرة أخرى وهو يحاول أن يحطم رضاءها عن نفسها ، بل كان الافضل له أن يدعها تستمر فى وهمها بأنه قديس شهيد .

وأغلق عينيه وقد غلبه النوم على أمره .. وراح يحلم .. فرأى انه لايزال مطاردا بعنف وأن مطارديه يوشكون أن يلحقوا به ، فوقف أمام باب وراح يطرق عليه طالبا السماح بالدخول ولكن أحدا لايجيب عليه ، فقد كانت هناك كلمة .. كلمة سر .. هى التى ستنقذه ، ولكنه نسى هذه الكلمة ، وانه يحاول جاهدا أن يتذكرها من طريق كلمات أخرى مثل : جين .. طفل كاليفورنيا .. صاحب الفخامة .. لبن .. فيراكروز .. وشعر بالخدر الشديد فى قدميه ، فسقط راكعا خارج الباب .. وعندئذ علم السبب الحقيقى فى رغبته الملحة فى الدخول .. انه ليس مطاردا فى الواقع ، لقد ظن هذا خطأ .. ان ابنته بجانبه تنزف الدماء الى درجة الموت .. وهذا باب عيادة طبيب .. وانه ليطرق الباب بعنف وهو يصيح « حتى اذا لم أتذكر كلمة السر ، أفليس لك قلب ؟ .. » ان الطفلة المشرفة على الموت ترفع عينيها اليه بنظرات ملؤها التعصب الدينى المعروف عن العصور الوسطى وتقول له « أيها الحيوان ! »

وأستيقظ من النوم يبكى ..

ويبدو أنه لم يستغرق فى النوم غير لحظات معدودة ، لان المرأة المتدينة بجانبه كانت لا تزال تتحدث عن رغبتها فى الالتحاق بدير للراهبات ، ولكن رئيسة الدير أبت عليها إن تلتحق ، فقال لها « وهذا ما يجعلك تتألمين .. أليس كذلك ؟ ! ان شعورك بمثل هذا الالم قد يكون أفضل من شعوركبالسعادة لو تحقق أملك وأصبحت راهبة» .

وما أن نطق بهذه العبارة حتى قال لنفسه : انها ملاحظة سخيفة ما معناها ، لماذا لا أقول لها عبارت تعلق بذهنها ..

ويئس أخيرا من هذه المحاولة ..

فقد كانت هذه الزنزانة كأى مكان آخر فى العالم .. زاخرة بالرغبة

فى انتهاب اللذة الخاطفة ، والرغبة فى التعالى والكبرياء رغم سوء الاحوال المحيطة بهذه الرغبات.. فليس ثمة وقت لان يؤدى الانسان عملا جديرا بأن يؤدى .. وانما الانسان يحلم دائما بالهرب ..

ولم يعاوده النوم مرة أخرى ، وانما راح يفكر فى عهد جديد مع الله ، فاذا أتيحت له أسباب النجاة هذه المرة ، فسوف يهرب من الولاية كلها .. سيمضى نحو الشمال عبر الحدود .. وان نجاته هذه المرة لتبدو فى حكم المستحيل ، فاذا حدثت رغم هذه الاستحالة ، فسوف تكون اشارة .. علامة .. دليلا أكيدا على أنه يفعل من الشر ـ بقدوته السيئة ـ اكثر مما يفعل من الخير باتاحة الفرص ليعترف الخاطئون بين يديه .

وتحرك العجوز قليلا فوق كتفه .. وظل الليل جاثما حوله .. وكانت الظلمة ، كما هى دائما ، لا تخف ولا تتغير .. ولم يكن ثمة ساعات .. لا شىء يدل على أن الوقت يمر .. بل كان الشىء الوحيد الذى يدل على مرور الوقت ، هو قضاء الحاجة فى الجردل بين الحين والآخر ..

وفجأة شعر انه يرى وجها .. ووجها آخر .. وكان قد بدأ ينسى أن هناك يوما آخر سيشرق تماما كما ينسى الانسان أن هناك يوما سوف يموت فيه..ان فكرة الموت تخطر بالبال فجأة عند زعيق عجلة السيارة وهى تتوقف قبل أن تصدم رجلا .. وعندما تخطر هذه الفكرة يشعر الانسان بأن ايامه تكر ، وبأن لها نهاية حتما ...

وبدأت جميع الاصوات تتحول فى بطء الى وجوه .. ولم يشعر الراهب بأيه دهشة أو مفاجأة وهو يرى الوجوه تتبدى أمامه .. فقد كانت كما تخيلها من أصواتها .. فان مهنته التى يحترف فيها الاستماع الى اعترافات الناس جعلته يستطيع ـ من نبرات الصوت ـ أن يتخيل بعض ملامح المتحدث .. الشفة المدلاة ، أو الذقن الصغيرة ، أو النفاق المطل من النظرات الثابتة أكثر مد'

ينبغى .. ورأى المرأة المتدينة على بعد أقدام منه ، نائمة تحلم بفمها الانيق المفتوح ، وأسنانها القوية كأنها مقابر .. والرجل العجوز .. والرجل فى الركن مع امرأته النائمة كيفما كان على ركبته !! أما وقد أسفرالصباح أخيرافقد وجد نفسه المستيقظ الوحيد فيماعدا غلاما صغيرا من الهنود الحمر ، كان جالسا متربعا بالقرب من الباب وقد ارتسمت على وجهه أبلغ أمارات الســـعادة وكأنما لم يسبق له أن استمتع من قبل بجو من الصحبة والزمالة كهذا .. وهناك ، عبر الفناء ، كان الطلاء الجيرى لجدار المركز يبدو بوضوح .. وبدأ ، فى خشوع ، يودع العالم .. ولم يستطع أن يركز كل عواطفه فى الصلاة الاخـيرة .. فقد كانت حواسه تدفع به الى التفـكير فى رذائله هو واحدة هى التى ستنطلق رأسا الى قلبـــه .. فان فصيلة جنود الرماة ، يجب أن يكون فيها جندى واحد على الاقل يحسن التصويب الى الهدف وسوف تنتهى حياته فى أقل جزء من الثانية .. فى ومضة عين .. ومع هــذا ظل طوال الليل يفكر فى الســـاعات ومرور الوقت .. ولم يكن هناك ساعات ، ولم يكن الظـــلام ليتحرك أو يتبـدل . وليس يعرف أحد ــ فى الواقع ــ ما هو الزمن الحقيقى للحظة الالم الشديد .. فانها قد تستمر فترة ما بين الحياة الانسانية ويوم القيامة ، وقد تستمر الى .. الابد ــ

ولامر ما خطر بباله فى تلك اللحظة منظر رجل كان على فراش الموت بسبب السرطان ، وكان هو جالسا معـــه يسمع اعترافاته الاخيرة ، وكان أهل المحتضر قد وضعوا الاربطة على أنوفهم بسبب الرائحة الرهيبة المنبعثة من جسد المحتضر ..

نعم .. انه يوقن بأن ليس فى الحياة ما هو أشد فظاعة من الموت!

وسمع صوتا فى الفناء يصيح قائلا :

« مونتيز ــ »

وظل جالسا القرفصاء على قدميه الخدرتين .. وراحت الافكار

تدور برأسه آليا : ان هذه البذلة الكتانية لم تعد تصلح لشىء بعد أن تلوثت وتكمشت خلال هذه الفترة التى أمضاها بالزنزانة . لقد غامر بحياته واشتراها من متجر ملابس جاهزة بالقرب من شاطىء النهر ، زاعما لصاحبه أنه فلاح صغير الشأن يريد أن يختال بالبذلة الجديدة أمام أقرانه ، أما الآن .. فانه لن يحتاج اليها مرة أخرى . وقد دهمته هذه الحقيقة فجأة وجعلته يشعر باحساس الرجل الذى يغلق باب بيته من الخارج لآخر مرة فى حياته .. وتكرر صوت المنادى عليه فى صبر نافد :

« مونتيز ؟ »

وتذكر ، فى تلك اللحظة ، أن هذا هو اسمه .. أو كان اسمه .. ورفع رأسه ورأى الجاويش وهو يفتح باب الزنزانة ويقول :

« هلم يامونتيز ... »

وأسند رأس الرجل العجوز برفق على الجدار الرطب ، وحاول أن ينهض واقفا ، ولكن قدميه خذلتاه بينما الجاويش يصيح به قائلا فى تذمر :

« أتريد أن تنام أكثر مما نمت ؟ »

ويبدو أن شيئا ما قد أثار أعصابه فلم يعد ودودا كما كان بالامس ، وركل بحذائه رجلا نائما فى المدخل وهو يصيح :

« هيا .. استيقظوا جميعا .. هلم الى الفناء »

ولم يطع الامر — أولا — الا الغلام الهندى الذى انسل نحو الفناء وأمارات السعادة لا تزل مرتسمة على وجهه . وعاد لجاويش يقول متوترا :

«هؤلاء الكلاب القذرة .. أيريدون أن تحمل اليهم الماء ليغتسلوا .. أنت يامونتيز »

وبدأت الحياة تدب فى قدميه ، واستطاع — من ثم — أن يصل الى الباب ...

واضطربت الحياة بشكل ما فى الفناء .. فثمة طابور من الرجال

يغسلون وجوههم أمام صنبور واحد ، وجلس رجل فى صديرينه وسروايله على الارض محتضنا بندقيته .وكان الجاويش لا يكف عن الصياح بقوله :

« هيا اخرجوا جميعا الى الفناء واغتسلوا »

حتى اذا رأى الراهب يخطو نحو الفناء ، صاح به آمرا :

» انتظر أنت يامونتيز ـ »

« أنا .. ؟ »

« نعم .. ان لدينا لك عملا آخر .. »

ووقف الراهب فى مكانه ينتظر بينما راح زملاؤه يخرجون الواحد بعد الاخر الى الفناء .. ساروا أمامه فردا فردا .. وكان هو ينظر الى أقدامهم لا الى وجوههم ، وكان فى وقفته ـ بالنسبة اليهم ـ كأنه رمز للاغراء والغواية .. ولكن لم ينطق أحد منهم بكلمة .. ورأى قدمى المرأة وهى تنقل خطاها باعياء منتعلة حذاء قديما أسود اللون خفيض الكعب ،وكان يرتعد من فرط الشعور بتفاهته وعدم فائدته لاحد ، ووجد نفسه يتمتم هامسا للمرأة المتدينة :

« صل من أجلى .. »

وسمع صوت الجاويش وهو يقول :

« ماذا تقول يامونتيز .. ؟ ! »

ولم تسعفه ذاكرته بكذبة يقولها ، فقد شعر كأن عشرة أعوام من التخفى قد استنفدت كل ذخيرته من المراوغة والخداع ..

« ما هذا الذى قلت يامونتيز ؟ ! »

وتوقفت قدما المرأة عن الحركة ، وارتفع صوتها وهى تقول للجاويش :

« لقد كان يطلب منى احسانا »

ثم أردفت تقول فى قسوة :

« كان يجب أن يدرك بداهة أنى لا أملك شيئا أحسن به على أحد »

ثم تحركت القدمان ، وسارت المرأة فى طريقها الى الفناء

وقال له الجاويش فى شىء من السخرية والرثاء :

« هل نعمت بالنوم المريح يامونتيز الليلة ؟ ؟ »

« لا .. لم يكن النوم مريحا تماما .. »

« اذن ماذا كنت تنتظر ! لسوف أعلمك كيف تحب البراندى كما ينبغى .. أترى ؟ »

« حسنا »

وراح يتساءل : متى تنتهى هـذه المقدمات التى تشبه لعب القط بالفأر ؟

وعاد صوت الجاويش يقول له هازئا :

« اذا كنت قد أنفقت نقودك كلهـا على البراندى ، فيجب أن تؤدى بعض الاعمال نظير قضاء ليلتك عندنا .. اذهب واحمـل الجرادل من الزنزانات الى دورة المياه ، وحذار أن ينسكب منهـا شىء .. فان الجو هنا فى غير حاجة الى مزيد من ذلك النتن ! »

فقال الراهب فى شىء من الذهول :

« أين أمضى بها .. »

فأشار الجاويش الى باب دورة المياه ، الواقع بعد الصنبور ثم قال : :

« أبلغنى الامر عندما تنتهى »

ثم مضى يطلق الاوامر هنا وهناك فى جوانب الفناء .

وانحنى الراهب ، ورفع الجردل ، وكان ممتلئـا ، وثقيـلا ، فحمله وهو ينحنى من فرط ثقله وسـار به عبـر الفنـاء وقـد انحدرت قطرات العرق على عينيه ، فلما مسـحها بطرف كمه ، شاهد فى الطابور الواقف أمام الصنبور وجوها يعرفها . انها وجوه الرهائن التى أخذها الضابط من القرى ليقتلها رميا بالرصاص اذا لم يرشد أحدهم عن مكان الراهب . وقد رأى بين الرهائن وجه الشاب ميجويل ، وتذكر صيحة أمـه وهو يؤخذ أمام عينيها فى تلك القرية

وتذكر وجه الضابط يومذاك الذى كان ينم عن الغضب والارهاق .
كانت الشمس فى تلك اللحظة تشرق من وراء أشجار الغابة ، وقد رآه الرهائن فى اللحظة نفسها . فوضع الجردل الثقيل على الارض وأخذ ينظر اليهم .. فقد رأى أنه اذا تجاهلهم فكأنما يطلب منهم أو يوحى اليهم ، أو يأمرهم بأن يستمروا فى احتمال العذاب والتهديد بالموت حتى يهرب .. وكان ميجويل قد ضرب بقسوة ضربا شديدا . . وكانت أثار الضرب واضحة فى الجرح الدامى تحت عينه . حيث أخذت أسراب الذباب تتهافت عليه كما تتهافت على جرح مكشوف فى جسم البغلة . وتحرك الطابور بعيدا عن الصنبور ، وأطرق الجميع برؤوسهم نحو الارض ، وأغضوا بعيونهم وهم يسيرون أمامه . واتخذ مكانهم رجال آخرون ، غرباء ، وراح يتمتم فى أعماق نفسه بالدعاء « يارب .. ارسل اليهم شخصا أجدر بأن يحتملوا من أجله العذاب » . فقد شعر أنه من السخرية الرهيبة ان يتعذب هؤلاء الناس لحماية راهب سكير مثله له ابنة غير شرعية . .
وكان الجندى الجالس على الارض بسراويله وبندقيته ، مشغولا بقضقضة أظافره وقضم أطرافها بأسنانه . وخامر الراهب احساس غريب من الوحدة والوحشة لان كل واحد من الرهائن أبى أن يتعرف عليه أو يشى به . .
ومضى بالجردل الى دورة المياه التى لم تكن غير مرحاض من الطراز العتيق ، فأفرغه ، ثم عاد وعبر الفناء الى صف «الزنزانات» . . وكان مجموعها ستا .. ومضى الى الواحدة بعد الاخرى يحمل جردلها . وقد اضطر ذات مرة أن يتوقف فى الفناء وهو يبذل كل جهده حتى لايقىء .. وظل يروح ويغدو عبر الفناء بحمولته النتنة حتى وصل الى الزنزانة الاخيرة ، وكانت خالية الا من رجل كان معتمدا بظهره الى الجدار ، وأشعة الشمس الباكرة تصل الى قدميه ، والذباب حوله يتهافت على كومة رهيبة من القىء المسكوب على الارض . وفتح الرجل عينيه وهو يرقب الراهب أثناء انحنائه

ليحمل الجردل ، وكان ناباه الاصفران بارزين فوق شفتهالسفلى..
وحمل الراهب الجردل وأسرع به متعثرا فى طريقه الى الخارج غير حافل بما ينسكب منه . ولكن الرجـل قال له بذلك الصـوت المألوف ذى النبرات المغيظة :
« انتظر لحظـة .. انك لاتستطيـع أن تفعل هذا هنـا .. أن تسكب القذارة .. »
ثم أردف يفسر الحديث بكبرياء :
« لانى لست مسجونا .. بل ضيفا .. »
وقام الراهب بحركة اعتذار « لانه كان يخشى أن يتحـدث » وحاول أن يمضى فى طريقه ، ولكن الرجل المولد ذا النابين أمره قائلا :
« تعال هنا .. »
ووقف الراهب بعناد بالقرب من الباب ، وعاد الرجل المولد يقول :
« قلت تعال هنا .. انك مسجون .. أليس كذلك ؟ وأنا هنـا ضيف .. ضيف على الحاكم العام .. هل تريد منى أن استدعى أحد رجال البوليس ؟ اذن تعال هنا .. »
وخيل للراهب أن الله قد قرر ، فى النهاية ، مصيره ..
واستدار عائدا الى المولد ، والجـردل فى يده ، ووقف بجـانب قدمه العريضة العارية ، ورفع المولد عينيه وقال فى حدة وقلق :
« ماذا تفعل هنا ؟ »
« احمل الجردل الى دورة المياه »
« أنت تعرف ما أعنى .. »
فقال الراهب وهو يحاول تخشين صوته :
« لقد ضبطوا معى زجاجة براندى .. »
« اننى أعرفك .. لقد أبيت ان أصدق عينى .. ولكن .. عندما سمعت صوتك ! ؟
« لا أظن ... ! »
« انه صوت الراهب .. »

ونطق العبارة الاخرى باشمئزاز وكأنه كلب يرى أمامه كلبـــا آخر من نوع مختلف ؛ فهو لايستطيـع أن يمنع شـــىء ظهره من الانتصـــاب . وتحرك ابهام قدمه ــ كمـا كانت تتحرك فى الغابة . كالحشرة ، ووضع الراهبالجردل على الارض وقال فىلهجة يائسة :

« انك سكران .. »

فقال الرجل المولد :

« بيرة .. بيرة .. لاشىء غير البيرة .. ولكنهم وعدوا ان يقدموا الى كل ماأريد ولكن .. هل يستطيع أحد أن يثق بهم ، ألست أعرف ان لمدير البوليس مخزنا خاصا للخمور ــ »

« يجب ان امضى الان لافرغ الجردل »

« اذا تحركت فسوف استدعى رجال البوليس .. فلدى اشـــياء كثيرة اريد ان افكر فيها ... »

ولم يسع الراهب الا ان يقف وينتظر .. فقد كان تحت رحمـــة المولد ، ــ وهى عبارة سخيفة .. فقد كانت عيناه الصفراوان بحمى الملاريا لاتنمان عن اى احساس بالرحمة .. وايا كان الامر ، فقد نجا من ذل الرجاء للرجل أن يكتم سره .

وقال المولد وهو يشرح الامر بعناية :

« ارايت كيف اعيش هنا فى راحة وامن ... »

وأخذ يحرك ابهام قدمه الاصفر ــ فى عظمة ــ بجانب كومة القىء ، ثم أردف يقول :

«اننىاستمتع هنا بالطعام الوفير ، وبالبيرة ، وبالصحبة الطيبة ، وهذا السقف محكم لايسمح بسقوط مياه المطر..ولست بحاجة لان تخبرنى ماذا سيفعلون بى عندما .. عندما يقبضون عليك هنا . انهم سيضربوننى ويلقون بى الى الخارج كالكلب ... »

وازداد صوته حدة وغضبا وهو يستطرد قائلا :

« ماذا تفعل هنا ؟ هذا ما أريد أن أعرف ! ان الامر يبدو غامضا ملتويا فى نظرى ، فمهمتى هنا هى ان ارشد عنك .. فاذا عثرواعليك

هنا » فمن الذى سيظفر بالمكافاة ، لاشك انه مدير البوليس ، او لعله ذلك الجاويش الشيطان »

ثم صمت برهة وعاد يقول فى قلق وبؤس :

« انك لا تستطيع ان تثق باى انسان فى هذه الايام . . »

فقال الراهب :

« وهناك ذو القميص الاحمر »

« ذو القميص الاحمر . . »

« انه هو الذى قبض على »

« يالهى !! . . أن جميع ذوى القمصان الحمر مقربون من الحاكم »

ثم رفع عينيه فى لهفة واردف قائلا :

« انك رجل مثقف . . ماريك ؟ بماذا تشير على ؟؟»

« ان تسليمك لى جريمة قتل . . احدى الكبائر . . »

« لا . . ليس هذا ما أعنى . وانما اعنى الجائزة ، أترى . .؟! فطالما هم لايعرفون انك الراهب ، فسوف ابقى منعما مستريحا . . نعم أن رجلا مجهدا مثلى فى حاجة الى بضعة اسابيع اجازة من عناء الفاقة والتشرد . ثم انك لن تستطيع أن تهرب بعيدا ، ولهذا فمن المستحسن – كما ترى – أن يقبض عليك بعيدا عن هذا المكان . . . فى أى مكان آخر بالمدينة ، وعندئذ لن يستطيع أحد غيرى ان يطالب بالجائزة . . »

ثم أردف فى غضب شديد :

« ماأكثر مايشغل تفكير الفقير . . »

فقال الراهب :

« من المحتمل ان . . ان يعطوك جانبا من الجائزة اذا أرشدتهم عنى هنا »

فاعتدل المولد فى جلسته وقال :

« لا . . بل اريد ان اظفر بالجائزة كلها . . »

وسمع الاثنان صوت الجاويش وهو يقول :

« ماهذا الذى يدور هنا »

ورآياه واقفا فى مدخل الزنزانة ، وشمس الصباح تغمره ، وقال الراهب ببطء

« أنه يريد منى أن أزيل كومة هذا القىء ، وأنت لم تأمرنى — »

وقال المولد متظرفا وهو يصطنع الابتسام

« وأريد زجاجة أخرى من البيرة ياجاويش »

فقال له الجاويش :

« لا . . ليس الان . . عليك أولا أن تقوم بجولة تفتيش عن الراهب فى المدينة »

وتنـــــاول الراهب الجردل ومضى به عبر الفناء ، تاركا الرجلين يتجادلان . وكان يشعر كأن ثمة مسدسا مصوبا الى ظهره . ومضى الى دورة المياه حيث أفرغ الجردل ، ثم عـــاد الى الفناء الذى يغمره ضوء الشمس . وشعر كأن المسدس هذه المرة مصوب الى صدره ، فقد كان الرجلان — المولد والجاويش — واقفين فى مدخل الزنزانة يتحادثان . وراح يعبر الفناء وهما يرقبان اقترابه منهما . . وكان الجاويش يقول للمولد :

« أتقول انك اليوم تعانى من التهاب المرارة ولا تستطيع أن تتبين الاشياء كما ينبغى ، حسنا . . عليك اذن أن تتولى بنفسك تنظيف زنزانتك . . ما دمت لا تؤدى عملك المنوط بك — »

ورآى الراهب المولد — من وراء الجاويش — يغمز له بعينـــه ، فأدرك أنه نجا مؤقتا من الخطر الداهم ، وانحسر عنه الخوف الى حين ، وحل محله شعور بالاسف . فتلك هى ارادة الله . . لا يزال عليه أن يمضى فى الحياة ، يتخذ لنفسه القرارات ، وينفذ الخطط ، ويدبر أموره العاجلة ، كل هذا طبقا لما يريده الله له . .

واستغرقت عملية تنظيف الزنزانات ساعة ونصف ساعة كاملة ، كان خلالها يسكب على أرضية كل زنزانة بضعة جرادل من الماء ، ثم يتولى مسحها وغسلها . . ورأى المرأة المتدينة وهى تمضى - كأنما الى الابد — من خلال الباب الى حيث كانت أختها تنتظرها بمبلغ

الغرامة . وكانت الاثنتان تربطان المطارف السوداء حول رأسيهما وكتفيهما وكأنهما من هذه الاشياء التى تباع فى السوق .. جافة .. .. خشنة .. « نصف عمر » ثم التفت الى الجاويش الذى راح ينتقد نظافة الزنزانات ويطلب منه اعادة غسلها بالماء .. وأخيرا ضاق الجاويش بالامر كله فجأة ، وطلب منه أن يستصدر من مدير البوليس اذنا لاطلاق سراحه . وهكذا جلس نحو ساعة ينتظر على الدكة الخشبية خارج غرفة المدير ، ويتسلى بمراقبة الحارس وهو يسير ــ مصطنعا الأهتمام ــ جيئة وذهابا فى حرارة الشمس ..

وأخيرا أقبل أحد رجال البوليس واقتاده الى مكتب مدير البوليس .. ولكن المدير لم يكن هو الجالس الى المكتب .. وانما الضابط المكلف بمطاردته والقبض عليه . ووقف الراهب غير بعيد من صورته المعلقة على الجدار ، ينتظر ، ورفع عينيه بسرعة واختلس نظرة خاطفة الى صورته وهو بين المجتمعين ، وتنهد فى ارتياح .. فقدكان الشبه بينه الآن وبين الصورة يكاد يكون معدوما . وراح يفكر : لشد مايبدو فى هذه الصورة ثقيل الظل مغرورا .! ومع ذلك فقد كان أطهر ــ نسبيا ــ منه الان . وكانت هذه الحقيقة أيضا من بين الاسرار الخفية التى تحيره . فقد كان يشعر أحيانا أن اللمم ــ الذنوب البسيطة ــ كالاكاذيب الخفيفة ، وضيق الصدر ، والكبرياء ، واهمال الفرص السانحة ، تقتل فى القلب فضائل الرقة والسماحة والمودة أكثر مما تفعل الخطايا الكبيرة . ومع ذلك . فقد كان فى أيام طهره وعفانه لايكاد يشعر بالحب لاحد الا نفسه ، أما الان ، وقد تلوث بالخطايا .. فقد عرف الحقيقة ...

وقال الضابط للشرطى :

« حسنا .. هل فرغ من تنظيف الزنزانات ؟ »

وكان يتحدث دون أن يرفع عينيه عن الاوراق الموضوعة أمامه ثم أردف قائلا :

« قل للجاويش اننى أريد أربعة وعشرين جنديا مسلحين ببنادق

نظيفة محشوة .. أريد أن يكونوا مستعدين فى خلال دقيقتين .. »
ثم رفع رأسه وقال للراهب :
« حسنا .. ماذا تنتظر ؟ »
« انتظر ياصاحب الفخامة اذنك لى بالانصراف »
فقال الضابط بحدة :
« اننى لست صاحب الفخامة.. تعلم كيف تنادى الناس بأسمائهم اللائقة .. هل سبق أن سجنت قبل الان ؟ »
« لا .. مطلقا »
« ان اسمك مونتيز ! ويخيل لى انى ألتقى فى هذه الايام برجال وأطفال يحملون هذا الاسم أكثر مما ينبغى .. هل هم أقارب لك ؟ »
وجلس يرقب الراهب بامعان كأنما بدأت ذاكرته تتحرك ..وأسرع الراهب يقول :
« كان لى ابن عم يحمل هذا الاسم ، وقد قتل رميا بالرصاص فى كونسبكيون »
« ليست هذه غلطتى »
« اننى أعنى فقط .. أننا كنا متشابهين . فقد كان والدانا توأمين ولد الواحد بعد الثانى بنصف ساعة . وقد خطر لى أن فخامتك ربما تظن ـ »
« انه على ما أذكر كان رجلا يختلف عنك .. طويل .. نحيل .. ضيق الكتفين ـ »
فقال الراهب بسرعة :
« ربما كان التشابه فقط فى نظر العائلة ـ »
« ولكننى لم أره غير مرة واحدة »
وكان يبدو عليه كأنما شىء ما يحز فى ضميره وهو جالس يفكر فى قلق ويعبث فى الاوراق بأصابعه السمراء التى تجرى فيها دماء الهنود الحمر . وفجأة سأل الراهب قائلا :
« الله يعلم .. »

« هكذا انتم أيها الناس .. تعتقدون أن الله ــ »

وانطلقت على الورق أمامه حشرة صغيرة سوداء ، فقتلها بأصبعه وهو يقول :

« وليس معك نقود تدفع منها الغرامة »

وراح يرقب حشرة أخرى وهى تحاول الهرب بين صفحات الورق .. ففى ذلك الجو الحار كانت الحياة تتكاثر الى مالا نهاية ..

وقال الراهب :

« لا .. ليس معى مال »

« اذن كيف تعيش ! »

« التقط الاعمال حينما أجدها »

« لقد اصبحت أكبر سنا من أن تعمل .. »

ثم وضع يده فى جيبه وأخرج منها ورقة نقد من فئة الخمس بيزات وقدمها للراهب وهو يقول :

« اليك هذه وانصرف .. وحذار ان أرى وجهك مرة أخرى هنا .. فهمت ؟ »

وطوى الراهب قبضته على الورقة المالية .. التى تبلغ أحيانا أجر اقامة قداس .. ثم قال فى دهشة :

« انك رجل طيب .. »

الفصل الرابع

كان الوقت لا يزال فى بكور الصباح عند ما عبر النهر سباحة ووصل الى الشاطىء الاخر وقطرات الماء تتساقط من ملابسه .. ولم يكن يتوقع ان يرى أحدا فى ذلك المكان الذى تقع فيه فيللا الكابتن فيلوز .. ومخزن الموز ذو السقف المنحدر المصنوع من الصاج المطروق ، وصارى العلم .. وقد كان يعلم أن الانجليز ينزلون العلم مع غروب الشمس ويرددون نشيد « حفظ الله الملك » وتقدم فى حذر نحو باب المخزن ودفعه فانفتح ، ودخل الى الجو المظلم حيث سبق له أن اختفى فيه .. كم أسبوعا مضى عليه منذ ذلك الحين ؟ انه لا يدرى وانما يدرى فقط أن موسم الامطار يومذاك كان بعيدا .. اما الان .. فقد بدأت الامطار فى الانهمار ، وفى خلال أسبوع آخر لن يستطيع أحد أن يجتاز الجبال الا فى طائرة .

وتحسس المكان بقدمه .. انه يشعر بجوع شديد .. وان قليلا من ثمار الموز قد تخفف من هذا الشعور ، وكان قد مضى عليه يومان بغيرطعام .. ولكن المخزن كان خاليا تماما من أى شىء يؤكل .. يبدو أنه جاء فى اليوم التالى لحمل الثمار الى رصيف الميناء تمهيدا لشحنها ، ووقف فى الداخل ، بالقرب من الباب ، وراح يفكر فيما قالته له الصبية كورال عن اشارات مورس ، انه يرى نافذة غرفتها عبر الفناء ذى الارضية الممتلئة بالتراب الابيض الراكد ، وانه يرى أشعة شمس الصباح تتألق على الشبكة السلكية فوق النافذة ، وشعر من فرط السكون المخيم عليه كأنه فى مكان مهجور .. فأخذ

يرهف السمع فى لهفة وقلق ، ولكنه لم يسمع حسا ولا نأمة فى أى مكان ، ألم يبدأ اليوم هنا بعد بذلك الوقع المتكاسل لخطوات المتيقظين من النوم على الارضية الاسمنت ، أو بخشخشة مخالب الكلب وهو يتمطأ . أو بطرقة يد على الباب .. لا .. لا صوت .. ولا حسيس ولا شيء قط .. ترى .. فى أى وقت من الصباح هو ؟ كم ساعة مضت منذانبثق أول طيف من ضوء الفجر .. كان من العسير عليه ان يعرف .. فالوقت بالنسبة اليه كحبل من المطاط .. قد يمتد حتى درجة الفصم .. فلنفرض ، مع كل هذا ، أن الوقت هو بكور الصباح .. السادسة .. أو السابعة صباحا : لقد تبين فجأة الى أى حد كبير كان قد وضع فى حسابه أن يعتمد على تلك الصبية كورال .. فهى الشخص الوحيد الذى كان فى مقدوره أن يساعده دون أن يتعرض للخطر . وهو اذا لم ينجح فى اجتياز سلسلة الجبال الى حدود الولاية التالية خلال بضعة أيام قليلة ، فسوف يجد نفسه واقعا فى فخ رهيب .. ومن الاصوب له حينئذ أن يسلم نفسه للبوليس .. والا فكيف تتسنى له الحياة طوال موسم الامطار دون ان يعرض أهل القرى لمزيد من الخطر اذا لجأ اليهم طالبا المأوى والطعام ؟ ألم يكن من الافضل له ، والاسرع لنهايته لو أنهم تعرفوا عليه فى مركز البوليس منذ أسبوع ! وعندئذ سمع صوتا ضعيفا .. كأنه الامل يعود اليه فى حذر .. انه صوت خشخشة وحمحمة كلب .. ان هذا هو ما يعنيه الانسان حين يقول : طلع الفجر .. انه صوت الحياة .. وظل فى مكانه من الباب ينتظر .. ملهوفا .. جائعا ..

وجاء مصدر الصوت .. كلبة حراسة مخلطة « بزرميط » . جاءت تجر نصفها الخلفى عبر الفناء . وكانت مخلوقة دميمة الشكل متهدلة الاذنين ، مكسورة الساق ، تعوى فى خفوت .. وكان الواضح أنها مصابة فى ظهرها .. فقد كانت تتقدم ببطء شديد .. وكان فى مقدوره أن يرى ضلوعها كأنها بقايا حيوان معروض فى متحف

للتاريخ الطبيعي .. وقد كان يبدو عليها بوضوح أنها لم تذق طعاما منذ أيام .. كانت مهجورة ..

وكان يرتسم على وجهها - بالعكس منه - ومضات من الامل فالامل غريزة لا يستطيع أن يقتلها الا عقل الانسان المفكر .. أما الحيوان ، فانه لا يعرف معنى اليأس .. وكان وهو يراها تجر نفسها يدرك أن هذا كان يحدث يوميا ، ربما لمدة أسابيع .. كان يرى أمامه عملية متقنة التدريب كأنما هى نتيجة طبيعية لاسفار الصباح .. كأغنية الطيور فى جو أكثر سعادة .. وظلت تزحف حتى بلغت باب الشرفة الكبيرة . ثم راحت تخمش الباب بمخلبها وهى تنبطح على الارض وتمد أنفها بين الفرجات كأنما تشم ذلك الهواء الراكد فى الغرف المهجورة ، ثم أخذت تعوى بخفوت وضجر .. وحركت ذيلها فجأة كأنما شعرت بوجود أحد فى الداخل ، ثم بدأت تنبح .

ولم يستطع الراهب أن يطيل الانتظار .. فقد أدرك الان معنى نباحها ، ومن الخير له أن يرى بعينيه . فتقدم نحو الفناء ، والتفتت اليه فى ثقل وارتباك وهى تحاول أن تتخذ مظهر كلب الحراسة ، ثم شرعت تنبح فى وجهه .. انها لاتريد الاستئناس بانسان أيا كان وانما تريد ماتعودت عليه وأنست اليه . . تريد عالمها القديم أن يعود . وأطل بعينيه من خلال شبكة النافذة .. ترى أهذه غرفة الصبية .. انه لا يدرى ، فقد كانت مهجورة خالية من كل شىء الا من بعض المهملات .. صندوق من الورق المقوى ممتلىء بقصاصات ورق ممزق ، ومقعد بثلاث قوائم ، ومسمار ضخم مدقوق فى الجدار حيث كانت معلقة عليه صورة أو مرآة ، وقبقاب مكسور .

وظلت الكلبة تزحف فى الشرفة وهى تزمجر .. فقد كانت الغريزة بالنسبة لها كالاحساس بالواجب . . يمكن أن تكتسب بسهوله مع الوفاء .. واستطاع هو أن يتجنب الكلبة بسهولة وهو يخطو نحو المدخل الامامى ، ولم يكن فى مقدورها أن تستدير بسرعة

لتلحق به ، ودفع باب الفيللا ، فانفتح ، وكأنما لم يهتم أحد باغلاقه بالمفتاح .. ورأى جلد تمساح امريكى قديم سىء الدباغة والسلخ معلقا على الجدار . وسمع وراءه خنينا « الصوت الصادر من الانف » فاستدار بسرعة ليرى الكلبة وقد وضعت ساقيها الاماميتين على العتبة تنظر اليه فى سكون .. لقد أصبح الان داخل المنزل .. أى لم يعد فى نظرها غريبا . . وانما سيد تجب عليها الطاعة له .. وكان يبدو أن عقلها مشغول بمختلف أنواع الرائحة ، فراحت تزحف وهى تهمهم فى خفوت ..

وفتح الراهب الباب الذى على يساره .. ودخل غرفة ربما كانت للنوم .. ففى ركن منها رأى كومة من زجاجات الادوية لايزال فى بعضها بقايا سوائل مختلفة الالوان . وكان بينها أدوية للصداع ولحموضة المعدة ، وأدوية تؤخذ قبل الاكل ، وغيرها بعد الاكل ، مما يدل بوضوح على أن شخصا كان مريضا جدا لحاجته الى كل هذه الادوية . وكان هناك أيضا مشط شعر مكسور ، وكرة من الشعر المتساقط بعد تمشيطه .. شعر ذهبى ناعم أصبح أبيض بفعل الغبار .. وفكر لنفسه وهو يتنهد : لا شك أن المريضة كانت أمها .. أمها فقط ..

ودخل غرفة أخرى كانت تطل ـ عبر النافذة ذات الشبكة السلكية ـ على شاطىء النهر ذى المياه البطيئة الضحلة . . وكان يبدو عليها انها كانت غرفة الجلوس ، فقد رأى أنهم تركوا فيها منضدة للعب الورق من النوع الذى يطوى ويبسط ، مصنوعة من رقائق الخشب الرخيص .. ولم تكن تساوى أكثر من بضعة شلنات ، أى لا تستحق أن يهتموا بحملها معهم الى حيث ذهبوا .. ترى أين رحلوا ؟ انه يتساءل : هل اشتد المرض على الام وأشرفت على الموت ، هل حصدوا المحصول كله ثم رحلوا الى العاصمة لالحاق الام بالمستشفى .

وغادر هذه الغرفة ، ودخل غيرها .. انها الغرفة التى رآها من

الخارج .. غرفة الفتاة كورال .. وأفرغ صندوق الأوراق المهملة على الأرض فى شىء من الفضول الحزين وراح يلتقط بعض الأوراق ليقرأها وهو يشعر كأنما يختار بعض الذكريات العزيزة لشخص توفى ..

وقرأ فى احدى القصاصات « ان السبب المباشر لحرب الاستقلال الامريكية هو مايسمى بحفلة شاى بوسطون » ـ وبدا له أن هذه العبارة جزء من موضوع تاريخى مكتوب بخط جميل وبحروف مستديرة واضحة .. واستمر يقرأ « أما السبب الحقيقى » ـ وكانت الكلمة الأخيرة قد كتبت خطأ فضرب عليها وأعيدت كتابتها « فهو : هل كان من الجائز أن تفرض الضرائب على مواطنين ليس لهم ممثلون فى البرلمان ؟ » ـ ويبدو أن هذه الورقة كانت تحمل مسودة الموضوع لكثرة ماكان بها من تعديلات . والتقط قصاصة أخرى عنوا ، فوجد مافيها يتعلق بفريقين يدعى أحدهما : الهويجز ـ « حزب المحافظين » ـ ويدعى الفريق الثانى : التورى ـ « الأحرار » ـ ولكنه لم يفهم دلالة الاسمين ، وسمع فى تلك اللحظة كأن منفضة تسقط من فوق السقف الى الأرض ، فنظر ، فرأى أنها عقاب جوى ، وعاد الى ورقة أخرى يقرأ فيها « اذا كان خمسة عمال يستغرقون ثلاثة أيام فى حصاد حقل مساحته خمسة فدادين وربع ، فما مساحة مايحصده العاملان فى اليوم الواحد ؟ » وكان تحت السؤال خط مستقيم ، ثم مجموعة من الأرقام المختلطة التى لم تنته الى النتيجة المطلوبة . وكان يبدو على الورقة ، قبل أن تكمش وتلقى فى صندوق المهملات روح الضيق والتذمر التى سيطرت على الفتاة وهى تقوم بالعمليات الحسابية للوصول الى النتيجة على غير جدوى وكان فى مقدوره أن يتخيلها بوضوح وهى جالسة تعالج هذه المسألة الحسابية، بوجهها المستدير المليح وضفيرتى شعرها القصير ، وتذكر استعدادها لأن تقسم على الشعور بالعداء الدائم لكل من يسيىء اليه . وفى نفس الوقت تذكر ابنته بريجيتا وهى تحاول العبث به بجانب أكوام القمامة ..

وأغلق البـاب وراءه ، بعد خروجه من الغرفة ـ كأنما يريد أن يمنع شخصا ما من الهرب ، وسمع الكلبة وهى تزمجر فى مكان ما ، فمضى اليها حيث رآها فى الغرفة التى كانت مطبخا .. وفوجىء بها منبطحة باستماتة فوق عظمة كبيرة مغلفة باللحم ، وقد كشرت عن أنيابها ، وفى الوقت نفسه رأى خارج الشبكة السلكية لنافذة المطبخ وجــه غــلام من الهنود الحمر ، كأنه شىء معلق فى الشمس ليجف: أسمر .. مجعد .. منفر .. يركز نظراته على قطعة العظم كأنما يشتهيها .. ورفع الغــلام الهندى عينيه نحو الراهب وهو يدخل المطبخ ، ثم ابتعد واختفى وكأنما لم يكن له وجود ، تاركا البيت كما كان ، مهجورا ..

وركز الراهب ، أيضا ـ نظراته على قطعة العظم ..

كان عليها كثير من اللحم ، وكانت ثم سحابة صغيرة من الذباب ترتفع بضع بوصات فوق فم الكلبة التى حولت نظراتها عن النافذة ـ بعد انصراف الغلام الهندى الأحمر ـ وركزتها على وجه الراهب.. وشعر فجأة انه سيدخل مع الكلبة فى نزال حامى الوطيس ، فتقدم خطوة أو اثنتين ثم ضرب الارض بقدمه مرتين وهو يصيح بها «اذهبى» ثم عاد وصفق بيديه مكررا الصيحة ، ولكن الكلبة لم تتحرك ،وانما ازدادت استماتة فوق العظمة ، وقد تجمع فى عينيها المشتعلتين بين فكيها كل ماتبقى فى جسمها الـكسيح من مقاومة .. كانت تمثالا للكراهية فى ساعة الموت .. وتقدم الراهب نحوها فى حذر .. فقد كان لايزال غافلا عن عجزها عن الوثوب عليه .. كان يظن أنها ـ كأى كلب آخر ـ لن تلبث أن تهاجمه .. ويبدو انه نسى فى تلك اللحظة أن هذه المخلوقة كسيحة عاجزة ، وأنها ـ كأى آدمى مقعد ـ لاتستطيع الا أن تحول نشاطها البدنى الى تفكير .. ومن ثم كان فى مقدوره أن يرى فى تلك اللحظة أفكارها : الجوع .. والأمل .. والكراهية .. كلها مرسومة فى حدقة عينها ..

ومد الراهب يده نحو العظمة ، وارتفعت سحابة الذباب الى أعلى

قليلا .. وظلت الكلبة ساكنة فى مكانها ، صامتة ، تترقب .. وراح هو يتحدث اليها فى رفق ودعاء ويقوم بحركات خفيفة فى الهـواء لاغرائها على ترك العظمة ، ولكنها ظلت تنظر اليه لاتريم . واستدار بظهره أخيرا ، وتحرك بضع خطوات بعيدا عنها كأنما يشعرها بأنه تخلى عن العظمة لها . ووقف يردد لنفسه عبارات من القداس كأنما أمر العظمة لايعنيه ، ثم استدار بسرعة خارقة ووثب نحو الكلبة ، ولكن هذه لم تتزحزح أو تؤخذ على حين غرة ، وهكذا أفسـدت خدعته ..

واستبد به ـ حينئذ ـ الغضب .. كيف تسرق هـذه الكلبة « البزرميط » الكسيحة الطعام الوحيد المتاح له ! ووجه اليها عبارة سباب من هذه العبارات التى طالمـا سمع الدهماء يتبادلونها . . ولو كان فى موقف آخر لشعر بأشد الدهشة لانطلاق لسانه بمثل هذه العبارة فى سرعة وسهولة . .وفجأة وجد نفسه يضحك .. فها هى ذى الكرامة البشرية تنحدر الى مستوى العراك مع كلبة من أجل قطعة عظام ! وتراجعت أذنا الكلبة الى الوراء حين سمعت رنين ضحكاته ، وكأنما بدأ الشعور بالخوف يخامرها .. ولكنه لم يشعر نحوها بأى عطف أو رثاء .. فقد كان يعلم أن حياته هو أهم بكثير من حياتها ، ومن ثم راح يتلفت حوله باحثا عن شىء يقذفها به .ولكن المطبخ كان خاليا ـ تقريبا ـ من كل شىء فيما عدا العظمة ، ومن يدرى ؟ فلعلها أن تكون متروكة ـ عن عمد ـ من أجل الكلبة . وفى مقدوره أن يتخيل الفتاة كورال وهى تتذكر ـ قبيل الرحيل مـع والدتها المريضة ووالدها الأحمق ـ الكلبة العاجزة . فقد شعر أثناء زيارته الأولى للاختفاء ، أن هذه الفتاة هى التى كان يقع على كاهلها عبء التفكير فى كل شىء ..

وأخيرا عثر على قطعة من قضيب حديدى رفيع كان جزءا من مصفاة الخضروات فأمسك به وتقدم نحو الكلبة وضربها خفيفا على فمها . وحاولت هى ـ دون ان تتحرك من مـــوضعها ـ أن تلقف

القضيب بأسنانهاالعتيقة المحطمة ، وعاود الضرب بشدة .. وأمسكت هى بالقضيب بين أسنانها ، فانتزعه بعنف وراح يضرب مـرة بعد مرة قبل أن يتبين أخيرا أنها لاتستطيع أن تتحرك الا بصعوبة وبطء شديد وانه لم يكن فى وسعها الا ان تتحمل قسوة الضرب وعيناها الصفراوان تحدقان فيه ـ بين كل ضربة وأخرى ـ بنظرات كلهـا الفزع والشر .

ولما تبين هذا قرر ان يغير خطته ، واستعمل القضيب كانه نوع من الكمامة ووضعه بين فكيها بينما انحنى واختطف العظمة من بين أسنانها . وحاولت أن تخشمه بمخلبها ، ولكنها عجزت .. ووثب هو بعيدا بعد أن ألقى بالقضيب من يده ، وبذلت الكلبة كل جهدها ـ على غير جدوى ـ لتلحق به ، وأخيرا تهالكت على الارض فى استسلام لقد انتصر عليها وظفر بالعظمة دونها فليس ثمة جدوى من الدمدمة والزمجرة ..

وانتزع الراهب باسنانه شريحة من اللحم ـ غير الناضج ـ وراح يمضغها بنهم .. انه لم يأكل فى حياته طعاما أعذب مذاقا .. واذ هو يشعر بالسعادة فى تلك اللحظة ، فقد بدأ يحس بالعطف نحو الكلبـة ومن ثم فكر فى نفسه : لسوف آكل الجزء الاكبر ثم أترك لها الباقى . ووضع بخياله علامة على العظمة لنصيبه الذى سيأكله ، ثم انتزع شريحة أخرى ، وزال احساسه بغثيان الجوع الذى كان يشعر به منذ ساعات ، وحل محله احساس بالجوع الحقيقى ، فمضى يأكل والكلبة ترقبه بهدوء ، فقد بدأ عليها أنها لم تعد تشعر نحوه بالحقد أو الكراهية بعد ان انتهت المعركة بينهما ، واكتفت بان أخذت تهز ذيلها له كأنما تأمل فى انه سيعطيها شيئا مما يأكله .. وبلغ الراهب العلامةالوهمية التى حدد بها ـ بالخيال ـ نصيبهمن لحم العظمةولكنه كان يخيل اليه حينئذ ان شعوره السابق بالجوع كان وهما وانه الان يشعر بالجوع الحقيقى الرهيب .. ثم ان مايحتاجـه الانسان لاشك اكبر وأهم مما يحتاجه الكلب .. ولا بأس من أن يترك لها هذا

الجزء الكبير من اللحم عند مفصل العظمة ، ولكنه لم يلبث ان أكل هذا أيضا حين وصل اليه .. على كل حال فان للكلبة اسنانا قوية تستطيع بها أن تأكل العظمة نفسها ..

وألقى بالعظمة الخالية الا من بقايا ضئيلة من اللحم عند فم الكلبة وغادر المطبخ ومضى ، مرة أخرى ، يجوس خلال الغرفات المهجوره . قبعات هنا .. زجاجات أدوية هناك .. موضوع انشائى عن حرب التحرير الامريكية .. ولكن لاشيءينم عن السبب فىرحيلهم . وخرج الى الشرفة حيث رأى من ثغرة فى سياجها الخشبى كتابا ملقى على الارض بين عمودين من الاعمدة التى يقـــوم عليها المنزل بعيدا عن مسير النمل البرى . وكان قد مضى عليه أشهر طوال لم ير فيها كتابا وكان فى موضعه هناك بين بعض المهملات كأنه شعاع من البشرى فى حياة مقبلة أفضل .. حياة فى مساكن خاصة ذات أجهزة استقبال لاسلكى وارفف الكتب ، وسرر مجهزة للنوم ، ومفارش لمـــوائد الطعام .. وركع على الارض ومد يده وتناول الكتاب وهو يدرك فجأة انه اذا استطاع ان يجتاز الجبال الى لولاية الاخرى ــ قـــد يستطيع ان يستأنف حياته الماضية .. حياة الدعة ، والامن والاستقرار ..

وكان كتابا انجليزيا . .ولما كان قد امضى بضعة أعوام فى احدى الكليات الامريكية فقد استطاع بشيء من الصعوبة أن يقرأ فيه ، وحتى لو عجز عن فهم معانى العبارات المعقدة فيه ، فقد كان كتابا على كل حال .. وكان اسمه « جواهر من خمس قصائد طويلة : كنز من الشعر الانجليزى » وعلى ورقة الغلاف الداخلية طبعت بضع كلمات كأنها شهادة مقدمة الى ... ثم اسم كورال فيلوز مكتوب بقلم حبر ثم عبارة « تقديرا لامتيازها فى الموضوعات الانجليزية الانشائيــة . بالفرقة الثالثة » ثم تحت هذا شعار المعهد المكون من درع حديدى وجسم أسد طائر ، وورقة من شجر الصنوبر مع حـكمة لاتينيـة « الفضيلة هى المعرفة » ثم توقيع المعهد بخاتم مطاطى « هنرى بيكلى بكالوريوس آداب »

وجلس الراهب على درج الشرفة .. السكون مخيم حـوله .. ولا أثر للحياة فى مركز شركة الموز المهجور ، فيما عدا عقاب جوى لم يفقد الأمل بعد . أما الغلام الهندى الذى رأى وجهه خارج نافذة المطبخ ، فكأنما لم يكن له وجود قط ، وفكر الراهب فى نفسه بشيء من المتعة : لابأس أن اقرأ قليلا بعد وجبة الطعام . وفتح الـكتاب على أية صفحة. . كورال هذا هو اسم الفتاة : انه يعنى « مرجان » .. وانه يفكر فى المحـلات الكثيرة بمدينة فيراكروز التى تبيع أحجار المرجان بكثرة ، وانه ليذكر كيف تعود الاهالى أن يشتروا لبناتهم قطعا من الحلى المرجانية بعد أول احتفال دينى يحضرنه ..

وراح يقرأ هذا المقطع من احدى القصائد :

« اننى آت من مأوى الضباع وأوكار الدجاج المائى ..

« بعد أن قمت بهجوم فجائى ...

« وفترت الاضواء بين حقول الخنشار ..

« لتتنافس بين السهل والوادى .. »

وكانت قصيدة غامضة ، بالنسبة اليه ــ كل الغموض ، زاخرة بالالفاظ الغريبة النادرة وكأنها لغة الاسبرانتو « العالمية » . وفـكر لنفسه : اذن فهذاهو الشعر الانجليزى ! عجبا .. أن القصيدةالصغيرة التى يحفظهاتدورحول العذاب ، والندم ، والأمل ، أما هذهالاشعار ، فانها تنتهى بمعان فلسفية « فقد يأتى رجال وقد يذهب رجال ، ولكننى ذاهب الى الأبد .. » وهز أعصابه ماتنطوى عليـه كلمـة « الى الأبد » من مبالغة وبعد عن الحقيقة .. فان قصيدة كهـذه لايجوز أن تلقى بين أيدى الاطفال والصبية . وأقبل العقاب الجوى يتواثب فى الفناءمغبرامتربا ، وحيدا .. وكان بين الحين والآخر يبسط جناحيه ويطير نحو عشرين ياردة ثم يحط فى مكان آخر من الفناء ..

وعاد الراهب يقرأ مقطعا آخر من قصيدة أخرى .

« هتف فى حزن : عودى الى .. عودى الى ..

« عبر الأمواج الصاخبات ..

« وسوف أغفر لفتاك .. النبيل الاسكتلاندى
« ياأبنتاه .. ياأبنتاه .. » .

وبدا له هذا المقطع أشد فى النفس تأثيرا ، ولكنه ، أيضا ، لايصلح لقراءة الأطفال . وأحس بالكلمات الأجنبية ترن فى أعماق نفسه بالعاطفة العبقرية وهو جالس على درج الشرفة ، وحيدا ، يردد لنفسه « يا ابنتاه .. يا ابنتاه .. »

وكأنما كانت الكلمات مفعمة بكل ماتمتلىء به نفسه من ندم ولهفة وحب شقى ...

. . . .

وخيل اليه وهو يمضى فى طريقه نحو الجبال ، ان مشاعر عجيبة غريبة تدب فى أعماق نفسه .. فمنذ تلك الليلة التى قضاها فى الزنزانة الحارة الرهيبة ، وهو يشعر انه قد انتقل فجأة الى عالم مهجور .. وكأنما هو قد مات هناك ، حيث كان العجوز يضع رأسه على كتفه — ثم انتقل الى عالم مائع لا هو بالجنة ، ولا هو بالنار ، لأنه لم يكن صالحا جدا أو شريرا جدا . وان المشاعر العجيبة الغريبة التى تدب فى أعماق نفسه الآن توحى اليه بأن الحياة لم تعد ذات وجود بالنسبة اليه .

وعندما قصف الرعد وبدأ هبوب العاصفة ، انطلق الى أحد لاكواخ للاحتماء ، وهو يعلم تماما أنه سوف يجد .. لاشىء .. !

وخيل الى ناظريه أن الاكواخ البعيدة تتواءب فى ضوء البرق الخاطف ، ثم تبقى فى مكانها ترتعش لحظة قبل أن تختفى مرة أخرى فى الظلام . . ولم يكن المطر قد وصل بعد الى المنطقة الجبلية . كان لا يزال فى طريقه من خليج كابيش كأنه ملاءات ضخمة تغطى أجزاء الولاية كلها شيئا شيئا فى نظام مطرد .. وقد كان يخيل اليه ، بين فترات هزيم الرعد ، انه يسمع حفيفا هائلا يتقدم نحو الجبال التى غدت الآن دانية منه .. على بعد عشرين ميلا ..

وبلغ فى مسيره أول كوخ فى احدى القرى .. ودفع الباب المفتوح

ودخل ، وعندما سطع البرق ، لم ير ــ كما كان يتوقع ــ شيئا فى الداخل .. مجرد كومة من الاذرة ، وخيال غامض صغير .. ربما كان لفار هارب .. واندفع نحو الكوخ التالى ، ولكنه كان كغيره ، كومة الاذرة ، وأشباح الفيران .. ولا شىء آخر .. كأنما كانت الحياة الانسانية تنحسر فى الطريق كلما تقدم .. كأنما هناك « شخص » يصر على أن يبقيه ــ منذ الآن والى الابد ــ وحيدا فى الحياة .. وحيدا تماما ..

وفيما كان واقفا فى مدخل أحد الاكواخ ، شاهد المطر وهو يقترب من حافة الساحة ، وكان آتيا من الغابة كأنه سحابة كثيفة من الدخان الابيض المتحرك .. كأنما معسكر الاعداء فى الحرب قد أطلق سحبا من الغازات السامة فى جو المنطقة كلها ، عن عمد ، حتى لا ينجو منه أحد البتة . وكانت سحائب المطر تتحرك برهة ثم تتوقف ، كأنما قائد معسكر الاعداء قد وضع ساعة آلية فى جهاز خاص لتحديد المدة التى تظل فيها سحابة الغاز الخانق فوق كل منطقة حتى تقضى تماما على كل الاحياء فيها .. واحتمل سقف الكوخ وابل المطر المنهمر فوقه ، فترة وجيزة ، ثم بدأت أخشابه تنحنى تحت ثقل الماء المتجمع ، ثم اذا بعض الواحه تنفصل وينهمر منها الماء المتجمع كأنه ينطلق من فوهات مداخن سوداء .. واخيرا ابتعد جدار المطر عن منطقة الاكواخ ، فتوقف انهمار المزيد منه على سقف الكوخ ، ولكن أخشابه ظلت تسقط ما تبقى فوقها كأنها مصفاة .. وظل جدار المطر يتحرك فى طريقه نحو سلسلة الجبال ، والبرق يسطع فى مؤخرته كأنه نيران مدافع حارسه ، وأدرك الراهب أن وابل المطر سوف يصل الى مسارب الجبال بعد دقائق معدودة ، فاذا تكررت هذه العاصفة المطرة بضع مرات ، فسوف تصبح ممرات الجبال مستحيلة العبور ..

وشعر بالتعب بعد أن ظل يسير طوال اليوم ، فلما عثر على مكان جاف فى الكوخ ، جلس يستريح .. وكان يستطيع ــ من مكانه ــ

أن يرى الساحة الواقعة أمام الاكواخ كلمـــا ومض البرق .. وكان صوت سقوط بقايا المطر يملا الجو حوله .. وشـــعر بما يشـــبه السكينة والسلام يخيم على المنطقة .. ولكنه لم يكن ســلاما كاملا .. لأن السلام الكامل يحتاج الى صحبة آدمية .. أما هو ، فقد كان وحيدا ، مهجورا ، يحس كأنه مهـــدد بشيء ما ، وفجأة تذكر ـ دون سبب واضح ـ يوما مطيرا عندما كان بالمعهد الامريكى ...
فتذكر زجاج نوافذ المكتبة وهو يغيم ببخار أجهزة التدفئة المركزية وأرفف الكتب ، وشابا غريبا من مدينة توكسون كان يرسم الحروف الاولى من اسمه على زجاج النافذة المغيم بأصبعه ، وأدرك أن السلام هكذا يجب أن يكون .. دعة وأمن وصحبة آدمية .. انه يتـذكر هذه الصورة كأنما يراها من خارج النافذة .. وانه لا يصـــدق أن الايامستتيح له مرة أخرى هذا الشعور العميق بمعنى السلام ...
فقد صنع بيـديه عالمه هذا الجديد : الاكواخ المهجورة المنهارة .. والعواصف المتحركة .. وشعر بالخوف مرة أخرى ، الخوف لانه أدرك فجأة .. أنه ليس وحيدا .

ان وقع أقدام شخص مجهول تسمع خارج الكوخ وهو يتقـدم بحذر بضع خطـوات ثم يتـوقف .. وظل الراهب فى مكانه ينتظر بشعور متبلد .. بجمود .. وظلت قطرات ميـاه المطر تتساقط وراءه .. وخطر بباله فى تلك اللحظة ذلك الرجل المولد ذو النابين وهو يذرع شوارع المدينة بقدميه الحافيتين متحينا الفرصة لخيانته وتسـليمه ..

وأطل عليه ، من مدخل الكوخ ، وجـه ، ثم تراجـع بسرعة .. وكان وجه امرأة عجوز ، ولعلها أن تكون شابة ، فهو لا يجزم ، لان وجوه الهنود الحمر كلها متشـــابهة فى نظره ، ونهض من مكانه ، ومضى الى الخارج ، حيث رآها تتراجع عنه بسرعة فى ثوبها الثقيل الفضفاض الذى يشبه الغرارة ، وجدائل شعرها الاسـود المتحركة على ظهرها ببطء . وأدرك أنه لن يرى فى وحدته الا بعض هــذه

الوجوه التى كأنها تبرز له من العصور الحجرية ، ثم تتراجع بسرعة .

وتحرك بين جانبيه غضب مفاجىء : فما كان لهذه المرأة أن تتراجع عنه .. ودفعه الغضب الى الانطلاق وراءها عبر الساحة ، وراح يخوض برك الماء المتجمع بعد المطر . ولكنها سبقته الى الغابة ، وأدرك انه لا جدوى من البحث عنها هناك ، فقفل راجعا الى أقرب كوخ اليه ، ولم يكن هو الكوخ نفسه الذى احتمى فيه من المطر ، ولكنه كان أيضا مهجورا ، ترى ماذا دهى هؤلاء الناس ؟ حقا انه يعلم جيدا أن هذه الاكواخ ما هى الا مساكن مؤقتة ، لان الهنود الحمر تعودوا أن يزرعوا مساحة من الارض بالاذرة ، فاذا استنفدوا خصوبة التربة ، رحلوا الى مكان آخر خصيبة أرضه . انهم لا يعرفون شيئا عن نظام الدورات الزراعية وتنوع المحاصيل ، ولكنهم ، عند ما يرحلون ، يأخذون معهم أكوام الاذرة المدخرة ، أما الرحيل عن هذه الاكواخ فقد كان أقرب الى الفرار منه الى أى شىء آخر .. الفرار من وباء .. أو من رجال البوليس ؟ وقد سبق له أن سمع عن مثل هذا الفرار فى أوقات الوباء .. والخطر الداهم ، وكانوا يحملون المرضى معهم أينما ذهبوا .. وكان الاضطراب فى بعض هذه الاحوال ، يشيع فى نفوسهم ، فاذا هم يتخبطون كالذباب على ألواح الزجاج ، ولكنهم فى مثل هذه الحالات لا يدعون أحدا يشعر بما هم فيه ...

واستدار نحو الساحة ، وراح ينظر الى الغابة فى شىء من الذهول وما لبث أن رأى المرأة الهندية تتسلل من مخبئها وتتجه فى حذر نحو الكوخ الاول ، فهتف عليها فى صوت حاد ، واذا هى تتراجع بسرعة نحو الغابة وقد بدت له كأنها حيوان طائر مكسور الجناح .

ولم يتحرك هذه المرة من مكانه ليتبعها .. وتوقفت هى عند حافة الغابة وراحت ترنو اليه ، وعاد هو يسير ببطء نحو الكوخ الاول ، وقد حدث أن التفت وراءه ، فرآها تتبعه من بعيد وهى تركز نظراتها عليه .. ومرة أخرى بدت له كأنها حيوان طائر مكسور

الجناح مهموما قلقا .. ومضى فى طريقه صوب الكوخ ، وكان وميض البرق عند الافق ينطلق الى الارض كالسهام ، ولكن دوى الرعد كان أبعد من أن تلتقطه الاذن . وبدأت السماء تصفو فوقه ، وأطل القمر من وراء السحب ، وفجأة سمع صيحة عجيبة مصطنعة ، فالتفت وراءه فرأى المرأة وهى تنطلق مسرعة نحو الغابة ، ثم اذا هى تتعثر وتنكفىء وتسقط كأنها الطائر يستسلم للصياد ..

وأيقن حينئذ أن بالكوخ شيئا هاما .. ربما يكون مخبوءا بين أكوام الاذرة ، ومن ثم لم يحفل بأمر المرأة ومضى نحو الكوخ .. وفى الداخل لم يستطع أن يرى شيئا بسبب الظلام الجاثم ، فراح يتحسس المكان بيده حتى لمس كومة الاذرة ، وفى الخارج سمع وقع أقدام المرأة وهى تقترب ، وعاد يتحسس الكومة وهو يأمل أن يجد كمية من الطعام واللحوم مخبوءة فيها .. واجتمع حسيس أوراق الاذرة الجافة مع الرنين المكتوم لتطرات مياه المطر المتساقط ، مع وقع أقدام المرأة المتلصصة .. وكان يشبه اجتماع هذه الاصوات كلها بتلك الاصوات الخافتة التى تصدر عن بعض الناس المشغولين بأعمالهم الخاصة . وفجأة شعر بيده تلمس .. وجها ..

ولم يكن فى قلبه مجال لمزيد من الخوف من شىء كهذا .. لقد وجد أصابعه تتحسس جسما آدميا .. وقد تبين بعد قليل انه جسم صغير .. لطفل راقد فى سكون تام تحت يده .. وفى مدخل الكوخ ، كان ضوء القمر يكشف وجه المرأة الواقفة بوضوح ، وبدا له كأن القلق واللهفة يهزان أعماق نفسها .. ولكنه لم يكن يستطيع الجزم .. وأخيرا قرر أن يخرج هذا الجسد الصغير المسجى الى العراء ..

وفى خارج الكوخ رأى أن الجسد المسجى ، لطفل فى نحو الرابعة من عمره .. له رأس مستطيل مكمش وخصلة من الشعر الغزير .. ولم يكن ميتا ، وانما مغشى عليه ، فقد كان فى مقدوره أن يشعر بنبض خفيف فى صدره .. وخطرت له فكرة المرض أو الوباء ، ولكنه فوجىء ، حين رفع يده ، برؤية الدماء على الصدر .. الدماء التى

ظنها فى أول الامر عرقا .. وخامره شعور بالفزع والاستنكار .. ان العنف فى كل مكان ، أليس لمثل هذا العنف نهاية ؟

وسأل المرأة فى حدة :

« ماذا حدث .. ؟ »

وكان موقفه معها ، أو شعوره نحوها ، كشعور رجل أمام رجل فى المنطقة كلها ..

وركعت المرأة على مسافة قدمين أو ثلاث وهى ترقب يديه .. وكانت ــ كما بدا له ــ تعرف بضع كلمات من الاسبانية لانها أجابته قائلة :

« الامريكى الهارب .. »

وكان الطفل ملفوفا بقطعة قماش كبيرة قاتمة ، فرفع الراهب حافتها الى عنقه وقد تبين له أنه أصيب بالرصاص فى ثلاثة مواضع ، وأن الحياة تنسال منه لحظة بعد أخرى .. ولم يكن ــ فى الواقع ــ ما يمكن أن يؤدى الى انقاذه ، ولكن على الانسان أن يحاول ولا يستسلم لليأس .

وقال للمرأة :

« ماء .. »

وكرر الكلمة بضع مرات ، ولكنها لم تفهم معناها ، فظلت جالسة فى مكانها ترقبه . وخطر له أن من الخطأ الشديد أن يعتقد الانسان بأن شخصا مالايشعر بالحزن العميق الذى يحز فى نفسه لان نظراته لا تعبر عما فى نفسه .. فقد رآها تتحفز كلما لمس الطفل بيده ، وأيقن أنها لن تتردد فى الوثوب عليه وتمزيقه بأسنانها لو أن الطفل تأوه فقط فى ألم بين يديه ..

وبدأ يتحدث فى بطء ورفق « فهو لا يستطيع أن يعرف مدى ادراكها » فقال :

« يجب أن نحصل على مياه لنغسل الطفل .. ولا داعى لان تخافى منى ، فانى لن أسىء اليه .. »

ثم خلع قميصه وراح يمزقه الى شرائط ، وكان هذا العمل ينم عن جنون اليائس .. ولكن .. ماذا كان فى وسعه أن يفعل غير هذا الا الدعاء والصلاة ــ طبعا ــ ولكن مثله لا يصلى بجانب المحتضر من أجل الحياة .. هذه الحياة .. ! وعاد يكرر للمرأة كلمة « الماء » . ويبدو أنها أدركت فى النهاية ، فراحت تتلفت فى غير أمل نحو ميـاه الامطـار المتجمعة فى برك صغيرة .. ولم يكن ثمة ميـــاه أخرى فى المكان . حسنا ــ هكذا فكر ــ ان الارض لا تكاد تقل نظافة عن أى وعاء يستعمله هؤلاء الناس . وبلل جزءا من قميصه وانحنى على الطفل .. وسمع المرأة وهى تزداد اقترابا منه فى خطوات تنم عن الحذر والتحفز ، وحاول أن يطأمن من روعها مرة أخرى ، فقال لها :

« لا داعى للخوف منى .. فانى راهب .. »

وفهمت المرأة كلمة « راهب » فانحنت وأمسكت باليد القابضة على الشريط المبلل وقبلتها . وفى اللحظة التى لمست شفتاها يده ، اختلج وجه الطفل وفتح عينيه وحدق فيهمـــا .. واهتز الجسم الصغير بنوبة الم عميق ، ورأى الاثنان حدقتى العينين وهما تدوران الى أعلى ثم تثبتان ، كأنهما بليتان على لوح مفرد أصفر دميم بعد الموت .

وتركت المرأة يده ، وأسرعت متعثرة نحو المياه المتجمعة وحملت قليلا منها بين كفيها ، بينما كان الراهب يقول لها :

« لم نعد فى حاجة الى شيء من هذا الآن »

ووقف برهة ممسكا قميصه المبلل ، وتركت المرأة الماء ينساب من كفيها وهى تقول فى توسل ورجاء :

« أبى ــ ! »

وأدرك مقصدها ، فركع على ركبتيه وبدأ يصلى . .

ولما فرغ ، حمل الطفل بين يديه ، وعاد به الى الكوخ كأنه قطعة من الاثاث ، وتبعته المرأة فى وداعة وهدوء ، وبدا عليها أنها لا تريد

أن تلمس جسد ابنها ، وانما اكتفت بمراقبته وهو يضعه فوق كومة الاذرة ، ثم وهو يجلس ويقول ببطء :

« علينا أن نقوم بدفنه .. »

وفهمت حديثه وأومأت برأسها .. فقال :

« أين زوجك ، هل سيقوم بالمعاونة ؟ ؟ »

وراحت تتحدث بسرعة .. ولم يستطع أن يفهم من عباراتها الا كلمات قليلة اسبانية .. وتكررت كلمة « الامريكى الهارب » وتذكر هو المجرم الامريكى الهارب من العدالة ، الذى علقت صورته فى مكتب ضابط البوليس بجانب صورته هو ، وسألها :

« هل هو الذى فعل هذا ؟ »

فلما هزت رأسها نفيا ، راح يتساءل : اذن ما حدث ، هل حاول المجرم أن يلجأ الى هنا هاربا من المطاردة ، فاضطر رجال البوليس الى اطلاق النار جزافا على الاكواخ ، ان هذا احتمال مرجح .. وفجأة لفت سمعه من حديثها عبارة « مركز شركة الموز » فماذا تعنى ؟ انه لم ير أحدا يموت هناك ، ولم يكن ثمة أثر للعنف أو المقاومة الا اذا كان السكون والرحيل المفاجىء هما الاثر على المقاومة والعنف ! لقد ظن أن رحيل الاسرة يرجع الى اشتداد المرض على الام ، ولكن .. قد يكون هناك سبب أسوأ ، فمن يدرى ، فلعل ذلك الاحمق الكابتن فيلوز حاول أن يقاوم المجرم الهارب بالسلاح ، فراح ضحية مقاومة مجرم لا يحسن شيئا الا المبادرة فى اطلاق النار .. وهذه الطفلة المسكينة كورال .. أى أعباء جديدة اضطرت الى حملها اذا كان والدها قد مات حقا ..

وطرد هذا الخاطر عن ذهنه وسأل المرأة قائلا :

« أيوجد هنا جاروف ؟ »

ولم تفهم عبارته ، فاضطر لان يقوم أمامها بحركات الرجل الذى يحفر حتى تفهم ، ودوى هزيع الرعد قريبا منهما ، وبدا له بوضوح أن عاصفة ممطرة أخرى تقترب ، وكأنما الاعداء قد فطنوا الى أن

غارة الغازات السامة الأولى قد تركت وراءها بعض الاحياء ، فأرسلوا غارة أخرى لتقضى عليهم ، وعاد يسمع الانفاس الهائلة للمطر على مسافة أميال ، وسمع المرأة تذكر فى حديثها كلمة مفهومة واحدة هى « الكنيسة » وكان محصولها اللغوى من الاسبانية مجرد كلمات مفردة قليلة ، وتساءل فى نفسه : ماذا تعنى بهذه الكلمة ؟ وعندئذ وصلت الامطار اليهما .. فاذا هى تنهمر كأنها جدار يحول بينه وبين مواصلة الهرب . وساد الظلام الكثيف حولهما لا يخترقه بين الحين والاخر الا وميض البرق ..

وعادت مياه المطر المتجمعة فوق السقف تتساقط بغزارة فى كل مكان داخله . وراحت أوراق الاذرة الجافة ــ حيث وضع جسد الطفل ــ تئز كأنها خشب محترق ، وسرت في جسمه رعدة برد ، وشعر أنه على وشك الاصابة بالحمى ، ولهذا يجب أن يمضى قبل أن يعجز تماما عن الحركة ، وسمع المرأة ــ التى لم يعد يراها بسبب كثافة الظلام ــ تتحدث اليه فى صوت ينم عن اللهفة والرجاء ، وخطر له انها تريد أن تدفن طفلها بالقرب من كنيسة أو عند قدمى صورة المسيح فى المحراب . وانتهز فرصة وميض طويل للبرق ثم أشار لها بيديه أن ما تريده مستحيل ، ثم قال « رجال البوليس » . فأجابت عليه قائلة « الامريكى » وكانت هذه الكلمة الاخيرة تتردد كأنها كلمة لها معان كثيرة تفسرها نبرة الصوت الناطق بها : هل هى تفسير .. أم تحذير .. أم تهديد ! لعلها تريد أن تقول أن رجال البوليس مشغولون بمطاردة المجرم الامريكى ، ولكن اذا افترضنا هذا ، فان المطر قد أفسد كل شىء . فقد كان بينه وبين حدود الولاية التالية مسافة عشرين ميلا عبر الجبال . ولا شك أن الممرات الجبلية بعد هذه النوبة الثانية من المطر قد أمسى عبورها فى حكم المستحيل .. ثم ــ الكنيسة ــ انه لا يدرى أين يمكن أن يرى كنيسة فى هذه المنطقة .. فقد مضت عليه سنوات دون أن تقع عيناه على واحدة منها .. بل أصبح من العسير عليه أن يصدق أن

ثمة كنائس ومعابد لا تزال مقامة على مسيرة بضعة أيام قليلة من مكانه هذا .

وعندما ما ومض البرق مرة أخرى ، شاهد المرأة وهى ترقبه فى صبر لا ينفد ..

... ...

ثلاثون ساعة مرت على الراهب والمرأة الهندية الحمراء وهما يعيشان على قوالب من السكر الاحمر . كل قالب منهما فى حجم رأس الطفل المتوفى .. لم يريا فى خلال هذه الفترة أحدا ، ولم يتبادلا حديثا ، وما جدوى الحديث وكل محصولهما من الكلمات المشتركة المفهومة لا يتجاوز كلمتين « الكنيسة » و « الامريكى » . وكانت المرأة تسير وراءه مباشرة وهى تحمل على ظهرها جثمان الطفل ، ولم يكن يبدو عليها أى اثر للتعب وهى تسير بغير توقف . وبعد يوم وليلة من المسير المتواصل خرجا من منطقة المستنقعات الى سفوح التلال . وناما على ارتفاع خمسين قدما من مياه النهر الخضراء محتمين بصخرة كبيرة على بقعة من الارض جافة ، وقد كانت الاوحال العميقة حولهما فى كل مكان . وجلست المرأة معتمدة برأسها على ركبتيها المرفوعتين الى صدرها دون أن ينم وجهها عن أى أثر للعاطفة أو الانفعال . وكانت قد وضعت طفلها وراء ظهرها كأنما تخشى عليه من الضياع لكأنما هو شىء ثمين . وكانا قد بدآ الرحيل مع الشمس حتى أوضحت لهما الغابات النامية على سفوح الجبال معالم الطريق الذى سيمضيان فيه .. وكانا فى تلك المنطقة الموحشة الساكنة كأنهما انسانان كتبت لهما النجاة والحياة فى عالم يحتضر .. وقد حملا معهما الدليل على هذا الاحتضار ..

وكان الراهب فى بعض الاحيان يتساءل : هل بلغ حد النجاة ! ولكنه لا يلبث حين لا يرى معالم حدود بين ولاية وأخرى أو مركز تفتيش جمركى ، أن يشعر بالخطر يظلله ، ويرحل معه ، وينقل خطواته الثقيلة فى نفس الاتجاه الذى يسير فيه . لقد بدا له أنهما

يتقدمان ببطء شديد .. فلا يزال عليهما أن يسيرا فى ممر جبلى يرتفع بعنف نحو خمسمائة قدم ، ثم يعود فينحدر ، والاوحال العميقة تغمره . وقد حدث أن دارا حوال منطقة خطيرة وهما يسيران فى ممر ضيق كالشعرة يطل على هاوية عميقة ، وبعد أن اجتازاه ، وجد أنفسيهما بالقرب من مكان البدء .. على مسافة مائة ياردة فقط .

وفى غروب اليوم التالى ، وصلا الى هضبة واسعة مكسوة بطبقة من العشب القصير ، وكان ثمة مجموعة عجيبة من الصلبان السوداء مقامة على الارض ، بعضها رأسى نحو السماء ، وبعضها مائل بزوايا مختلفة .. منها ما يبلغ ارتفاعه نحو عشرين قدما ومنها مالا يتجاوز ثمانية أقدام . وكانت المجموعة تشبه شتلات من الشجر ترك لينمو ويثمر ... وتوقف الراهب وراح يحدق فيما يرى .. فقد كانت هذه هى المرة الأولى ، وبعد أكثر من خمسة أعوام ، يرى فيها رمز المسيحية قائما فى مكان عام ــ اذا أمكن أن تكون هذه الهضبة المهجورة مكانا عاما ــ وكان منظر هذه الصلبان ينم بوضوح على أن القساوسة والرهبان ليس لهم يد فى اقامتها ، وانما الهنود الحمر هم الذين أقاموها بطريقتهم البدائية وبتفكيرهم الساذج . فقد كانت خالية من هذه اللمسات الفنية التى تتفق مع مراسم القداس ، ونماذج الطرق الدينية . كانت كأنهــا أقصر طريق الى قلب عقائد الهنود الحمر المبنية على الاسرار والسحر .. الى الليالى المظلمة ، عندما تفتح القبور ، ويسير الموتى . !

واستدار فجأة عند ما سمع حركة وراءه ..

كانت المرأة قد ركعت على ركبتيها وراحت تزحف ببطء نحو مجموعة الصلبان وجسد الطفل الميت يتأرجح على ظهرها .. فلما وصلت الى أكثر الصلبان ارتفاعا ، حلت رباط الجثة المشدودة الى ظهرها ، ثم حملتها بين يديها ووضعتها بوجهها ، أولا .. أمام قائمة الصليب ، ثم ادارتها ووضعتها بظهرها ، ثم راحت ترسم علامة

الصليب على نفسها ، لا بالطريقة الكاثوليكية المعروفة ، وانمابطريقة أخرى معقدة تشمل الانف والاذنين .. ترى هل كانت تتوقع معجزة ؟ ان الراهب يتساءل : واذا كانت تتوقع حدوث معجزة ، فلماذا لا يتحقق أملها !! فان الايمان ــ كما قرأ وعرف وسمع ــ يمكن أن يحرك الجبال .. وهاهو ذا يرى ، فى هذه المرأة الساذجة هذا الايمان الحق .. الايمان الذى يشفى الاعمى ويحيى الموتى باذن الله .. وكانت نجوم الليل تتألق فى صفحة السماء هناك بالقرب من حافة الهضبة ، كأنما فى مقدور الانسان أن يصل اليها ويلمسها ، وانساب فى الجو نسيم دافىء خفيف ، ووجد الراهب نفسه يتأمل الطفل برهة كأنما يتوقع أن يراه يتحرك ، فلما لم يتحرك ، خيل اليه أن السماء أفلتت الفرصة من يدها .. وكانت المرأة الجالسة ، قد تناولت من لفافتها قالبا من السكر الأحمر وراحت تقضم منه بينما جثة الطفل مسجاة عند قاعدة الصليب . ووجد الراهب نفسه يبرر عدم وقوع المعجزة بهذا التساؤل :

« لماذا ننتظر أن يعاقب الله هذا الطفل البرىء ، وغيره من الابرياء ، بالبقاء على قيد الحياة ؟ »

وهتف فجأة للمرأة :

« هلم نمض .. »

ولم تعره المرأة التفاتا ، وانما ظلت تقضم قالب السكر الضخم بأسنانها الامامية الحادة .. ورفع عينيه الى السماء ، فرأى بعض نجوم الليل قد احتجبت وراء سحب سوداء ، فعاد ليقول آمرا وهو لا يكاد يرى فوق هذه الهضبة مكانا يحتميان فيه من المطر المقبل :

« هلم نمض .. »

ولكن المرأة لم تتحرك من موضعها .. فقد ظل وجهها المجعد الاسمر بين جدائل شعرها ، هادئا ، ساكنا ، لا أثر فيه لعاطفة أو انفعال .. كان يبدو عليها أنها أدت واجبها وآن لها أن تنال

راحة الأبد . .وسرت فى بدن الراهب رعــدة مفاجئة وشعر بالألم الذى كان ينوش رأسه بالحرارة طول اليوم ، يزداد ويعمق ، وقال لنفسه : يجب أن ألتمس لنفسى ملاذا من المطر .. فان واجب الانسان الاول هو أن يحمى نفسه ، حتى تعاليم الكنيسة تقول هذا . وبدات السحب السوداء تغطى وجه السماء ، وبدت مجموعة الصلبان كأنها نبات الكاكتس الجاف ، وفجأة ، مضى فى الطريق نحو حافة الهضبة حتى اذا وصل الى الممر المنحدر فى الجهــة المقابلة ، التفت وراءه ، فرآى المرأة جالسة فى سكون تقضم قالب السكر .. وتذكر فجأة أن هذا القالب الكبير هو كل مايملكانه من طعام وكان الطريق الضيق فى نهاية الهضبة شديد الانحدار الى حد جعله يستدير ويهبط فيه بظهره زاحفا على يديه وركبتيه ، وكانت الاشجار النامية من قلب الصخر تحف بجانبيه .. وكأن الممر بعد أن ينحدر نحو خمســمائة قدم يعود فيلتوى صعدا ، وبدأ العرق يتفصــد من جسم الراهب الذى كان يشعر بأشد الظمأ ، ومن ثم أحس بالراحة ــ فى أول الامر ــ حين أخذ المطر ينهمر ، ومكث حيث كان ــ حين فاجأه المطر ــ وهو يعتمد بظهره الى صخرة على جانب الممر ، فلم يكن ثمة ملاذ يحتمى فيه قبل أن يصل الى نهاية الممر ، ولم يكن الامر يستحق أن يبذل هذا الجهد غير المجدى ، فانه حين يصل ألى الملاذ ، يكون ســحاب المطر قد تحرك بعيدا .. وازدادت الرعدة فى جسمه حتى أصبحت مستمرة ، ولم يعد الالم العميق فى داخل رأسه ، وانما أصبح كأنه خارجها .. كأنه أى شىء .. صوت أو تفكير .. أو رائحة .. فقد اختلطت حواسه بعضها ببعض ، ففى لحظة يشعر بالالم كأنه صوت مسعب يقول له انه سار فى الطريق الخطأ .. وتذكر خارطة سبق أن رآى عليها حدود ولايتين ، الولاية التى يهرب منها الان وقد تناثرت القرى فى اراضـيها الحارة الرطيبة حيث يتكاثر الأهالى كالبعوض ، والولاية الاخرى لم يكن فيها شىء .. مجرد مساحة بيضــاء على الخارطة .. وهذه الولاية الثانية تقع فى الجانب الشمالى الغربى ..

وهو الجانب الذى يسير فيه الان ـ هكذا حدثه الصوت الغامض المتعب ـ ولكنه اخذ يجادل هذا االصوت قائلا ان هناك ممرا يفضى الى ولاية اخرى معمورة ، على أن الصوت الغامض يقول له انك قد تسير فى هذا الممر مسافة خمسين ميلا قبل أن تصل الى مكن مأهول ، وانت تعلم أنك لن تستطيع أن تعيش على هذا الحال حتى تقطع هذه المسافة ..

وفى أحيان أخرى كان يتخيل هذا الالم العميق وجها آدميا .. وجه ذلك الامريكى الهارب ، له بشرة مرقطة كصورة منشورة فى صحيفة ، وانه ليتمادى فى الخيال فيشعر ان هذا الامريكى كان يتبع المراة االهندية ليقتلها كما قتل طفلتها .. وان هذه الصورة الخيالية لتستبد به حتى يشعر كأنها حقيقة واقعة يجب أن يصنع شيئا لمواجهتها ، وكان المطر فى تلك اللحظات كأنه ستار كثيف من المحتمل أن يقع وراءه أى شىء . .ووراح يفكر : لم يكن من الواجب أن أترك المرأة الهندية ليقتلها كما قتل طفلتها .. وأن هذه الصورة الخيالية نعم .. ماذا ينتظر غير هذا من راهب سكير ؟ ! ونهض واقفا وراح يصعد الممر المنحدر عائدا الى الهضبة ، وكانت الافكار والخواطر العاصفة فى رأسه تعذبه .. ان شعوره بالمسئولية لا يشمل المرأة فحسب ، بل يشمل الامريكى الهارب أيضا ، ان الوجهين .. وجهه ، ووجه المجرم معلقان على جدار مكتب ضابط البوليس كأنهما صورتى أخوين فى مجموعة صور أسرة واحدة .. وعاد راجعا الى حافة الهضبة وهو يرتعش ويتصبب بالعرق وبماء المطر ، ولكنه لم ير على الهضبة أحدا ، وانما رأى جثة الطفل ملقاة كشىء مهمل عند أسفل قائمة صليب ، اما الأم ، فقد وضح له انها عادت الى بيتها بعد ان قامت بما أرادت القيام به . ولقد أنسته الدهشة احساسه بالحمى برهة قبل أن تعيده اليها ، وذلك عند ما لمح قطعة من السكر الاحمر موضوعة على الارض أمام فم الطفل الميت .. لعل الام قد وضعتها لتأكل الروح منها ، أو ليجد الطفل ما يأكله حين تقع المعجزة وترد

الروح الى جسده . وانحنى الراهب ــ وهو يشعر بخجل مبهم ــ وتنــاول قطعة السكر .. ان الطفل الميت لن يزمجر له كما فعلت الكلبة الكسيحة .. ولكنه يتردد ويتساءل وهو واقف تحت المطر المنهمر : من أنا حتى أستبعد وقوع المعجزة !

ثم وضع قطعة السكر فى فمه وهو يرد على تساؤله قائلا : ان الله القادر على بعث الحياة فى الجسد الميت ، قادر أيضا على توفير أسباب الطعام له ..

وشرع يمضغ السكر ، وعاودته الحمى ، والتصق السكر بحلقه ، واستبد به احســـاس عنيف بالظمأ ، فزحف على يديه وركبتيــه وحاول أن يلعق قطرات من ماء المطر المتجمع فى فجوات الارض غير المهدة ، بل لقد راح يمتص المــاء من سراويله المبللة ، وظل الطفل الميت ملقى تحت وابل المطر كأنه كومة سوداء من فضلات الماشية . وابتعد الراهب فى طريقه مرة أخرى نحو حافة الهضبة ، ثم راح يهبط المر المنحدر وهو يشعر بالوحشة ترين حوله .. حتى الوجه الذى كان يتخيله ، قد اختفى .. انه يسير وحيدا فى منطقة منعزلة موحشة وانه يهبط فى كل لحظة الى أرض مهجورة لا حيـــــاة فيها ولا أحياء ..

انه يتساءل : ليس من شك فى أنه فى مكان ما ، وفى اتجــاه ما ، توجد مدن مأهولة .. فاذا واصلت المسير أو الانحدار ، فســوف أصل حتما الى شاطىء المحيط الهادى حيث شريط السكة الحديدية المؤدى الى جواتيمالا .. وهناك سوف أرى الطرق المرصـــوفة ، والسيارات . أنه لم ير شريط سكة حديدية منذ عشرة أعوام . وانه يستطيع أن يتخيل الخط الاسود الممتد بحــذاء الشـــاطىء على الخريطة . وانه ليتخيل أيضا هذه المسافة التى تبلغ خمســين أو مائة ميل خلال منطقة مجهولة .. انها المنطقة التى يسير فيها الآن .. لقد استطاع أن يهرب تماما من بنى الانسان ، ولكنه لن يهرب من الطبيعة التى سوف تقتله حتما .. وأيا كان الامر ، فانه يواصل

المسير .. فليس ثمة معنى لان يعود أدراجه الى القرية المهجورة ، او الى مقر شركة الموز حيث الكلبة الهالكة ، وبقايا السكان الراحلين. لم يكن أمامه أن يفعل الا أن يخطو الى الامام خطوة ثم يردفها بأخرى ، ينحدر حينا ، ويصعد حينا ، ويستمر فى التقدم فى كل حين . حتى اذا بلغ قمة المرتفع المواجه للهضبة ، كانت سحب المطر قد تحركت بعيداعنه ، فلم يعد المطر ينهمر فوقه ، وهكذا تسنى له أن يقف وأن يرسل البصر فلا يرى أمامه غير جبال وغابات وغلائل الامطار تتحرك فوقها ، وأرسل نظرة أخرى ثم أغمض عينيه ، فقد شعر كأنه يرى أمامه اليأس مجسما .

وليس من شك فى أنه أمضى ساعات أخرى وهو يواصل الصعود حتى أرغمه الشعور بالتعب على التوقف .. وكان ظلام الليل قد اجتمع مع ظلام الغابة حوله ، وسمع صوت قرد وهو يقفز بين الاشجار فى نزق ومجون ، وخيل اليه أنه يسمع فحيح الأفاعى وهى تمرق فوق الأعشاب ، وكأنما فحيحها حسيس أعواد الثقاب وهى تشتعل . ولم يشعر بأدنى خوف منها .. فهو يراها مظهرا من مظاهر الحياة .. الحياة التى تنحسر من حوله لحظة بعد لحظة .. فليس الناس فقط هم الذين يذهبون عن طريقه .. وانما الحيوانات والزواحف أيضا .. وبعد قليل سوف يجد نفسه وحيدا مع أنفاسه . وراح يردد فى نفسه دعاء :

« يا الهى .. لشد ما أحببت جمال جنتك .. » وكانت رائحة البلل مع أوراق الشجر المتعطنة ، وحرارة الجو ، وظلمة الليل ، قد جعلته يشعر كأنه فى فوهة منجم ، يهبط فيه الى باطن الارض ، ليدفن نفسه .. وعما قليل سوف يعثر على قبره ..

ولم يتحرك من مكانه حين رأى رجلا طويلا يقترب منه حاملا بندقيته .. وراح الرجل يقترب فى حذر ، ثم اذا هو يقول فجأة وقد أعد بندقيته للانطلاق : ..

« من أنت ؟! »

ونطق الراهب بأسمه الحقيقى كاملا لأول مرة منذ عشر سنوات فقد كان متعبا ، وكان يرى أنه لم يعد ثمة فائدة فى البقاء على قيد الحياة ..

وسأله الرجل فى دهشة :

« راهب ؟ من أين أنت آت ؟؟»

وانحسرت الحمى عنه برهة ، واستطاع أن يرى الحقائق كما ينبغى ، فقال للرجل مستسلما :

« حسنا .. لا تزعج نفسك بأمرى .. لسوف أبتعد عنكم حتى لا أثير لكم المتاعب .. »

وجمع كل ما تبقى له من قوة ونشاط وواصل سيره .. وعاودته الحمى وهو يرى وجه الرجل المدهوش .. ولكنه قال لنفسه بصوت مسموع : لن أكون السبب فى القبض على مزيد من الرهائن ..

وسمع الرجل وهو يسير وراءه كما يسير الحارس وراء رجل خطير حتى يطمئن الى ابتعاده عن المنطقة قبل عودته الى البيت . وعاد يقول بصوت واضح :

« حسنا .. حسنا .. اطمئن يا هذا .. اننى لن أبقى هنا .. لم أعد أريد شيئا »

وسمع الرجل يقول بصوت ملهوف خاشع :

« أبى .. ؟ »

« سوف أبتعد بأسرع ما أستطيع »

وبدأ يجرى حتى وجد نفسه نجأة يخرج من الغابة ويقف على منحدر مكسو بالعشب يطل على مجموعة من الاكواخ تنساب منها الاضواء ، .. وهناك ، عند حافة الغابة بالقرب منه ، شاهد بناية بيضاء الجدران .. أهى معسكر ؟ ! ليس حولها جنود ، وأخيرا قال :

« اذا رآنى أحد ، فسوف أسلم نفسى .. أؤكد لك أنى لن أثير المتاعب لاحد أيا كان »

« أبى .. »

وشعر بالصداع كأنه يدمر رأسه ، فتعثر واعتمد بيده على جدار البناية البيضاء ثم قال للرجل وهو يشعر بالتعب الشديد :

« أهذا معسكر جنود ؟ »

فقال الرجل بصوت تمتزج فيه الدهشة بالقلق :

« أبى .. ان هذه كنيستنا .. »

« كنيسة ؟ »

وأخذ الراهب يتحسس بيده الجدران كأنه ضرير يحاول أن يتعرف على منزل خاص ، ولكن احساسه العنيف بالتعب جعله لا يكاد يشعر بشيء آخر ..

وسمع الرجل ، حامل البندقية ، يقول فى لهجة تأثر وهو يهرع بعيدا : « ان هذه المناسبة السعيدة يأبى تستحق أن يدق لها الاجراس » وتهالك الراهب جالسا على العشب المشبع بماء المطر ، ورأسه الى الجدار الابيض ، واستغرق فى النوم بعد أن وصل أخيرا الى أرض الامن والسلام ..

وكانت أحلامه زاخرة بدقات الاجراس ورنين البهجة والسماء ..

الجزء الثالث

الفصل الاول

كانت السيدة ـ النصف ـ جالسة فى الشرفة ترفو بعض الجوارب وكانت تضع على عينها نظارة قراءة . وكانت قد خلعت حذاءها التماسا لمزيد من الراحة . أما شقيقها المستر نير ، فقد كان مشغولا بقراءة مجلة امريكية من نيويورك مضى على صدورها ثلاثة أسابيع ولم يكن هذا يهم فى شىء ، وانما المهم هو أن المنظر كله كان يوحى بالصفاء وبالسلام ..

وقالت مس لير للراهب الذى كان يجلس معها ومع أخيها فى الشرفة :

« ان الماء بجانبك .. يمكنك أن تشرب منه كلما أردت »

وكان ثمة اناء كبير من الفخار موضوعا فى ركن ظليل وفوقه المغرفة والكوب ، وسأل الراهب قائلا :

« ألا تغلون الماء عندكم قبل الشرب ؟ »

فقالت مس لير فى لهجة تنم عن التكلف كأنما لم تتعود أن تجيب على أسئلة أحد :

« لا .. ان ماءنا نظيف وعذب دائما .. »

وقال أخوها متمما :

« أعذب ماء فى الولاية كلها .. »

وأخذت صفحات المجلة اللامعة المصقولة تصر وهو يقلبها ..

وكان على الغلاف صورة رجال كبار الوجوه ، مهيبى المنظر ، من أعضاء مجلس الشيوخ . وكانت المراعى الزاهرة تمتد وراء سياج الحديقة الى مدى البصر حيث تلتقى بسفوح السلسلة التالية من الجبال . وكان بالقرب من البوابة شجرة سوسن مفتحة الازهار ..

وقالت مس لير :

« انك تبدو الان يا أبى أحسن حالا بدون شك »

وكانت تتبادل معه الحديث بلغة انجليزية ركيكة ذات لهجة أمريكية . وكان أخوها المستر لير قد هاجر يافعا من موطنه بألمانيا حتى يفر من الخدمة العسكرية الالزامية . وكان وجهه المستوى ينم عن المكر وقوة التفكير وسعة الخيال . وقد قال معلقا على حديث أخته :

« أوه .. انه ليس فى حاجة الى أكثر من بضعة أيام للراحة .. »

ولم يكن شديد الفضول ليعرف المزيد عن هذا الراهب الذى أحضره اليه أحد عماله الزراعيين منذ ثلاثة أيام ، مغشيا عليه فوق بغلة .. فقد اكتفى بكل ما قاله الراهب عن نفسه ، وقد علمته الحياة فى تلك المنطقة النائية الا يسرف فى القاء الاسئلة أو يفكر كثيرا فيما يأتى به الغد ..

وقال الراهب :

« لسوف أرحل عما قريب »

فقالت مس لير وهى تقلب جوارب أخيها بحثا عن الثقوب :

« ليس هناك ما يدعو للعجلة فى الرحيل »

« ما ألطف الحياة هنا »

فقال المستر لير وهو يقلب صفحات المجلة :

« ولكنها لا تخلو من المتاعب المألوفة »

ثم أردف قائلا وهو ينظر الى احدى الصفحات :

« هذا السناتور هيرمان لونج .. يجب ان يحدوا من اندفاعه حتى لا يتمادى فى اهانة دول أخرى .. »

وسأله الراهب قائلا :

« هل حاولوا أن ينتزعوا الارض منك »

فاستدار المستر لير نحوه بوجهه الحالم ، وألقى عليه نظرة بريئة ماكرة ثم قال :

« أوه .. لقد أعطيتهم بنفسى أكثر مما كانوا يطلبون .. أعطيتهم خمسمائة فدان من أرض قاحلة لم أكن أستطيع أن أزرع فيها شيئا .. »

ثم أومأ الى آثار طلقات نارية على أعمدة الشرفة وأردف يقول :

« كانت هذه آخر متاعبنا الحقيقية .. انها من بنادق رجال الرئيس السابق السنيور فيللا »

فنهض الراهب وشرب مزيدا من الماء رغم أنه لم يكن ظمآن ، وانما كان يريد أن يزداد شعورا بالرفاهية .

« كم أحتاج من الوقت لأصل الى مدينة لاس كازاس ؟ »

فقال المستر لير :

« فى نحو أربعة أيام »

وقالت المس لير :

« ان من كان فى مثل حالته يحتاج الى ستة أيام »

فقال الراهب فى صوت حالم :

« ان الأمر يبدو لى كحلم عجيب .. ففى تلك المدينة كنائس.. وجامعة و ... »

فقال المستر لير :

« طبعا .. اننى وأختى من اتباع مارتن لوثر .. أى لسنا من مذهبك الدينى يا أبى .. ومعذرة اذا قلت ان مذهبك يحيط رجال الدين بكثير من الرفاهية بينما عامة الناس يموتون جوعا .. »

فقالت المس لير :

« لا تنس يا عزيزى أن هذا ليس خطأ ضيفنا الراهب »

وقال الراهب فى ذهول :

« رفاهية »

وكان واقفا بجانب اناء الشرب الفخارى ، والكوب فى يده ،يحاول أن يستجمع أفكاره وهو يمد البصر الى المراعى الزهراء التى تنحدر فى جمال وسلام ، ثم غمغم قائلا :

« انك تعنى ؟ .. »

من يدرى .! فلعل المستر لير محق فيما قال .. فقد سبق أن عاش مرفها منعما ، وها هوذا يعود لحياة ناعمة لاتخلو من الكسل والرفاهية ..

وسمع المستر لير يستطرد فى حديثه قائلا :

« وهذه النقوش الذهبية فى جدران الكنائس .. »

فغمغم الراهب موضحا :

« انها فى أكثر الأحيان مجرد طلاء .. »

وعاد يفكر : نعم .. ثلاثة أيام مضت لم أفعل فيها شيئا .. أى شىء ..

ونظر الى قدميه الموضوعين فى حذاء لمستر لير ، والى ساقيه المرتديتين سراويل المستر لير . وعاد المستر لير يقول لاخته :

« انه لن يستاء لصراحتى ، فنحن هنا جميعا مسيحيون .. »

فقال الراهب :

« طبعا .. يسرنى أن أسمع .. »

« انكم أيها الكاثوليكيون تقيمون وزنا كبيرا للمظاهر الدينية .. »

« نعم .. انك تعنى .. »

« الصيام .. والسمك فى يوم الجمعة »

نعم .. انه يذكر ــ كما يذكر الانسان شيئا فى طفولته ــ أنه فى بعض الأحيان كان يفكر فى هذه العادات والمظاهر والقيود . وأخيرا قال :

« انك يامستر لير ، على كل حال ، ألمانى النشأة .. والألمان شعب عسكرى عظيم »

« اننى لم أكن جنديا يوما .. انى لا أوافق .. »

« نعم .. نعم ولكنك مع هذا تدرك أن النظام أمر ضرورى .. ان التدريبات العسكرية قد لاتفيد فى المعركة،ولكنها تكون الشخصية.. والا ، فسوف تجد فى الجيش رجالا مثلى .. »

ثم أطرق برأسه نحو الحذاء وهو يشعر بالكراهية لنفسه ، وأردف قائلا فى غضب وثورة نفسية :

« نعم .. رجالا مثلى .. »

وساد الجو شعور الحرج والارتباك ، وبدأت المس لير تقول شيئا :

« لماذا ، يا أبى .. »

وقطع أخوها حديثها ، ووضع المجلة الامريكية المصورة جانبا ، ثم قال بصوته الألمانى الأمريكى ، وبلهجته الحاسمة :

« حسنا .. لقد حان الوقت للاستحمام .. هل ستأتى معى يا أبى ؟ »

وتبعه الراهب فى استسلام الى غرفة النوم المشتركة ، وهناك خلع ملابس المستر لير المستعارة ، واشتمل بثوب استحمام من أثواب المستر لير ، ثم عبر معه الشرفة حافى القدمين ، وسار فى حقل مكسو بالعشب أمام الحديقة ، وكان قد سأل المستر لير فى اليوم السابق عن احتمال وجود أفاعيه ، فأجابه المستر لير فى استخفاف قائلا : انه لو كان به أفاع فانها لن تلبث أن تختفى سريعا ، وقد بدا الراهب أن المستر لير وأخته قد تآزرا للتغلب على وحشية المكان بطريقة بسيطة وهى تجاهل كل مالا يتفق مع طبيعة مواطن ألمانى۔ أمريكى عادى . وهذه الطريقة ــ فى حالتهما ــ لون رائع من ألوان الحياة .

وفى وسط الحقل ، كان ثمة جدول صغير ضحل يجرى ماؤه فى مجرى كثير الحصى وخلع المستر لير عن جسمه الجلباب،واستلقى على ظهره فى ماء الجدول ، وأخذت الأسماك تسبح لاعبة فوق صدره

دون أن يزعجها شيء .. وقد كان ذاك هو هيكل جسم الشاب الذى كره الخدمة العسكرية الى حد هجرة الوطن فرارا منها .

وأخيرا جلس وراح يدلك جسمه بالصابون فى عناية ؟ وبعد أن فرغ ، أخذ الراهب منه قطعة الصابون وحذا حذوه ، وقد كان يرى ، فى قرارة نفسه ، أن هذا الاستحمام مضيعة للوقت ، فهو من الذين يعتقدون أن العرق ينظف الجسم تماما كالماء ، ولكن المستر لير ينحدر من شعب يؤمن بالمثل القائل : النظافة من الايمان .. النظافة ــ وليس الطهارة ..

وأيا كان الأمر فقد شعر بالرفاهية البالغة وهو راقد فى مجرى الجدول البارد ماؤه تحت الأشعة الحانية لشمس الخريف .وكرت الذكريات به الى زنزانة السجن حيث نام الرجل العجوز على كتفه . وحيث كانت المرأة المتدينة . ثم الى الرجل المولد وهو ملقى عند باب الكوخ محموما ، والى الطفلة القتيل ، ومكتب شركة الموزالمهجورة حيث كانت الصبية كورال ووالداها .. وشعر بالعار وهو يذكر ابنته التى تركها لجهلها وسوءخلقها بجانب كومة القمامة ، وقرر أخيرا بأنه غير جدير بهذه الحياة المرفهة الرغيدة ..

وقال له المستر لير :

« هل تسمح . ؟ قطعة الصابون ! »

فقال له وهو يسلمها اليه :

« أعتقد أن من الواجب أن أصارحك .. غدا سأقيم قداسا فى القرية ، فهل ترى من الأصوب أن أرحل عن بيتك ! . انى لا أريد أن أثير لك المتاعب »

فقال المستر لير وهو ممعن فى تنظيف جسمه بالماء والصابون :

« انهم لن يثيروا المتاعب معى .. ولكن يحسن بك أن تكون على حذر .. فان ماسوف نفعله غدا مخالف القانون .. كما تعرف .. »

« نعم .. أعرف .. »

« لقد حكموا على راهب أعرفه قام بعمل كهذا بغرامة مقدارها

أربعمائة بيزة ، فلما عجز عن دفعها ، سجنوه أسبوعا .. لماذا تبتسم ؟ ! »

« ابتسم لبساطة العقوبة .. السجن أسبوع واحد ، ما ألطف الحياة هنا بالنسبة للحياة فى الولاية المتاخمة »

« حسنا .. اننى اسمع أنكم أيها الرجال تفضلون السجن على دفع الغرامة ، هل تريد قطعة الصابون ؟ »

« لا .. شكرا .. لقد فرغت من الاستحمام »

« اذن يحسن ان نسرع بالعودة لان اختى تحب أن تستحم قبل غروب الشمس »

ولما اقترب من البيت أثناء العودة التقيا بمس لير التى بدت أكثر ما تكون بدانة فى جلباب الاستحمام ، وهى فى طريقها الى الجدول ، وقد ألقت بصوتها الرقيق بذلك السؤال التقليدى الذى كانت تلقيه كالساعة بانتظام قائلة :

« هل الماء لطيف اليوم ! ؟ »

فأجابها أخوها كما لا شك أجابها آلاف المرات قائلا :

« نعم يا عزيزتى .. بارد وعذب »

واستأنفت مسيرها فى الحقل نحو الجدول وهى تنحنى قليلا لتبين طريقها بسبب قصر نظرها .

وفى غرفة النوم ، أغلق المستر لير بابها من الداخل وهو يقول:

« أرجو اذا سمحت ألا تغادر هذه الغرفة حتى تفرغ المس لير من الاستحمام ، فأن أى انسان يستطيع أن يرى الجدول اذا وقف أمام البيت .. »

ثم راح هو يرتدى ملابسه . وكان جسمه طويلا ، هزيلا جافا .. وكانت الغرفة تحتوى فقط على سريرين نحاسيين ، ومقعد واحد ، وخزانة ملابس ، وكأنها غرفة فى دير ، لا ينقصها الا الصليب أو « المظاهر » الدينية على حد تعبير المستر لير . ولكن كانت

بها نسخة من الكتاب المقدس موضوعة على الارض بجانب أحد السريرين ، داخل كيس من المشمع . وبعد أن فرغ الراهب من ارتداء الملابس ، تناول الكتاب المقدس وفتحه حيث وجد فى الصفحة البيضاء التالية للغلاف عبارة تدل على أن هذا الكتاب مقدم من آل جيدون ، ثم هذه الكلمات :

« الكتاب المقدس فى كل غرفة استقبال بالفندق ، يكسب للمسيح أنصارا من بين رجال الأعمال .. أخبار طيبة .. » ثم يلى هذا قائمة من المتون راح الراهب يقرأها وهو أشد ما يكون دهشة :

« اذا كنت فى أزمة .. فاقرأ .. المزمور ٣٤
واذا كنت مهموما .. فاقرأ .. جيمس ١ وهوسبا ١٤ر١٠٤
واذا كنت فى رخاء .. فاقرأ .. ١ كورنثيين ٢ر١٠
اذا كنت مهموما .. فاقرأ .. جيمس ١ وهوسبا ١٤ر١٠٤
واذا كنت قد فعلت الخطيئة .. فاقرأ .. المزمور ٥١ وليوك ١٨ر٩ـ١٤
واذا أردت السلام والقوة والكثرة .. فاقرأ .. جون ١٤
اذا كنت وحيدا بائسا .. فاقرأ .. المزمور ٢٣ر٢٧
اذا بدأت تفقد الثقة فى الناس .. فاقرأ .. كورنتيين ١٣
اذا أردت نوما مريحا .. فاقرأ .. المزمور ١٢١

وأخذ الراهب يتسأل فى دهشة عمن جاء بهذه النسخة من الكتاب المقدس المطبوعة بحروف مطبعية رديئة ، وقد دونت عليها هذه التفسيرات البسيطة) الى هذه المزرعة النائية بجنوب المكسيك . واستدار المستر لير يوجهه عن المرآة وهو ممسك بفرشاة شعر خشنة ، ثم قال مفسرا الامر باهتمام :

« كانت أختى تدير فندقا للموسيقيين . وقد باعته لتلحق بى هنا بعد وفاة زوجتى ، وقد أحضرت معها هذه النسخة من الكتاب المقدس من الفندق . أنك لن توافق على صحة هذا الاجراء ، ياأبى فأنت لا تحب أن يقرأ العامة الكتاب المقدس .. »

وكان المستر لير يتحدث بلهجة الذى يدافع عن مذهبه الدينى الخاص ، وسأله الراهب قائلا :

« هل زوجتك مدفونة هنا ؟ »

فقال المستر لير بخشونة :

« نعم .. فى المرجة القريبة من الحقل .. »

ثم توقف برهة والفرشاة فى يده ينصت الى وقع خطوات خفيفة خارج الغرفة ، ثم أردف قائلا :

« أنهامس لير .. عادت من الجدول .. يمكننا أن نخرج الان .. »

... ...

وترجل الراهب عن جواد المستر لير عندما وصل الى الكنيسة ، وشد العنان الى شجرة صغيرة ، وكانت تلك أول زيارة له للقرية منذ أن سقط مغشيا عليه بجانب جدار الكنيسة الأبيض .. وكانت القرية تبدو فى نهاية المنحدر المتد أمامه فى شفق المساء .. مجموعة من الأكواخ الطينية والبيوت الصغيرة يواجه بعضها بعضا على حافتى شارع واحد مكسو بالعشب النامى . وكانت ثمة مصابيح قد اضيئت ، وشعلة من الناريطاف بها على اكواخ الفقراء لطرد البعوض . وسار فى بطء نحو هذه القرية وهو يشعر بالامن والسلام . ورفع أول رجل ألتقى به قبعته محييا ، وركع أمامه ، وقبل يده فقال له :

« ما اسمك ؟ »

« اسمى بدرو يا أبى »

« طاب مساؤك يابدرو »

« هل سيقام غدا قداس ياابى ؟ »

« نعم .. سيقام القداس غدا .. »

وتجاوز فى سيره المدرسة الريفية ، حيث كا ناظرها جالسا على الدرجة الأولى من مدخلها ، وكان ، أى الناظر ، شابا بدينا أسود العينين ، يضع عليهما نظارة ذات عدسات سميكة ، ولما رأى هذا الناظر الراهب مقبلا ، اشاح بوجهه بعيدا فى صلف وخيلاء ، فقد

كان رمزا للخضوع للقانون الجديد ومن تم فهو لا يريد أن يتعرف « بالمجرمين » وقد راح يتحدث بحذاقة وتعال الى شخص وراءه عن شيء يتعلق بفرقة الاطفال .. وتقدمت احدى النساء وقبلت يد الراهب .. وأحس هذا بشيء من الغرابة وهو يجد نفسه موضع التقدير مرة أخرى بعد أن كان منذ أيام حاملا الموت أينما ذهب . وقالت المرأة له :

« ابى .. هل ستسمع اعترافاتنا ؟ »

« نعم .. نعم .. فى جرن مزرعة المستر لير . قبل اقامة القداس . ساكون هناك فى نحو الخامسة صباحا بمجرد ان يسفر الصباح . »

« ما أكثر من يريدون الاعتراف يا أبى ! »

« حسنا لنبدا الليلة .. فى الثامنة مساء »

«وهنا ياابى كثير من الاطفال المحتاجين الى التعميد .. اننا لم نر قسا او راهبا منذ ثلاث سنوات .. »

« لسوف امكث بينكم يومين .. »

« كم ستأخذ منا ثمنا لتعميد الطفل يا أبى .. !! »

« الاجر المعتاد هو بيزتان عن تعميد الطفل »

وراح يفكر : أنه سيحتاج لاستئجار بغلتين ودليل ، وهذا سيكلفه نحو خمسين بيزة حتى يصل الى مدينة لاس كازاس وسيظفر من اقامة القداس بخمس بيزات ، فيكون مجموع المطلوب منه نحو خمس واربعين بيزة ..

« ولكننا فقراء جدا يا أبى .. فأنا مثلا أم لاربعة أطفال محتاجين للتعميد وثمانى بيزات مبلغ كبير جدا بالنسبة لى .. »

« واربعة اطفال ايضا عدد كبير من الاطفال .. كيف انجبتهم فى ثلاث سنوات اذا صح ماتقولينه عن حرمانكم من رؤية قس منذ ثلاث سنوات ! »

وخيل اليه انه يسمع فى رنين صوته النغمة القديمة ، نغمة السيطرة والأمر ، كأنما لم تكن تلك السنوات العشر السود غير حلم

وكانما هو لم يبتعد لحظة واحدة عن مركزه كراع لابراشية محترمة حيث كان القداس يقام كل يوم ، وحيث كان هو ضيف الشرف فى كل اجتماع أو حفلة دينية . وسالها فى حدة :

« كم عدد الاطفال المحتاجين للتعميد هنا ؟ »

« نحو مائة يا أبى .. »

وشرع يقوم بعملية حسابية لنفسه : ليس هناك مايدعو لان يصل الى مدينة لاس كازاس مفلسا معدما .. ففى مقدوره ان يشترى طاقما من الملابس اللائقة ، وان يستاجر غرفة للاقامة ،وان يستقر. وقال :

« اذن ليكن ثمن تعميد الطفل بيزة ونصف بيزة ..

« ليكن الثمن بيزة واحدة يا أبى .. أننا فقراء جدا »

« لا اقل من بيزة ونصف .. »

وخيل اليه أنه يسمع صوتا آتيا اليه من عهد بعيد يقول : أن الشىء الرخيص يفقد قيمته فى نظرهم . انه صوت الراهب العجوز الذى أخلى له مركزه الدينى فى ابراشية كونسبكيون .. وقد شرح له الأمر بقوله : انهم سيزعمون لك دائما انهم فقراء يوشكون على الموت جوعا ، ولكن تأكد انهم يحتفظون عادة بمبالغ صغيرة من المال مخبوءة فى قدر أو مدفونة فى الأرض .

وقال الراهب للمرأة :

« يجب أن تحضروا الأطفال والمال الى جرن مزرعة المسترلير فى الساعة الثانية بعد ظهر الغد .. »

« حسنا يا أبى .. »

وكان صوتها ينم عن الرضى ، فقد استطاعت أن تساومه وتهبط بثمن تعميد الطفل الى بيزة ونصف ، واستأنف الراهب سيره وهو يفكر : مائة طفل يعنى مائة وخمسين بيزة ، تضاف اليها نحو عشر بيزات ثمنا للقداس ، فيكون المجموع مائة وستين بيزة . ومن المحتمل أن استأجر البغلين والدليل بأربعين بيزة فقط ..

وسوف يزودنى المستر لير بطعام يكفى ستة أيام الرحلة .. ومن ثم يتبقى معى نحو مائة وعشرين بيزة ، ومعنى هذا انى غدوت ــ بعــــد كل هذه الآلام ــ قريبا من الثراء ! !

وكانت مظاهر الاحترام والتجلة تحيط به فى كل خطوة يخطوها على أرض الشارع ، فالرجال يرفعون قبعاتهم له كلما مر بهم والنساء يقبلن يده كأنما قد ارتد بقوة ساحرة الى عهد الحرية الدينية ؛ وأنه ليشعر بمظاهر تلك الحياة القديمة تتجمد حوله كالعادات ، كقالب من الجبس يجعل رأسه مرفوعا عاليا ويمهد له طريق السير ، بل ويضع على لسانه الكلمات المناسبة . وسمع من مدخل نادى القرية صوتا يقول :

« يا أبى .. »

التفت الراهب فاذا هو يرى رجلا بدينا جدا ، عريض الذقن ، يرتدى رغم حرارة الجو صديرية مزينة بسلسلة ساعة جيب . وقال الراهب :

« نعم . ؟ »

وكان وراء الرجل البدين مجموعة من الأرفف عليها ألوان مختلفة من زجاجات المياه المعدنية والغازية والكحول . وترك الراهب الطريق المترب وتقدم الى مدخل النادى حيث وقف تحت المصباح البترولى الكبير وقال :

« ماذا تبغى ؟ »

« خطر لى يا أبى أنك قد تحتاج الى قليل من قربان الخمر . »

« ربما .. ولكنى لااستطيع دفع الثمن مقدما .. »

« ان كلمة شرف من راهب مثلك تكفى ياابى ، فانا شخصيا رجل متدين ، والشعور الدينى موفور فى هذه القرية ، وليس من شك فى انك ستقوم بتعميد عدد كبير من الاطفال فيها . »

وكان يتحدث وهو ينحنى باحترام ، وكانما هو والراهب صديقان تجمع بينهما وحدة الهدف .. والثقافة . وقال الراهب :

« ربما .. »

وابتسم الرجل وهو يومىء برأسه كأنما يقول الراهب : لا تخش شيئا .. فليس هناك مايدعو الى الشك بين اثنين مثلنا يفهم كلّ ما يدور بذهن الاخر ، ثم قال :

« لقد كنت فى العهد الاول ..عهد الكنائس والحرية الدينية ،امينا لصندوق جمعية القربان المقدس . اننى كاثوليكى متحمس يا أبى .. ولكن الناس هنا طبعاً ــ جهلة اميون .. »

ثم سأل فجأة بلهجة ملؤها الاخلاص :

« هل تشرفنى وتشرب معى كأسا من البراندى ؟ »

فقال الراهب مترددا :

« جميل منك هذا .. »

وسرعان ما أمتلأت الكأسان : وتذكر الراهب آخر كأس شربها .. لقد كان حينذاك جالسا على حافة السرير فى الظلام ينصت الى مدير البوليس ، ويرى ، قبل انطفاء النور ، زجاجة الخمر وهى تخلو . وكانت هذه الذكرى كأنها يد ترفع عنه ستار المظهر المتكلف ،وتكشف حقيقته للجميع . وانسابت رائحة الخمر الى فمه وزادت حلقه جفافا ، وعاد يفكر : أى ممثل قدير أنا ؟ الواقع أنه ليس لى عمل ، أو مكان ، هنـا ، بين هؤلاء الناس الطيبين ..

وأدار الكأس فى يده ، ورأى ، بخياله ، كل الكؤوس التى شربها تدور أمامه ، وتذكر حديث طبيب الاسنان عن أسرته التى تركها فى انجلترا ، وماريا ، أم ابنته غير الشرعية ــ وهى تأتى له بزجاجة الخمر التى كانت تخفيها له .. هو الراهب السكير ..

وشرب من الكأس جرعة فى غير اشتهاء ، بينما قال الرجل البدين :

« انه براندى ممتاز يا أبى »

« نعم .. »

« أستطيع أن أخفض السعر خاصة لك وأبيعك اثنتى عشرة زجاجة بستين بيزة فقط »

« ومن أين لى الحصول على ستين بيزة ؟ ! »

وعاد يفكر : لقد كانت الحياة ــ على وجه ما ــ أفضل لى هناك ، عبر الحدود .. فى منطقة الخطر .. فلم يكن الخوف والموت أسوأ الأشياء .. وانما أسوأها ، فى بعض الأحوال ، أن يظل الانسان على قيد الحياة ..

وعاد الرجل البدين يقول :

« لن أحاول أن أحصل على ربح منك يا أبى .. مارأيك فى خمسين بيزة ؟ !

« خمسين أو ستين .. ان الأمر سيان لدى »

« حسنا يا أبى .. اشرب كأسا ثانية .. انه براندى جيد »

وانحنى الرجل فوق منضدة الشراب وأردف قائلا فى لهجة رقيقة:

« لسوف أبيعك يا أبى نصف دستة بأربع وعشرين بيزة »

ثم استطرد فى مكر ودهاء :

« لا تنس صفقة تعميد الاطفال يا ابى »

ولشدة ما كانت دهشة وخجل الراهب وهو يتذكر كيف نسى بسهولة أحداث الأعوام العشرة وهو يتحدث الآن بتلك اللهجة القديمة.. لهجة أيام كونسبكيون دون أن تغير منه شيئا تلك الخطيئة الكبرى التى اقترفها ، فلا هو يشعر بالندم ، ولا هو يشعر بكل ما حدث ! انه يشعر فقط بمرارة البراندى على لسانه كأنها بقايا شروره وآثامه . ان الله قد يغفر للانسان الخطايا الناتجة عن الجبن والشهوة . ولكن هل من المحتمل أن يغفر خطيئة التدين الناشىء عن العادات والتقاليد ! انه يذكر تلك المرأة المتدينة التى لقيها فى السجن ، وكيف عجز عن تخفيف رضائها العميق النابع من فرط تدينها المؤسس فقط على العادة والتقاليد ، انه يخيل اليه أنه قد أصبح مثلها .. أصبح من الذين يؤمنون ايمانا أعمى بغير فهم أو ادراك .

وأفرغ الكأس فى فمه ، كاللعنة ..

ان رجلا كذلك المولد البائس يمكن انقاذ روحه فى اللحظة الاخيرة .

فان حياة الجهل المطبق التى يحياها تقوم له عذرا ، وان نورالخلاص قد يضيء أحيانا ـ كالبرق ـ ظلمات القلب الممتلىء بالشر بسبب الجهل . أما « عادة التدين » فانها تحجب عن البصر والبصيرة كل شيء الا الصلاة قبل النوم ، وحضور الاجتماعات الدينية ، والشعور بالكبرياء عند ملامسة الشفاه الخاشعة لليد الموضوعة فى القفاز !

وعاد الرجل البدين يقول :

« يقولون ان لاس كازاس مدينة رائعة يا أبى .. يمكن للناس فيها ان يسمعوا القداس كل يوم .. »

واستمر الراهب فى تفكيره : وهذا أيضا رجل متدين بحكم العادة والتقاليد .. يبدو أن الدنيا زاخرة بأمثاله ..

وكان الرجل يصب ـ فى حذر ـ كمية أخرى من البراندى فى الكأس وهو يستطرد قائلا بصوته الماكر الناعم :

« عندما تصل الى هذه المدينة يا أبى ابحث عن زميل لى فى شارع جوادلرب ، ان له حانة بالقرب من الكنيسة .. وهو رجل فاضل .. أمين صندوق جمعية القربان المقدس ، تماما كما كنت أنا هنا فى العهد السعيد ، ولسوف يقدم لك ماتريد بثمن مخفض . والآن .. مارأيك فى بعض زجاجات تحملها معك أثناء الرحلة ؟ ! »

وشرب الراهب كأسه .. فلم يعد هناك مهرب من مواصلة الشرب الذى أصبح لديه عادة ، كعادة التدين ، والتحدث بلهجة الأيام الخوالى . وأخيرا قال :

« سأشترى منك ثلاث زجاجات بأحدى عشرة بيزة ، واحتفظ بالمجموعة لى لديك »

ثم شرب حثالة الكأس وعاد الى الطريق ، حيث رأى أضواء المصابيح تنساب من النوافذ ، والشارع الواسع يمتد بينها كأنه منطقة من البرارى .. ولما تعثرت قدمه فى حفرة ، شعر بيد تمسك بذراعه ، فالتفت وقال :

« آه .. أنت بدرو .. أليس هذا اسمك ؟ شكرا يابدرو »
« انني في خدمتك يا أبي .. »

وكانت جدران الكنيسة البيضاء قائمة فى الظلام كأنها جلمود من الثلج يوشك أن يذوب تحت حرارة الجو .. فقد كان السقف منهارا فى جانب منها ، والحلية التى كانت قائمة على المدخل ملقاة فوق الارض . وألقى الراهب نظرة جانبية سريعة على بدرو وهو يحاول أن يكتم أنفاسه المشبعة برائحة الخمر ، ولكنه لم يستطع فى الظلام النسبى الا أن يرى خطوط جانب وجهه ، واخيرا قال بصوت ماكر ــ كأنما يحاول أن يخدع به شعور الطمع فى أعماق قلبه :

« قل للاهالى يا بدور اننى قررت تعميد الطفل ببيزة واحدة فقط ... »

لسوف يبقى من المائة بيزة ما يكفى لدفع ثمن زجاجات الشراب حتى لو وصل الى مدينة لاس كازاس مفلسا ، وساد الصمت برهة وجيزة قبل أن يقول القروى المدعو بدرو :

« اننا فقراء جدا يا أبى .. وان البيزة لاجر باهظ على تعميد الطفل .. فان لى ــ مثلا ــ ثلاثة أطفال .. أيمكن أن نخفض الثمن الى ثلاث أرباع البيزة ؟ ! »

... ...

بسطت المس لير ساقيها التماسا لمزيد من الراحة ، بينما كانت الحشرات تتسلق أعمدة الشرفة فى الظلام الخارجى ! وكانت هى تقول :

« حدث ذات مرة فى مدينة بطرسبرج » ...

وكان أخوها قد استغرق فى النوم وهو جالس واحدى المجلات القديمة ملقاة على ركبتيه وكان البريد الاسيوعى قد وصل ، وكان الراهب يحاول أن يضحك كما كان يفعل فى الايام الخوالى ، ولكنه لم يستطع ، وفجأة تشممت مس لير الجو وقطعت حديثها قائلة :

« يخيل لى انى أشم رائحة .. خمر ؟ ؟ »

فكتم الراهب أنفاسه ، وتراجع بظهره على مقعده الهزاز وهو يفكر : ما أروع الهدوء والامن هنا ! وتذكر بعض سكان المدن الذين لا يستطيعون الاستغراق فى النوم فى الريف بسبب السكون التام .. فالسكون ، كالضجيج ، كل له أثره الذى تعودت عليه طبلة الأذن . :

وعادت السيدة تقول :

« ماذا كنت أقول يا أبى »

« كنت تقولين حدث ذات مرة فى بطر سيرج »

« آه .. نعم .. كنت فى بطر سيرج أنتظر القطار .. ولم يكن معى شىء يقرأ . فقد كانت أثمان الكتب مرتفعة ومن ثم قررت ان أشترى صحيفة .. صحيفة واحدة ، فالاخبار كلها تتشابه فى مختلف الصحف اليومية . ولما فتحت الصحيفة وجدت اسمها شيئا « كأخبار الجرائم » ولم يسبق لى أن قرأت عبارات رهيبة كالتى طالعتنى فى هذه الصحيفة ، بطبيعة الحال لم أقرأ أكثر من بضعة أسطر . وكان هذا أفظع شىء حدث فى حياتى .. فقد فتحت هذه السطور القليلة عينى على أشياء ما كان ينبغى أن أعرفها .. »

« نعم .. وبعد »

« ولم أخبر أخى لير بما حدث .. فأنى اعتقد أن مكانتى عنده ستهبط لو عرف .. »

« ولكنك لم ترتكبى خطيئة .. ! »

« يكفى أنى قرأت عنها .. »

وسمع الراهب ، من بعيد ، صوت طائر من نوع ما .. وبدأت ذبالة المصباح الموضوع على المنضدة تدخن ، فاتحنت مس لير وخفضت الذبالة قليلا ، وعاد مذاق البراندى الى فمه كأنه بقايا رائحة المخدر التى تذكر المريض بعمليته الجراحية قبل أن يفيق منها تماما ويعود الى حياته الطبيعية . انها ، أى رائحة المخدر .. تحاول أن تشده الى ذلك اللون من الحياة التى كان يحياها تحت تأثير المخدر !

وشعر فى تلك اللحظة أنه ليس جديرا بمثل هـذه الحياة الوادعة الأمنة .. ومن ثم قال لنفسه : لسوف أقلع فى الوقت المناسب عن ادمان الخمر .. لقد احتجزت هذه المرة ثلاث زجاجات من الخمر ، لســوف تكون آخر زجاجات أشربها فى حياتى ، ولن أحتاج الى شرب الخمر هناك ، ولكنه كان يشعر فى قرارة نفسه أنه كاذب !

واستيقظ المستر لير فجأة وهو يقول :

« وكما ذكرت لكم ... »

فقالت أخته :

« انك لم تكن تذكر لنا شيئا يا عزيزى .. لقد كنت نائما »

« لا لا .. لقد كنا نتحدث عن ذلك الخبيث هوفر .. »

« لا أظن يا عزيزى .. »

« حسنا .. لقد أن لنا أن نأوى الى غرفات النوم بعد هذا اليوم الطويل .. ولاشك أن ضيفنا الراهب متعب أشد التعب .. لاسيما »

ثم أضاف فى لهجة خفيفة من الاستنكار ، والازدراء :

« بعد أن سمع اعترفات الاهالى الليلة .. »

وكان الرهب قد أنصت الى اعترافات عدد كبير من الناس فيما بين الساعة الثامنة والعاشرة مساء .. ساعتان من الآثام والشرور التى ارتكبت فى هذه القرية الصغيرة خلال ثلاثة أعوام . ولكن هذه الكمية من الشرور لا تكاد تذكر بجانب شرور المدينة الكبيرة .. أم لعلها تذكر ؟ ! ان خطايا الانسان محدودة أهمهـا الخمر والرجس والفاحشة .. وكان اثناء سماعه الاعترافات جالسا فى مربط حصان على مقعد هزاز . ومذاق البراندى قويا فى فمه ، ولم يكن يكلف نفسه بالنظر الى المعترف الراكع أمامه ، بينما بقية راغبى الاعتراف قـد ركعوا فى الاستطبل ينتظر كل منهم دوره . وكان اصطبل مستر لير خاليا من الخيول منذ سنوات قليلة ولم يبق فيه غير جواد واحد عجوز كان مشدودا فى ركن مظلم ، وكان يصهل ويرفس كلما تعكر الجو بأنفاس الخطايا والآثام ..

وكان الراهب يسأل المعترف أحيانا عن عــدد ارتكابه خطيئــة معينة فيقول :

« كم مرة ؟ ! »

« عشر مرات يا أبى »

ويصهل الجواد العجوز ويرفس الهواء ..

ومما يدعو الى الدهشة والتفكير ذلك الشـعور بالبراءة الذى يسير جنبا الى جنب مع الخطيئة .. الرجل الواعى المجرب .. أو القديس ، هو الذى يخلو من مثل هــذا الشعور . وكان هؤلاء الناس يخرجون من الاسطبل مطهرين . ولم يبق أحد غيره بدون اعتراف أو توبة أو تطهير .. وقد أراد أن يقول لذلك الرجل :

« ان الحب ليس خطيئة مادام صريحا مسببا للسعادة . ولكنه يكون خطيئة اذا كان سريا مسببا للشقاء .. وليس هناك أشقى من الزانى الا الملحد ». وليس هناك يا ابنى مايدعوك للتوبة : فقد تعذبت بسبب خطيئتك بما فيه الكفاية ؟ ؟

وكان يريد أن يقول لآخر :

« ان الشهوة فى ذاتها ليست اثما .. وانما هى اثم كبير عنــدما تتحول الى حب لاينبغى أن يكون . ولا تحل علينا اللعنة الحقيقيــة الا اذا أحببنا شهواتنا التى تحولت الى خطايا .. »

ولكنه لم يستطع ان يقول شيئا من هذا بحكم العــادة ، وانما ظل جالسا ينصت الى المعترفين ، كما كان يفعل فى الايام الخوالى حين تعود أن يجلس فى تلك الغرفة الضيقة التى تشبه التــابوت ، ويترك المعترفين ليدفنوا آثامهم فى صدره .. وكان بحكم العادة أيضا يتمتم بكلمات « الخطيئــة الـكبرى .. الخطر .. ضبط النفس » كأنما هذه الكلمات تعنى أى شىء على الاطلاق . وكان يقول لبعض المعترفين « اقرأ دعاء « آباءنا » ثلاث مرات ودعاء ... »

وكان أحيانا يهمس فى تعب لمعترف اخر « ان شرب الخمر هو

الخطوة الاولى نحو ... » ثم يتوقف عن الاستطراد فى الوعظ ، وكيف يستطرد ورائحة الخمر تتصاعد مع أنفاسه فيجوالاصطبل ، ومن ثم كان يرسل عبارات وعظه التقليدية بسرعة ، وخشونة ، وبطريقة آلية تجعل المعترف يغادر المكان فى ضيق وقلق وهو يقول لنفسه « انه راهب شرير »

وقال لمعترف اخر « هذه الوصايا الدينية وضعت لصالح البشر لا للكنيسة .. فاذا لم تكن قادرا على الصوم ، فافطر ... »

وتقدمت احدى المعترفات ، وكانت امرأة عجوزا ، وراحت تثرثر باعترافاتها فى استطراد ممل ، وأخذ المنتظرون الراكعون يتململون فى اماكنهم ، والجواد العجوز يصهل ويرفس وفجأة ، وبدون أية مناسبة ، خامره الشعور بالحنين الى مسقط رأسه ، وراح يذكر اولئك الرهائن الواقفين عند صنبور الماء فى فناء مركز البوليس ، يرفضون النظر اليه حتى لايفشوا سره ، انه يذكر تلك الآلام التى تسير جنبا الى جنب مع الصبر وقوة الاحتمال ، هناك ، فى الولاية التى هرب منها عبر الجبال .. وفجأة قطع ثرثرة المرأة العجوز قائلا فى صوت حاد :

« لماذا لاتعترفين كما ينبغى . ؟ ! ماذا يهمنى أنا من نومك غير المريح فىبعض الليالى أو قلة نصيبك منالسمك يجب أنتتذكرى وتعترفى بخطاياك الحقيقية .. »

فقالت المرأة صائحة بصوت حاد مدهوش :

« ولكننى امرأة فاضلة يا أبى »

« اذن ماذا تفعلين هنا .. لماذا تحرمين غير الفاضلين من الاعتراف .. ألا تحبين أو تهتمين بأحد غير نفسك ؟ »

فقالت فى تحد وغطرسة :

« انى أحب الله »

فأرسل نظرة سريعةالى وجهها على ضوء الشمعة التى أوشكت،

أن تحترق ، فرأى امامه واحدة اخرى من المتدينين بحكم العادة .. مثله تماما !

وقال لها :

« ماذا تعرفين عن حب الله ! ! ان حب الله ليس كحبك للزوج أو الابن .. ان معنى حبك لله هو الرغبة فى ان تكونى معه .. بالقرب منه .. »

ثم لوح بيده كأنما يريد ان يزيد كلماته أيضاحا وقال :

« الرغبة فى أن تحفظى الله من نفسك »

ولما انصرف آخر معترف من الاصطبل ، مضى هو عبر الفناء الخلفى الى المنزل ، حيث كان المستر لير يقرأ فى الشرفة ، وأخته تشغل نفسها بالخياطة ، وكانت رائحة العشب فى المرجة ، المبلل بالمطر ، تنساب الى أنفه . وشعر حينئذ انه من الممكن ان يشعر الانسان فىمكان كهذا بالسعادة لو لم يكن مشدودا الى عالم الخوف والشقاء . ان الشقاء أيضا يمكن ان يكون عادة ، كالتدين ؟ ومن يدرى .. فلعل من واجبه ان يحطم هذه العادة .. عادة الشعور بالشقاء .. من واجبه ان يلتمس السلام وسكينة النفس .. انه يشعر بالحسد لكل هؤلاء الناس الذين خففوا عن نفوسهم بالاعتراف أمامه . وعزى نفسه قائلا : بعد ستة أيام ، عندما أصل الى مدينة لاس كازاس ، ستتاح لى أنا أيضا هذه الفرصة . ولكنه لم يلبث أن شعر فى أعماق نفسه بأنه لا يستطيع أن يصدق أن ثمة انسانا فى أى مكان يمكن أن يخفف عنه آثامه . انه يشعر ، حتى أثناء شربه الخمر ، أنه مرتبط بحب خطيئته ..

انه لأسهل عليه أن يتخلص من الشعور بالحقد .

وقالت له مس لير عند ما أقبل عليها فى الشرفة :

« اجلس يا أبى .. فلا شك أنك مرهق متعب .. اننى طبعا لا أعترف بجدوى هذه الاعترافات ، كذلك أخى ولكن ... »

« لا تعترفين — »

« نعم .. ولكننى لا أدرى كيف تستطيع أن تظل جالسا هكذا تنصت الى هذه الاشياء الرهيبة .. فانى أذكر أنه حدث ذات مرة فى مدينة بطرسبرج ـ »

....

كانت البغلتان قد جهزتا للرحلة أثنـاء الليل ، ومن ثم كان فى مقدوره أن يبدأ السفر عقب الفراغ من القداس مباشرة .. وكان ذلك هو القـداس الثانى الذى أقامه فى جرن مزرعة المستر لير . وكان دليله نائما فى مكان ما ، لعله كان بالقرب من مربط البغلتين . وكان ـ أى الدليل ـ رجلا نحيلا متوتر الاعصـاب لم يسبق له السفر الى لاس كازاس ، وانما كان يعرف الطريق معرفة سطحية اخبارية . وكانت مس لير قد أصرت فى الليلة السابقة على أن تتولى ايقاظه بنفسها رغم انه كان متعودا على الاستيقاظ من تلقاء نفسه قبل شروق الشمس ، وقد ظل راقدا فى الفراش ينصت الى رنين جرس المنبه فى الغرفة الاخرى وكأنه رنين جرس التليفون . وماهى غير لحظات حتى سمع دقدقة قبقاب المس لير فى الردهة ، ثم نقر أصابعها على الباب . وقد ظل المستر لير مستغرقا فى النوم وهو راقد على ظهره كأنه تمثال أسقف مستو على مقبرة .. !

واستطاع الراهب أن يرتدى ملابســه ويفتح الباب قبل أن تنصرف المس لير ، فلما رأته ، كتمت صيحة استياء وحرج لانها كانت فى جلباب النوم وشعرها مكوما فى شبكة الرأس ، فقال لها :

« أرجو المعذرة .. »

« أوه .. حسنا .. حسنا .. كم تستغرق اقامة القداس من الوقت ياأبى »

« أعتقد أن عدد الحاضرين سيكون كبيرا . وربما استغرقنا ثلاثة أرباع الساعة »

« اذن سأعد لك قدحا من القهوة وبعض الشطائر بعد أن نفرغ »

« أوه .. لا داعى للتعب .. »

« أوه .. اننا لا نستطيع أن ندعك تسافر دون افطار »

وتبعته الى الباب الخارجى وهى تحرص على الوقوف وراءه مباشرة حتى لا يراها أحد من الفضاء الواسع الممتد أمام البيت فى بكور الصباح . وكان ضوء الفجر الشاحب يبسط أجنحته الرمادية على المراعى . وكانت شجرة السوسن عند بوابة الحديقة تحمل أزهارها المتفتحة لليوم الجديد ، وهناك ، بعيدا ، وراء الجدول الذى استحم فيه ، كان بعض الاهالى يصعدون من القرية فى طريقهم الى جرن مزرعة المستر لير . وقد كان منظرهم يبدو من هذه المسافة البعيدة كأنهم غير أدميين . وكان هو يشعر بجو من السعادة المرتقبة يرفرف حوله ، فى انتظار ان يأخذ نصيبه منها وكأنه واحد فى مجموعة من الاطفال ينتظرون مشاهدة عرض سينمائى أو سماع برنامج فى الراديو . وكان يدرك مبلغ ما كان ينتظره من السعادة الخالصة لو أنه لم يترك وراءه ، فى الولاية الاخرى عبر الجبال ، الا بعض الذكريات الاليمة البسيطة . والمعتاد أن يفضل الانسان السلام على العنف ، وهاهوذا فى طريقه الى السلام ..

وقال لمس لير ..

« انى أشكر لك حسن وفادتك لى يامس لير »

وكم كان يشعر بالعجب فى أول الامر حين استقبل فى هذا البيت كضيف وليس كمجرم هارب أو كراهب شرير . أن صاحبته من مذهب دينى آخر .. من هؤلاء الذين لايخطر ببالهم وجود راهب أو رجل دين غير فاضل .. أى ليس لهما تزمت الكاثولكيين العنيف الذي يحاول أن يتفرس فى أعماق النفس البشرية .

وأجابت عليه بقولها :

« لقد استمتعنا بوجودك بيننا يا أبى . ولكنك ستكون مسرورا بالابتعاد عن هذه المنطقة . فان لاس كازاس مدينة طيبة ، أو ــ كما

يقول أخي ـ مكان اخلاقي ديني . فاذا التقيت بالاب كوينتانا فبلغه تحياتنا ، فقد كان هنا منذ ثلاثة أعوام »

وبدأ يسمع دقات ناقوس كبير .. فأدرك أن الاهالى أحضروا معهم جرس الكنيسة بعد أن انتزعوه من برجها ثم علقوه على باب جرن المزرعة ، وقد شعر وهو يسمع دقات الناقوس كأنه فى يوم أحد فى أى مكان .

وقالت المس لير فجأة :

« انى فى بعض الايام اتمنى لو استطعت الذهاب الى الكنيسة »

« وماذا يمنعك ؟ »

« أن أخى لير لا يوافق .. فهو دقيق فى هذه الناحية . ولكن مثل هذه الاحتفالات الدينية قلما تحدث الآن .. ولا اعتقـد أن قداسا آخر سيقام قبل مرور ثلاث سنوات أخرى .. »

« لسوف أعود الى هذه القرية قبل مرور هذه السنوات »

« أوه .. لا .. لاداعى لمثل هذه العوده .. فان الرحـلة شاقة ، ولاس كازاس مدينة جميلة . فان شوارعها مزودة بالمصابيح الكهربائية ، وفيها فندقان ، وقد وعد الاب كوينتانا بالعودة مثلك ولكنه وجد المسيحيين المحتاجين لصلواته فى كل مكان .. أليس كذلك ؟ فلماذا يتحتم عليه الحضور الى هنا ؟ ان الحالة الدينية هنا ليست بالغة السوء كما ترى »

ومر أمام البـوابة جماعة من الهنـود الحمر .. مخلوقات ضئيلة الحجم ، نحيـلة الاجسام ، كأنها بقايا العصر الحجرى : الرجال فى جلابيب قصيرة حاملين الهراوات والنسـاء بضفائرهن العديدة ووجوههن الجامدة واطفالهن المحمولين فى اكيـاس فوق الظهور . وقالت مس لير :

« لقـد سمع هؤلاء الهنود الحمر بوجودك هنا .. وقد قطعوا سيرا على الاقدام مسافة خمسين ميلا .. ولا عجب .. »

وتوقف الهنود الحمر امام البوابة ، وراحوا يتاملون الراهب فلما

نظر اليهم، ركعوا على ركبهم وهم يرسمون على أجسامهم ووجوههم علامات الصليب بطريقتهم الخاصة التى تبدأ بلمس الانف ثم الاذنين ثم الذقن .

وقالت المس لير :

« ان من عادة أخى أن يشعر بالغضب الشديد اذارأى أحدا يركع أمام راهب أو قس .. أما أنا فلست أرى فى ذلك اى ضرر »

وعند منعطف المنزل كانت البغلتان تضربان الارض بحوافرهما ويبدو أن الدليل جاء بهما ليأكلا كمية من الازرة قبل الرحيل . وحسنا فعل اذ المعروف عن البغال انها تأكل ببطء ولهذا يحسن أن يوضع أمامها الطعام مدة كافية قبل بدء استخدامها .

وكان الوقت قد حان لاقامة القداس ثم الرحيل ، وشعر الراهب كأنه يشم رائحة الصباح الباكر .. فقد كان الهواء نقيا ، والأرض خضراء ، والكلاب فى القرية ترسل نباح الشروق .. وكان المنبه يرسل دقاته المنتظمة ، وهو فى يد المس لير .. وقال هو :

« يجب أن أمضى الآن »

وشعر فجأة بأنه لايريد أن يترك مس لير والمنزل وأخاها النائم فى الداخل ، فقد تبين مبلغ ما فى هذه الحياة من الوداعة والاعتماد على النفس . وقد كان مثله معهما مثل الرجل الذى يفيق من عملية جراحية خطيرة فيشعر نحو أول انسان يراه بشعور خاص من المودة والحب .

ورغم أنه لم يكن مرتديا ملابسه الكهنوتية ، فقد شعر أن القداسين اللذين أقامها فى هذه القرية أقرب الى ما كان يقيمه فى عهد ابراشيته القديم من أى قداس أقامه خلال السنوات الثمانى الأخيرة ، فلم يكن ثمة خوف من هجوم رجال البوليس ، ولم يكن ثمة حاجة الى الاسراع فى تناول القرابين قبل وصول البوليس ، بل لقد أحضر بعض الأهالى معهم حجر المذبح من الكنيسة المهجورة ، ولكن ذلك الجو الوادع الجميل زاده شعورا بخطيئته وهو يبتدىء القداس بقوله :

« لا تدع عذاباتك التى تحملها جسدك يا سيدى المسيح من اجلى أنا غير الجدير بشىء تتحول الى عقاب لى يوم الحساب »
وكان يعرف أن الرجل التقى يكاد ينسى على مر الزمن وجود الجحيم فى الآخرة . أما هو فانه يحمل الجحيم بين جنبيه أينما يسير . وأحيانا كان يحلم به أثناء الليل . بل كان يحس أن جراثيم الشر تجرى فى عروقه كالملاريا ، وانه ليذكر حلما رأى فيه ذات ليلة ساحة واسعة مكسوة بالعشب ، اصطفت فيها تماثيل القديسين ، ولكن الحياة كانت تدب فى هذه التماثيل ، فهو يرى عيون القديسين تتحرك فى هذا الاتجاه أو ذاك كأنما ينتظرون شيئا .. وانتظر هو بدوره فى لهفة وترقب شديد ، وكان ثمة تماثيل عديدة للقديسين بطرس وبول ذوى اللحى المرسلة يضمون الكتب المقدسة الى صدورهم ، ويرقبون مدخلا وراءه لا يراه ، ولكنه كان يشعر كأن فى هذا المدخل وحشا متحفزا . وفجأة راح يسمع عزفا على آلة الماريمبا .. رتيب النغمات رنانا ، وانطلقت فى الجو فرقعات الالعاب النارية ، ثم اذا هو يرى فى الساحة قديسا ضخما رفيع المكانة يرقص ويتلوى وقد صبغ وجهه الدامى بالالوان ، وقد ظل فى رقصاته الشاذة الفاجرة حتى استيقظ الراهب من النوم وهو يشعر باحساس الرجل الذى اكتشف أن كل ما يمتلك من نقود ليست الا نقودا مزيفة ..

واختتم القداس اخيرا بالعبارات المألوفة فى مثل هذه المناسبات .. وقال لنفسه : بعد ثلاثة أيام سأصل الى مدينة لاس كازاس ، وهناك ستتاح لى فرصة الاعتراف والتوبة .

وذكرى ابنته التى تركها جالسة بجوار مستودع القمامة ، كانت تكر فى ذهنه وتثير فى قلبه الشعور بحب أليم : ما جدوى الاعتراف والتوبة اذا كان الانسان يحب ثمرة الخطيئة

وركع المجتمعون فى الجرن على ركبهم أثناء مروره بينهم لينصرف .. وقد رأى بينهم نساء من الهنود الحمر يحملن أولادهن

الذين عمدوا على يديه ، وبدرو ، وصاحب الحانة الـذى كان راكعا طامرا وجهه بين كفيه البدينين وحبات العرق تتقاطر من بين اصابعه .. وقد بدا فى مظهر الرجل الفاضـل ... ولعله رجل فاضـل حقا .. ولعلنى . هكذا فكر الراهب لنفسه . قد فقدت موهبـة الحكم على الناس ومعرفة حقائق نفوسهم ولعل تلك المرأة المتدينة التى رأيتها فى السجن كانت أفضل الموجودين فيه !

....

وصهل جواد كان مشدودا الى شجرة ، وارتفع صهيله فى بكور الصباح ، وانسـابت الى أعماق نفس الراهب روعة الشروق وهو واقف فى باب البيت المفتوح ، ومس لير وراءه ،

ومضى أخيرا الى حيث وقفت البغلتان وبجانبهما الدليل فى انتظاره ، وهناك فوجىء برؤية ذلك المولد ذى النابين الأصفرين ، واقفا مع الدليل ، يحك ابطيه بأظافره ، ويبتسـم فى دهاء . وكان منظره بالنسبة للراهب يشبه ذلك الالم الطفيف الذى يعيد للناقه من المرض ذكرى آلامه ، أو كأنه الخاطر الفجائى الذى يؤكد لانسان ما أن الحب رغم كل شى ء .. لم يمت

وقال الراهب له فى هدوء :

« حسنا .. لم أتوقع أن اراك هنا .. ! »

فابتسم المولد وقال وهو ممعن فى حك ابطيه :

« طبعا .. يا أبى طبعا .. »

« هل أحضرت معك رجال البوليس .. ؟ !

« ما هذا الذى تقول يا أبى ؟ »

وكان يتحدث بلهجة احتجاج وهو يرسل ضحكة بلهاء ، وكان الراهب يستطيع أن يرى وراءه عبر الفناء ، فى مدخل البيت ، مس لير وهى تعد الشطائر ، وكانت قد ارتدت ثوبا منزليا ، وان كان شعرها لم يزل مكوما فى شبكة الرأس ، وكانت تلف الشطائر بعناية

فى ورق مصقول ، وقد بدأت حركاتها الهادئة الوادعة كأنها جزء من الخيال ، أما هذا المولد ذو النابين فهو الحقيقة .

وعاد الراهب يقول :

« ماهى الخدعة التى تدبرها للايقاع بى الآن ! »

ترى ، هل قدم للدليل رشوة ليعود به الى الولاية الاولى ، عبر الجبال ؟ انه يؤمن بأن هذا المولد لايتورع عن أى شىء ..

« لايجب أن نقول شيئا كهذا يا أبى .. ؟ »

واختفت مس لير عن الابصار فى هدوء كالحلم .

« أحقا ؟ »

« اننى هنا يا أبى ... »

ثم تنفس المولد بعمق كأنما يعد نفسه لمفاجئة فى حديثه وهو يقول مستطردا :

« لأقوم بمهمة رحيمة »

وكان الدليل قد فرغ من اعداد احدى البغلتين للركوب ، وبدأ يعد الاخرى ، وضحك الراهب وهو يقول :

« مهمة رحيمة ؟ »

« نعم يا ابى .. فأنت رجل الدين الوحيد فى هذه المنطقة حتى لاس كازاس ، والرجل الذى يريدك يحتضر .. »

« أى رجل ؟ »

« الامريكى الهارب »

« مامعنى ما تقول ؟ »

« المجرم الامريكى المطارد الذى نهب وقتل .. انك تعرف من أعنى »

« انه لن يكون فى حاجة الى »

قالها فى توتر عصبى وهو يتذكر صورة المجرم المعلقة فى الجدار بالقرب من صورة أول اجتماع دينى .. وعاد المولد يقول وهو يحك ابطيه دون أن ينظر الى الراهب :

« انه كاثوليكى مخلص يا أبى .. وهو على وشـــك الموت .. وما أظن انك ــ وأنا ــ نستطيعان نحتمل وخز الضمير اذا لم نسرع »

« ان وخز الضمير فى هذه الحالة لايذكر بجانب وخزة فى خطايا أخرى »

« ماذا تعنى يا أبى ؟ ؟ »

« أعنى ان هذا الرجل قتل وسرق فقط .. ولكنه لم يغــدر باصدقائه »

« يا اله السماء ! اننى فى حياتى لم ... »

فقال الراهب :

« لقد ارتكب كل منا هذه الخطيئة »

ثم التفت نحو الدليل وأردف قائلا :

« هل أعددت البغلتين »

« نعم يا أبى »

« اذن لنبدأ الرحيل »

وكان قد نسى أمر مس لير تماما وهـــو يرى بخياله هـــذه اليد التى تشير الى حدود الولاية التى هرب منها .. وها هوذا أصـــبح مرة أخرى يستعد للهرب والتخفى ..

وسأله المولد قائلا :

« الى أين انت ذاهب ! »

« الى لاس كازاس »

ثم اعتلى ظهر احدى البغلتين ، بينما أمسك المولد بسير الركاب مما جعله يتذكر لقاءهما الاول : وقد ظل وجه المولد ينم عن نفس المشاعر التى تمتزج فيها الشكوى باللهفة والبذاءة . وقد قال بنفس اللهجة المولولة وهو يرفع وجهه الى الراهب :

« أهذا يليق براهب محترم ؟ ماذا يقول الاسقف لو سمع بهذا ؟ أتأبى انقاذ روح رجل يحتضر لانك تريد الاسراع الى مدينة ... »

« لماذا تعتقد أننى أحمق الى هـــذه الدرجة ؟ أننى أعـــرف سبب

حضورك . فأنت الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يسلمنى لرجال البوليس ، وهم لا يستطيعون أن يتبعونى الى هـذه الولاية ، واذا سألتك الآن ، أين هو هذا الامريكى المحتضر ، فسوف تقول لى . . . وأنا أعرف ــ ولا داعى لأن تقول ــ : انه موجودوراء حدود الولاية . . أى فى الولاية الاخرى التى ينتظرنى رجال البوليس فيها »

« لا يا أبى . . انك مخطىء فى هذا . . انه داخل حدود هـذه الولاية التى نحن فيها الآن . . »

« هذا لا يهم . . ان ميلا أو اثنين عبر حدود احدى الولايتين لن يثير المشكلات . . لن يحاول أحد أن يشكو أو يحتج . . »

« ان من القسوة القاسية يا أبى أن تصر على عدم الثقة بى لمجرد أنى ، ذات مرة ، وأنا أعترف بخطأى ، حسنا . . »

ووكز الراهب بطن البغلة بالركاب ، فانطلقت بعيدا عن بيت مس لير ، وانحرفت نحو الجنوب ، والمولد ذو النابين يتواثب بجانب الركاب .

وقال الراهب له :

« « اننى أذكر قولك لى انك لن تنسى وجهى أبدا »

فقال الرجل فى لهجة انتصار :

« وأنا لم أنسه فعلا ، والا لما جئت اليك هنا . . أليس كذلك ، حسنا ، يا أبى ، انى أعترف بكل شىء ، ولعلك لا تدرى كيف تغرى الجائزة المرصودة للقبض عليك رجلا فقيرا مثلى . . ولما أبيت أن تثق بى ، قلت لنفسى ، حسـنا ، ما دام يأبى الثقة بى ، فسـوف أفعلها معه . . ولكننى فى الحقيقة كاثوليكى مخلص ، ولهذا بادرت بالمجىء اليك من أجل رجل يحتضر . . »

وصعد الجميع المرتفع الواقع فى نهاية مزرعة المستر لير والمؤدى الى سلسلة الجبال التالية . وكان الهواء لا يزال عـذبا نقيا فى تلك الساعة السادسة من الصباح ، وعلى ذلك الارتفاع البالغ ثلاثة آلاف قدم . . ولا شك أن جو الليل فى مثل هذا الارتفاع سيكون باردا جدا

.. فقد كان عليهم أن يواصلوا الصعود ستة آلاف قدم أخرى .

وقال الراهب فى قلق :

« ولماذا أضع رأسى فى أحبولتك ؟ »

فقال المولد وهو يلوح بورقة فى يده :

« أنظر الى هذه يا أبى .. »

ولفت خط الكلمات المكتوبة على الورقة نظر الراهب ، انه خط الصبية كورال الكبير الانيق . وكان يبدو على الورقة أنها استعملت لتغليف كمية من الطعام ، فقد كانت البقع الدهنية متناثرة فيها . فأمسك بها وراح يقرأ فيها هذه العبارات من درس عن قصة هاملت « وكان أمير الدانمرك مترددا : هل يقتل نفسه أم يعيش معذبا بالشكوك عن مصرع والده ، أم يقدم على ضربة واحدة ... »

وقال المولد :

« لا .. ليس هذا يا أبى .. اقرأ ما هو مكتوب على الجانب الآخر من الورقة »

ولما قلب الراهب الورقة ، قرأ فيها هذه العبارة الواحدة المكتوبة بلغة انجليزية وبقلم رصاص عريض « أناشدك الله يا أبى .. »

وبدأت البغلة تبطىء فى السير لان أحدا لم يكن يحثها بالضرب . ولم يحاول الراهب أن يعيدها الى سرعة المسير . فقد شعر أن هذه العبارة لم تترك له حرية الاختيار .. وفى نفس الوقت شعر بمصراع الفخ يطبق عليه مرة أخرى ..

وسأل المولد قائلا :

« كيف حصلت على هذه الورقة ؟ »

« هذا ماحدث يا أبى .. فقد كنت مع رجال البوليس حين أطلقوا النار عليه ، وكان هذا فى قرية عبر الحدود .. وقد أمسك هو بطفل ليجعل منه وقاء له من رصاص البوليس ، ولكن هؤلاء لم يترددوا وأطلقوا النار عليه اذ كان الطفل من الهنود الحمر .. أصاب الرصاص الاثنين .. ولكنه استطاع أن يفر .. »

« اذن كيف ـ ؟ »

« هذا ماحدث بعد ذلك يا أبى .. »

وراح المولد يثرثر بما حدث .. وكان الواضح من حديثه انهخائف من الضابط الذى كان يشعر بالمرارة لافلات الراهب مغه . ومن ثم قرر الهرب بدوره عبر الحدود ليكون بعيدا عن بطش الضابط . وفى ذات ليلة أتيحت له فرصة الهرب .. وفيما هو يسير بعد أن عبر الحدود الى هذه الولاية ، أو لعله لم يكن قد عبرها ، فان أحـــدا لايدرى أين تبدأ الحدود بينهما تماما وأين تنتهى ، شاهد المجرم الامريكى ، وكان مصابا فى بطنه بطلق نارى .

وعندئذ سأله الراهب :

« اذن كيف استطاع الفرار وهو مصاب فى بطنه ؟ »

« انه يا أبى رجل هائل القوة .. وهو الآن يحتضر وفى حاجة الى راهب يصلى بجانبه »

« وكيف أمكنه أن يقول لك هذا كله ؟ »

« لقد ذكر لى رغبته فى كلمتين .. ولكى أثبت لك هذه الحقيقة بالدليل ، عثرت على ورقة كتب عليها هاتين الكلمتين .. و »

وظل المولد يستطرد فى ثرثرته ، وكان الراهب يرى أن قصـــته مليئة بالثغرات كالغربال ، ولكن قصاصة الورق بقيت فى يده حقيقة واقعة كأنها نصب تذكارى لاتستطيع أن تتجاهله .

وعاد المولد يقول وقد استبد به الغضب فجأة :

« ألا تصدقنى يا أبى ؟ »

« «نعم .. لا أصدقك ولا أثق بك »

« اذن فأنت تعتقد أنى كاذب ؟ »

« أكثر حديثك كذب »

ثم أوقف البغلة وبقى فوقها يمعن التفكير وهو مستقبل بوجهه ناحية الجنوب ، انه موقن تماما بأن حديث المولد مجرد فخ ، ولعل المولد نفسه هو الذى رسم الخطة .. فهو يسعى دائبا للظفربالجائزة

ولكن .. تبقى الحقيقة الواضحة ، وهى أن المجرم الامريكى يحتضر فعلا .. وخطرت بباله ادارة شركة الموز المهجورة ، والطفل الهندى الذى عثر عليه مقتولا فوق كومة الازرة . نعم .. ليس هناك أدنى شك فى أنه مطلوب .. وان الذى يطلبه رجل فى لحظاته الاخيرة .. وان أعجب مافى الامر كله ، أنه شعر فى تلك اللحظات بالسعادة والابتهاج . فهو فى الواقع لم يؤمن لحظة واحدة بهذا السلام المنتشر حوله .. حقا لقد ظل يحلم به فى سنوات المحنة ، وهذا السلام – حتى الآن – لايزال مجرد حلم ..

وبدأ يصفر بشفتيه لحنا .. نغمة سمعها ذات مرة فى مكان ما :

« **لقد عثرت فى حقلى على زهرة –** »

لقد آن له يفيق من الحلم .. ولم يكن فى الواقع حلما جميلا .. اذ كيف يمضى الى مدينة لاس كازاس ليعترف ويتطهر وينعم بكل شىء ،بينما يحرم من راحة الاعتراف رجلا مثقلا بالذنوب يحتضر .. !

وسأل المولد قائلا :

« ألا يزال الرجل على قيد الحياة ؟ »

فالتمعت فى عينى المولد ذى النابين نظرة ملهوفة وهو يقول :

« أعتقد هذا .. »

« كم نستغرق من الوقت لنصل اليه ؟ »

« أربع .. أو خمس ساعات »

« يمكنك أن تتبادل مع الدليل ركوب البغلة الثانية »

وأدار الراهب خطام البغلة عائدا بعد أن شرح الامر بايجاز للدليل ثم طلب منه أن يترجل حتى يركب المولد بغلته ، ولم يعترض الدليل على شىء ، وانما قال للمولد وهو يشير الى خرج البغلة المنبعج :

« اركب بحذر .. فان فى هذا الخرج زجاجات خمر الاب »

وعادوا فى بطء نحو منزل مس لير ، وهناك ، عند الباب استقبلتهم بقولها :

« لقد نسيت الشطائر يا أبى .. »

فقال فى غير اهتمام وهو يتلفت حوله :
« أوه .. نعم .. شكرا .. ألا يزال المستر لير نائما ؟ ! »
« هل أوقظه ؟ »
« لا لا .. ولكن أرجو فقط أن تشكريه نيابة عنى على حسن ضيافته لى »
« سأفعل يا أبى .. وأرجو ـ كما قلت ـ أن نلتقى مرة أخرى فى خلال بضع سنوات .. »
ثم نظرت بدهشة الى المولد الذى رد على نظراتها بأخرى وقحة من عينيه الصفراويين . وقال الراهب مجيبا وهو يشيح بوجهه ليخفى بسمة غامضة :
« هذا محتمل »
« وداعا يا أبى .. يحسن أن ترحل الان ، فان حرارة الشمس توشك أن تشتد .. »
« وداعا يا عزيزتى مس لير .. »
وضرب المولد جوانب البغلة فى صبر نافد ليمضى بها ، بينما قالت مس لير له :
« ليس هذا هو الطريق يا رجل .. »
فأجابها الراهب شارحا وهو يمضى وراء المولد فى الطريق الى القرية : « لسوف أقوم أولا باحدى الزيارات »
واجتازوا فى طريقهم الكنيسة ذات الجدران البيضاء ، وكانت تلك أيضا من سمات الحلم ، فلم تكن الحياة الواقعية فى تلك المنطقة تعترف بالكنائس ، وامتد أمامهم شارع القرية الواسع غير الممهد وكان ناظر المدرسة جالسا فى مدخلها بنظارته السميكة ، فلما رأى الراهب لوح يحييه متهكما وهو يقول بسخرية :
« مع السلامة يا أبى بغنائمك ! ! »
وأوقف الراهب بغلته وقال للمولد :
« حقا .. لقد نسيت .. »

فعاد ناظر المدرسة يقول بلهجته التهكمية :

« لقد ظفرت بمبلغ كبير من عمليات التعميد .. ان انتظار بضع سنوات قد جاءك بربح كبير .. »

فقال المولد يستحثه للسير :

« يا أبى .. لا تستمع اليه .. انه رجل شرير »

ثم بصق على الارض

وقال الراهب للناظر :

« انك أدرى بأحوال الناس هنا من أى انسان .. فهل اذا تركت لك مبلغا من المال تعدنى بتوزيعه على الفقراء لشراء حاجيات لا ضرر فيها .. كالطعام والملابس .. والكتب ؟ »

« انهم أحوج الى الطعام من الكتب .. »

« ان معى خمسا واربعين بيزة .. »

فولول المولد قائلا :

« ماذا تنوى أن تفعل يا أبى ؟ »

وقال الناظر :

« أهو مال تتبرع به لراحة ضميرك ؟ »

« نعم .. »

« أشكرك على كل حال .. وانه لجميل ان يشاهد الانسان راهبا له ضمير .. أن هذا دليل على نجاح القانون الجديد .. »

وكان زجاج نظارته يعكس ضوء الشمس وهو يتحدث .. وكان وجهه ينم عن الحقد والمرارة وهو جالس بجسمه البدين على مدخل مدرسته ذات السقف المنحدر المصنوع من الصفيح ، .. مجرد رجل منفى من الحياة ..

ولما جاوزوا آخر بيت فى القرية ، ثم المدافن ، وبدأوا فى الصعود الى سلسلة الجبال ، عاد المولد يقول محتجا :

« لماذا .. لماذا يا أبى ـ »

فقال الراهب :

« انه ليس رجلا شريرا بطبعه .. انه يحاول أن يؤدى واجبه .. وأنا فى غير حاجة الى المال بعد اليوم .. أليس كذلك ؟ ! »

وسارا فى الطريق فترة دون أن يتبادلا الحديث .. وارتفعت الشمس الى سمت الضحى وهى ترسل ضوءها الباهر فى عيونهما ، وأخذت البغلتان تكدان فى صعود الممر المنحدر المكسو بالعشب ، وعاد الراهب مرة أخرى يصفر بشفتيه لحن « لقد عثرت فى حقلى على زهرة » . وعاد المولد يقل محتجا :

« ان المشكلة معك يا أبى هى — »

ولم يستطع أن يتم عبارته لانه لم يجد ما يشكو منه حقا ..

وظلا فى سيرهما شمالا .. نحو الحدود .. وأخيرا سال الراهب المولد قائلا :

« أتشعر بالجوع ؟ »

وغمغم المولد بكلمات غامضة غاضبة ، بينما أردف الراهب قائلا وهو يفض لفافة الشطائر :

« اليك هذه الشطيرة »

الفصل الثانى

وهتف المولد أخيرا فى لهجة حادة تنم عن الفوز :
« هذا هو المكان »

وكان يتحدث بلهجة البرىء الذى ظل سبع ساعات موضع الشك والريبة ، وكان يشير نحو مجموعة من أكواخ الهنود الحمر ، تقع وراء ساحة واسعة ، فوق منطقة صخرية تشرف على هاوية عميقة .. وكان الوصول اليها يحتاج منهما الى مسيرة ساعة من الزمن يهبطان خلالها نحو ألف متر ، ثم يصعدان ألف متر أخرى ..

وظل الراهب فوق بغلته برهة يحدق النظر الى القرية من بعيد .. ولكنه لم يستطع أن يرى أية حركة تدل على وجود احد بها .. حتى كوخ المراقبة القائم فى أعلا مكان من القرية كان كما بدا له مهجورا ..

وقال وهو يشعر مرة أخرى بجو العزلة يرين عليه :
« يبدو أن هذه القرية مهجورة تماما »

« حسنا .. وهل كنت تتوقع أن تجد فيها أحدا .. غيره .. ؟ انه هناك .. ولسوف تراه حالا .. »

« وأين الهنود الحمر ؟ »

فقال المولد بلهجته الشاكية :

« ها أنت ترتاب فى أمرى مرة أخرى .. انك لا تكف عن الريبة كيف أستطيع أن أعرف أين الهنود الحمر ؟ ! لقد قلت لك انه مختبىء بمفرده »

وترجل الراهب عن البغلة ، وهتف المولد مضطربا يائسا :

« ماذا أنت فاعل الآن .. ؟ »

« اننا لن نحتاج الى البغلتين بعد الآن .. يجب أن يعودا الى أصحابهما »

« لن نحتاج اليهما ؟ ! اذن كيف سنعاود الهرب من هنا ؟ »

« أوه .. اننى فى غير حاجة للتفكير فى هذا الاحتمال .. أليس كذلك ؟ »

ثم قال للدليل وهو يعطيه أربعين بيزة :

« لقد استأجرتك للوصول الى مدينة لاس كازاس .. أى لمدة ستة أيام ، وهاك أجر هذه الايام الستة .. انه حظك السعيد اليوم .. »

« ألن تحتاج الى خدماتى بعد الآن يا أبى ؟ »

« لا .. وأعتقد انه يحسن بك الانصراف عن هذا المكان بأسرع ما تستطيع »

فقال المولد مهتاجا :

« ولكننا سنستغرق وقتا أطول اذا سرنا على الاقدام يا أبى .. والرجل كما ذكرت لك يحتضر .. »

« ان فى مقدورنا السير على أقدامنا بنفس سرعة البغلتين .. »

وبعد ان أمر الدليل بالانصراف ، أخذ المولد يرقب البغلتين وهما تهبطان المنحدر الوعر بنظرات ملؤها الاسى والطمع .. وقد ظلت دقدقة حوافرهما تمزقان السكون حتى بعد أن اختفيا عن الانظار وراء منعطف صخرى ..

وقال الراهب اخيرا بنشاط :

« هلم الان .. فليس ثمة ما يدعونا الى التريث .. »

وبدأ يهبط المنحدر الضيق حاملا غرارة صغيرة على كتفه وكان يسمع المولد وهو يلهث وراءه بأنفاسه الكريهة .. ولعلهم قد سمحوا له ـ فى العاصمة ـ بالاسراف فى شرب البيرة ، وأخذ الراهب

يفكر بشيء من الاحتقار والسخرية ـ فى سلسلة الاحـــــداث التى وقعت لكل منهما منذ التقيا أول مرة فى هذه القرية التى لم يعرف حتى اسمها ، لقد كان المولد راقدا فيها ، بعد الظهيرة ، داخل سرير معلق ، وقد كشف عن احـدى ساقيه الشاحبتين ، فلو أنه كان مستغرقا فى النوم حينذاك ، لما وقع كل هذا الذى يحدث الان ، انه الحظ التعس الذى اعتلى كاهل هـذا الرجل المسكين وجعله يسعى ـ من أجل المال ـ لارتكاب هذه الخطيئة الرهيبة .. خطيئة الغدر الابدى ، خطيئة الخائن يهوذا !

وأرسل الراهب خلفه نظرة سريعة رأى بها اصبعى قدم المولد مطلين من حـذائه المطاط كأنهما حشرتان تسعيان . وكان الرجل ينقل قدميه فى جهـد وهو لا يكف عن ترديد الشـكوى . وقد كانت غمغمته هذه تضاعف من شعوره بالتعب وتقطع النفس .. وفكر الراهب ، ياله من مسكين .. انه ليس شريرا كما ينبغى .. وهو أيضا لا يتمتع بقوة بدنية تكفى لاحتماله مشقة هذه الرحلة .. فقد كان متخلفا عن الراهب خمسين مترا حين بلغ هـذا الاخير نهاية المنحدر ، ثم استعد لصعود المرتفع المؤدى الى القرية المهجورة.

وجلس الراهب على صخرة واخـذ يجفف العرق عن جبينه وبدأ المولد ينطلق بالشكوى قبل وصوله الى نهاية المنحدر قائلا :

« ليس هنا ما يدعو الى كل هذه العجلة »

وكان الواضح أن شعوره بالظلم نحو ضحيته يزداد كلما اقترب معه نحو مسرح الغدر .

وقال له الراهب :

« ألم نقل ان الامريكى يحتضر ؟ !

« أوه .. نعـم .. نعـم .. ولكن صـعود روحه يستغرق فترة طويلة »

» كلما طال احتضاره كان خيرا للجميع .. وعلى كل حال ربما كنت على صواب ، لسوف أستريح هنا قليلا ».

ولكن المولد لم يلبث ــ كالطفل المعاند ــ أن أعرب عن رغبته فى الاسراع ، ومن ثم قال :

« انك لا تتوسط فى أفعالك .. فاما أن تسرع أكثر مما ينبغى ، واما أن تبطىء »

فقال الراهب معاتبا :

« ألا ترانى مصيبا فى أى عمل ؟ »

ثم أردف قائلا فى جد ومكر :

« انهم سيسمحون لى برؤيته : أليس كذلك ؟ »

« طبعا .. »

ثم استدرك المولد بسرعة وقال :

« انهم ؟ ! انهم ؟ ! ماذا تعنى بحديثك هذا ، انك تشكو أول الامر من عزلة المكان ، وها أنت الان تتحدث بلهجة وصيغة الرجل الذى يعتقد بوجود أحد هنا »

ثم أردف قائلا بصوت باك :

« قد تكون رجلا فاضلا .. وقد تكون ــ بقدر ما أعلم ــ قديسا .. ولكن لماذا لا تتحدث بصراحة ووضوح حتى يستطيع رجل مثلى أن يفهمك .. ان موقفك هذا يخرج الانسان من مذهبه .. ! »

فأشار الراهب الى الغرارة الصغيرة التى كان يحملها وقال .

« أترى هذه الغرارة ؟ لن يستلزم الامر أن نستمر فى حملها .. انها ثقيلة .. وأعتقد أن قليلا من الشراب سيفيد كلامنا .. ان كلانا فى حاجة الى بعض الشجاعة .. أليس كذلك ؟

فقال المولد متسائلا بلهفة :

« شراب يا أبى »

ثم راح يرقب الراهب وهو يفض احدى الزجاجات ، ولم يحول عنه نظراته وهو يراه يشرب ، وبرز ناباه الاصفران الى الخارج ،

وأخذا يرتعدان فوق شفته السفلى ، ولما أطبق بدوره على الزجاجة فى نهم ، أرسل الراهب ضحكة خفيفة وهو يقول :

« أظن ان القانون يحرم شرب الخمر داخل حدود هذه الولاية .. اذا كنا قد أصبحنا داخلها فعلا .. ! »

ثم تناول الزجاجة وشرب منها مزيدا من الجرعات قبل أن يعيدها ، ولم تلبث أن فرغت ، فقذف بها على حجر فانفجرت كالقنبلة ، وفزع المولد قائلا :

« كن على حذر والا اعتقد الناس أن لدينا بندقية ؟ »

فقال الراهب متجاهلا عبارته :

« أما الباقى .. فلن نكون فى حاجة اليه »

« هل تعنى أن لديك زجاجات باقية من الخمر »

« نعم .. اثنتان .. ولكن لن نستطيع أن نشرب مزيدا من الخمر فى هذا الجو الحار ، ولهذا يحسن أن نتركهما هنا .. »

« ولماذا لم تخبرنى يا أبى أن الغرارة التى تحمل فيها الزجاجات ثقيلة ، لكى أحملها عنك . فما كان عليك الا أن تأمر فأنفذ لك الامر .. عن رضى .. ولكنك لا تطلب منى شيئا .. »

واستأنفا الصعود الى المرتفع مرة اخرى ، وكانت الزجاجتان تصلصان برفق ، وأشعة الشمس تنصب رأسيا عليهما وهما يصعدان . وقد استغرق وصولهما الى الساحة الجزء الاكبر من الساعة ، وهناك ، فى ساحة القرية ، شاهدا كوخ المراقبة يطل عليهما من عليائه كأنه الفك الاعلى لحيوان وحشى ضخم ، أما بقية الاكواخ فقد بدت متناثرة على الصخور فوقهما مباشرة . ومن عادة الهنود الحمر أن يقيموا قراهم على جوانب ممرات البغال حتى يستطيعوا منها أن يشرفوا على القادم فى هذه الممرات .. وتساءل الراهب فى نفسه : متى سينقض رجال البوليس عليه ! لا شك أنهم يحسنون اخفاء أنفسهم عن ناظريه ..

وتقدم المولد الراهب وراح يتسلق الصخور الى الاكواخ وهو يقول :

« من هذا الطريق يا أبى »

وكان القلق يرتسم على وجهه كأنما يخشى ان يحدث شيء قبل الموعد المتفق عليه ، وكان عدد الاكواخ لا يتجاوز اثنى عشر كوخا ، قائمة على الصخور كأنها المقابر .. وكان الجو ينذر بعاصفة مقبلة ..

وأحس الراهب بالتوتر العصبى الناشىء عن نفاذ الصبر .. لقد سار بنفسه الى هذه المصيدة ، وان كل مافى مقدورهم أن يفعلوه هو أن يغلقوا عليه باب المصيدة وينتهوا من أمره بسرعة .. وأخذ يتساءل : ترى هل سيطلقون الرصاص عليه من أحد الاكواخ ؟ لقد وصل الى حافة الزمن .. وعما قليل لن يكون له غد ، ولاأمس وانما هو وجود دائم الى الابد .. وتمنى فجأة لو انه شرب مزيدا من الخمر ، وتهدج صوته فى اضطراب وهو يقول :

« حسنا .. ها نحن قد وصلنا .. أين الامريكى ؟؟ »

وقال المولد وكأنما فوجىء بالسؤال :

« آه .. الامريكى .. »

وكأنما نسى فى تلك اللحظة هذا الادعاء . وظل واقفا فاغرا فاه ينظر الى الاكواخ فى تساؤل ، ثم قال :

« لقد كان هنا عندما تركته .. »

« حسنا .. انه لا يستطيع الحركة .. أليس كذلك ؟! »

وخطر له أنه لو لم يقرأ الرسالة القصيرة لشك فى وجود الامريكى على ظهر هذه الارض .. ولكنه رأى أيضا الطفل القتيل !! وبدأ يسير عبر الساحة الصغيرة نحو أحد الاكواخ .. ترى هل سيطلقون النار عليه قبل أن يبلغ مدخله ، لقد كان يسير كأنه معصوب العينين ، فهو لا يعرف متى سيسقط فى هاوية اللانهائية . وسعل مرة واحدة وعقد يديه وراء ظهره حتى يمنعهما من الارتعاد . وتذكر أنه شعر بالسرور وهو ينطلق بعيدا عن منزل مس لير فى الطريق الى هنا ..

فقد كان لا يؤمن البتة بأنه سيعود مرة أخرى الى عمله الكهنوتى ، والى اقامة القداس اليومى ، والى مظاهر التقوى والتدين . ورغم هذا فقدشعر أنهفىحاجةالىقليلمنالخمر ليفقد بعض وعيهقبلالموت .. وبلغ الباب والسكون مخيم حوله فى كل مكان . وفجأة سمع صوتا يقول بخفوت :

« أبى ... »

فتلفت حوله حيث رأى المولد مربد الوجه فى الرحبة .. وكان ناباه يتراقصان فوق شفته بعنف ، فقال له الراهب :

« ماذا تريد .. ؟ »

« لا شىء يا أبى »

« اذن لماذا ناديتنى ؟ »

فقـال كاذبا :

« أنا لم أنطق بحرف »

واستدار الراهبودخل الكوخ ، وهناك ، فىداخله ، رأىالأمريكى الهارب ، ولكنه لم يدر أن كان ميتا أم على قيد الحيـاة لم يزل . فقد رآه راقدا على قطعة من الحصير مغلق العينين ، مفتوح الفم ، واضعا يديه على بطنه كما يفعل الطفل حين يشعر بالألم فى هـذا الجزء من جسمه . ولم يكن ثمة شك فى أن الالم قد غير سـمات وجهه ، أو لعل حياة الجريمة قد وضعت طابعها الزائف ــ كالسياسة والتظاهر بالتقوى ــ على سمات ذلك الوجه . فقد كان بعيد الشبه عن صورة ذلك الوجه المعلقة على جدار غرفة ضابط البوليس اذ كان وجه الصورة قوى الملامح ، متعجرفا ، كأنه وجه رجل ناجح فى الحياة ، أما هذا الراقد أمامه فى الكوخ ، فان له وجه متسول . لقد كشف الالم عن الاعصاب وأضفى على الوجه لونا من الذكاء الكاذب .

وركع الراهب وأدنى وجهه من شفتى الرجل المسجى وحاول أن ينصت الى حسيس أنفاسه ، وانساب الى أنفه مزيج من رائحة قىء وتبغ سيجار وخمر رخيصة . وكان الامر يحتاج الى مجموعة

من الزهور العاطرة للتغلبعلى هذهالرائحة التى انساب معها صوت خافت هامس يقول بالانجليزية :

« أسرع بالهرب يا أبى » . . »

وفى خارج الكوخ ، فى ضوء النهار العاصف ، كان المولد واقفـا ينظر الى المدخل وهو يشعر بخلخلة فى ركبتيه .!

وقال الراهب فى اهتمام :

« اذن فأنت على قيد الحياة . . يحسن بك أن تسرع بالاعتراف، فليس لدينا أىوقت . . »

« أسرع بالهرب يا أبى . . »

« انكتريدنى . . أليس كذلك ؟ ألست كاثوليكى المذهب ؟؟ »

وعاد الرجل المحتضر يهمس بهذه الكلمات التى كأنه لا يعرف غيرها من درس تعلمه منذ أمد بعيد :

« أسرع بالهرب ياأبى . . »

« هلمالآن . . كم مضى عليك منالوقت منذ اعترفت آخر مرة؟»

وارتعدت أجفان الامريكى وهو يفتح عينيه وينظر فى دهشـــة بالغة الى الراهب ثم يقول بصوت كله العجب :

« عشر سنوات . . تقريبا . . ولكن ماذا تفعل أنت هنـا على كل حال ؟ »

« لقد طلبت حضور أحد رجال الدين . . هلم الآن . . ان عشر سنوات وقت طويل جدا »

فعاد المحتضر يقول وكأنما تذكر كلمات الدرس المحفوظة :

« عليك أن تسارع بالهرب يا أبى »

وظل راقدا على الحصير ويداه فوق بطنه ، وكانت كل الحيوية المتبقية فيه مركزة فى ذهنه ، وكأنه حيوان زاحف مات طرف منــه وبقى الطرف الآخر حيا . وعاد يقول بصوت عجيب :

« ذلك اللعين ــ »

فقال الراهب بغضب :

« ما هذا الذى تقول ، لقد تحملت مشاق الرحلة خمس ساعات لاصل اليك .. فاذا كل ما أسمع منك هذه الكلمات البذيئة .. »

وأحس الراهب بظلم القدر له ، اذ جعله يغامر بحياته ليأتى الى هذه المنطقة ، ثم اذا هو يتبين أنه غير ذى نفع لرجل من هذا النوع .

وعاد الرجل المحتضر يقول :

« أنصت الى يا أبى .. »

« انى منصت »

« يجب أن تهرب بسرعة من هنا ، فانى لا أعلم متى — »

« اننى لم أقطع هذه المسافة الطويلة الى هنا لاهتم بأمر نفسى . وكلما أسرعت بالاعتراف ، أتيحت لى فرصة العودة سريعا .. »

« لا داعى لان تهتم بأمرى .. فانى قد انتهيت — »

فقال الراهب بغضب :

« أتعنى أنك ستموت ملعونا ؟! »

فقال الرجل وهو يلعق الدماء من شفتيه :

« نعم .. ملعونا .. »

فازداد الراهب انحناء على أنفاس المحتضر الكريهة وهو يقول :

« انصت الى . لقد جئت الى هنا لاسمع اعترافاتك .. فهل تريد أن تعترف ؟ »

« لا .. »

« هل أنت الذى كتبت على قصاصة الورق كلمتى : أناشـدك الله .. ؟ »

« ربما .. »

« اننى أعرف ماذا تريد أن تقول لى .. اننى أعرف .. هل تفهم .. دعك من هذا الآن واذكر أنك تحتضر .. لاتتواكل كثيرا على رحمة الله ، . فان الله قد أتاح لك هذه الفرصة للاعتراف .. ومن المحتمل الا يتيح لك فرصة أخرى .. ما نوع هـذه الحياة التى

كنت تحياها طوال هذه السنين .. ؟ أتراها الآن حياة رائعة ؟ لقد قتلت عددا كبيرا من الناس .. هذا هو كل ما فعلته فى حياتك .. وكل انسان يستطيع أن يفعل هذا زمنا ، ثم يقتل بدوره .. كما قتلت أنت الآن .. وهكذا لم يبق من حياتك كلها شيء غير الآلام »

« أبى .. »

« نعم .. »

ثم تنفس الراهب بعمق وضيق صدر ، وازداد اقترابا من المحتضر وقد خامره الامل بأنه استطاع أخيرا أن يغريه بالاعتراف ولو بشيء قليل من آثامه . ولكن الرجل فاجاه بقوله :

« خذ مسدسى يا أبى .. هل تفهم ما أعنى ؟ ان المسدس تحت ذراعى »

« اننى فى غير حاجة لاستعمال المسدس »

« لا ..لا انك أحوج ما تكون اليه »

ثم رفع احدى يديه عن بطنه واخذ يحركها ببطء وبألم شديد جعل الراهب يشيح بوجهه من فرط الحزن . واخيرا قال له بحدة :

« اهدأ .. ان المسدس غير موجود فى جرابه »

وكان قد رأى الجراب تحت ذراع المحتضر فارغا ، مما جعله يؤمن بأن ثمة أشخاصا آخرين موجودين بالقرية غيره وغير الامريكى المحتضر والرجل المولد .

وغمغم المحتضر قائلا :

« الملاعين .. »

ثم ترك يده تهوى حيث كانت ، فوق قلبه ، ومن ثم أصبح يشبه الى حدما تمثالا نسويا وقد وضع يدا على قلبه ، والاخرى على بطنه ، وكان الجو شديد الحرارة داخل الكوخ . وكانت رهبة العاصفة المقبلة تنتشر فوقهم ..

« أنصت الى يا أبى »

وجلس الراهب ـ فى غير أمل ـ بجانب الرجل .. فقد أدرك

أنه لا شيء يمكن تحويل تفكيره العنيف نحو السلام .. ولعله ، فى ذات لحظة ، قد حاول أن يتطهر ، حين كتب الرسالة ، ولكنها كانت بارقة لم تلبث أن اختفت .. وانه الآن يهمس بكلمات حول سكين .. والمعروف ان بعض المجرمين يعتقدون أن عينى المتوفى تسجلان على حدقتيهما آخر شيء كان أمامهما . وعلى هذا الاساس يعتقد بعض المؤمنين أن الروح فى اللحظات الاخيرة قد تنعم بالتوبة والسلام بعد حياة حافلة بالاثم والخطيئة . وفى بعض الاحيان تحرم الروح من هذه الفرصة عندما يموت الرجل المتدين فجاة وهو فى ماخور ! وبذلك تمضى الروح بعد حياة فاضلة طاهرة وهى محملة بوزر اخر شيء كانت فيه مع الجسم أثناء الحياة ـ وقد سمع الراهب كثيرا من الناس يناقشون جدوى الاعتراف والتوبة فى ساعة الموت .. يقولون انه من الظلم أن يعيش الانسان حياة حافلة بالخطيئة والاثم ، ثم يموت نقيا مطهرا لانه اعترف بآثامه حين حضرته الوفاة ، بينما يموت غيره محملا بالاوزار لانه لم تسنح له فرصة الاعتراف ساعة الموت رغم حياته التى قضاها نقيا تقيا ؟

وشرع الراهب يبذل مع المحتضر محاولة أخيرة :

« لقد آمنت يوما .. حاول ان تدرك الوضع الذى انت فيه .. هذه اخر فرصة لاخر لحظة من حياتك .. لقد قتلت رجالا .. »

ثم اضاف وهو يذكر الطفل الهندى الذى رآه مقتولا على كومة الاذرة :

« وربما أطفالا ... ولكن ليس لهذا كله أهمية كبيرة .. ان هذه الخطايا تتعلق بهذه الحياة الدنيا .. أى بعدد من السنين .. وقد انتهت الان .. يمكنك أن تتخلص الان من حياتك الدنيا كلها ، بما فيها من شرور ، فى هذا الكوخ ، ثم تمضى الى الابدية نقيا طاهرا .. »

وشعر الراهب بشيء من الحزن واللهفة وهو يذكر فى غموض ، ألوانا من الحياة لم يستطع هو أن يحياها .. ألوانا تصورها هذه

الكلمات : السلام .. والمجد .. والحب .. وسمع المحتضر يقول له ملهوفا :

« أبى .. دعنى وشأنى .. انقذ نفسك من الخطر .. هـــذه سكينتى .. »

ثم بدأت يده تتحرك بذلك البطء الاليم نحو ردفه هـــذه المرة . وارتفعت الركبتان قليلا وهو يحاول أن يميل على أحـــد جنبيه ، وفجأة همد الجسم .. وسكنت حركته .

وأسرع الراهب يهمس بعبارات الغفران آملا فى أن يتيح للروح ، لمدة لحظة خاطفة ، أن تنعم بالتوبة قبل أن تجتاز الحد الفاصل بين حياة فانية وأخرى باقية . ولكنـــه كان يرجح أن الروح ستمضى محملة بوزر الحركة الاخيرة .. حركة البحث عن السكين والرغبة فى العنف

وقال الراهب فى دعائه « يا الهى الرحيم .. انه رغم كل شىء كان يفكر فى أمرى .. كان يريد انقاذى .. »

ولكنه كان يبتهل وهو غير معتقد بأن الله سيتقبل دعواته . فقد كان يرى أن الامر كله ما هو الا محاولة مجرم لانقاذ مجرم آخر .. وعلى أى وجه نظرت الى الامر ، فانك لن تجد فى كل وجه فضـــلا كبـــيرا . . .

. . . .

الفصل الثالث

وارتفع فى داخل الكوخ صوت يقول

« حسنا .. هل فرغت الآن ؟ »

ونهض الراهب وأومأ بالايجاب فى شىء من الفزع . فقد رأى فى مدخل الكوخ ذلك الضابط الذى منحه بعض المال فى السجن ... هو بعينه فى سمرته وحسن سمته ووميض العاصفة ينعكس على تزلكه ، وكانت احدى يديه على مقبض مسدسه وهو ينظر متجهما الى المجرم القتيل .. وأخيرا قال :

« لم تكن تتوقع أن ترانى ؟ »

« بل كنت أتوقع .. ويجب أن أشكر لك ؟ »

« تشكر لى ؟ لماذا ؟ »

« لانك سمحت لى بالبقاء على انفراد .. معه »

« اننى لست همجيا .. هل تسمح الآن بالخروج ؟ فلم يكن ثمة جدوى فى محاولاتك للهرب .. كما ترى بنفسك الآن .. »

وغادر الراهب الكوخ حيث رأى نحو عشرة رجال مسلحين يحاصرون المكان ،ومن ثم قال« لقد بذلت مافيه الكفاية لمحاولة الهرب»

ولم يكن ثمة أثر للرجل المولد ذى النابين .. وكانت السحب الثقال تتجمع فى السماء ، وتجعل جبال الارض تبدو كأنها دمى أطفال مضيئة تحتها .. وقال وهو يتنهد ثم يضحك بعصبية :

« أية مشقة تحملتها فى عبور هذه الجبال .. والآن .. ها أنذا »

« لم أكن أصدق أنك ستعود .. أبدا »

« أوه .. حسنا .. انك تعرف السبب أيها الضـابط .. حتى الجبان لا يخلو من الشعور بالواجب »
وشعر على وجهه بلمسات من هذا الهواء النقى البارد الذى يهب عادة قبيل العاصفة ثم قال وهو يحاول أن يتكلف الهدوء
« هل ستطلقون الرصاص على الآن ؟ »
فقال الضابط فى حدة :
« اننى لست همجيا .. لسوف نقدمك لمحاكمة عادلة »
« بأية تهمة ؟ »
« الخيـانة » .
« هل سأحتاج الى قطع كل هـذه المسافة للعودة معكم الى العاصـمة » .
« نعم .. ما لم تحاول الهرب » .
وكان يتحدث ويده على مقبض المسـدس كأنما يخشى أن يفر الراهب من بين اصابعه فى اية لحظة ، ثم عاد يقول :
« أستطيع ان اقسم انى فى مكان ما .. »
« رأيتنى مرتين .. نعم .. عندما اخذت أحد الرهائن من قريتى وقد سألتك هناك ابنتى الطفلة : من هذا الرجل ؟ فأجابتك قائلة : انه أبى . ومن ثم افلت منك »
وفجأة غابت الجبال عن أنظار الجميع ، كأنما ألقى أحـدهم فى وجوههم فيضا من المـاء . وهتف الضابط للراهب :
« هلم أسرع الى الكوخ »
ثم التفت الى أحد رجاله وأردف قائلا :
« ايت لنا ببعض الصناديق لنجلس عليها .. »
ودخل الرجلان الى الكوخ ، حيث جثة المجرم القتيل ، وانطلقت العاصفة ، حولهما عاتية ممطرة ، وأقبل أحد رجال البوليس حاملا صندوقين والمطر يتساقط من ملابسه ، فقال له الضابط « أحضر شـمعة » .

ثم جلس على أحد الصندوقين ويده لا تفارق مقبض المسدس ، وقال للراهب : « اجلس أنت .. بعيدا عن الباب .. حيث يتسنى لى أن أراقبك »

وأحضر الشرطى شمعة وأوقدها ثم ثبتها ـ بجزء من دهنها الذائب ـ على أرض الكوخ الصلبة . وجلس الراهب بالقرب من جثة المجرم الذى مات وهو فى وضع من يريد استخراج السكين من جيبه الخلفى .. وقد جعله هذا الوضع بالنسبة للراهب الجالس بجانبه فى هيئة رجل يريد أن يسر الى صديق له بأمر خطير . وكأنما الاثنان: الراهب والمجرم القتيل ـ ينتميان لطبقة واحدة : فكل منهما قذر .. غير حليق . أما الضابط فقد بدا كأنه ينتمى الى طبقة أخرى .. أعلى .

وقال الضابط فى ازدراء :

« اذن .. فان لك ابنة ؟ »

« أجل ... »

« مع أنك .. راهب ! »

« لا تظن أن كل الرهبان .. مثلى »

ثم اردف قائلا وهو يرى ضوء الشمعة يتراقص على أزرار سترة الضابط اللامعة :

« هناك رهبان أخيار .. ورهبان أشرار .. وأنا واحد من الاشرار .. »

« كأننا باعدامك نؤدى خدمة للكنيسة ؟ »

« نعم .. »

فرفع الضابط وجهه بسرعة كأنما خشى أن يكون الراهب يسخر منه ، ثم قال : « ... المرة الثانية .. »

« نعم .. المرة الثانية كنت فى السجن .. وقد منحتنى أنت بعض المال » .

فقال الضابط بغضب شديد :

« انى أتذكر هذا .. يا لقسوة السخرية .. أتكون بين يدى ، ثم أدعك تفلت منى ؟ لماذا ، لقد فقدنا رجلين من رجالنا ونحن نبحث عنك .. كان من الممكن أن يكونا الآن من الاحياء لو أنى فطنت اليك .. » .

وبدأت الشمعة تئز لسقوط قطرات من المطر عليها خلال ثغرات السقف ، بينما عاد الضابط يقول وهو ينظر الى جثة المجرم :

« ان هذا الامريكى لايستحق أن يضحى من أجله برجلين .. انه لم يكن يرتكب أضرارا حقيقية .. »

وظل المطر ينهمر بغير انقطاع . وخيم الصمت عليهما ، ثم قطعه الضابط فجأة بقوله :

« ابعد يدك عن جيبك .. »

« اننى أبحث فقط عن مجموعة من ورق اللعب .. لعلك تريد أن تضيع الوقت بالتسلية »

فقال الضابط بخشونة :

« اننى لا ألعب الورق »

« ليس فى الامر لعب .. وانما هى بعض ألعاب التسلية اللطيفة التى أحذقها .. أتحب أن أطلعك عليها ؟ »

« حسنا .. اذا أردت »

وكان المستر لير قد أعطى الراهب مجموعة قديمة من أوراق اللعب ، ومن ثم قال

« هنا .. كما ترى .. ثلاث ورقات .. الآس .. والملك .. والولد .. »

ثم وضع الورقات الثلاث مقلوبة على الارض بشكل المروحة وأردف قائلا :

« والآن .. قل لى .. أين الآس ؟ »

فأشار الضابط الى احدى الورقات الثلاث وقال متغصبا فى غير اهتمام :

« هذا طبعا .. »

فادارها الراهب قائلا :

« لقد أخطأت .. انها الولد .. »

فقال الضابط باحتقار :

« انها لعبة مقامرين .. أو أطفال »

« حسنا .. هناك لعبة أخرى اسمها : اهرب يا ولد .. وسوف أقسم المجموعة كما ترى الى ثلاثة أقسام . وسوف أضع الولد الدينارى فى القسم الاوسط ، هكذا ، والآن .. سأنقر بأصبعى على الأقسام الثلاثة .. »

وكان وجهه .. وهو يتحدث .. مشرقا بالسرور .. فقد مضى عليه وقت طويل لم يمسك فيه أوراق اللعب ، وفى غمرة الانفعال الموقوت ، نسى العاصفة ، وجثة الامريكى بجانبه ، والوجه الصارم أمامه . ونقر على القسم الاوسط قائلا :

« اهرب يا ولد .. ! »

ثم تناول القسم الايسر من مجموعة الاوراق وجعله نصفين وأخرج منه الولد الدينارى ، قائلا :

« ها هوذا .. ! »

« لاشك أن فى مجموعة الورق ولدين من هذا النوع »

« يمكنك أن تتحقق بنفسك »

فانحنى الضابط وحاول عبثا أن يعثر على « ولد دينارى » آخر فى المجموعة كلها ، وأخيرا قال :

« لعلك تزعم للهنود الحمر أن مانفعله هذا احدى المعجزات ؟ »

فأرسل الراهب ضحكة خفيفة وهو يقول :

« لا .. لا .. لقد تعلمت هذه الخدعة من أحد الهنود الحمر ..

وكان أغنى رجل فى قريته .. ولا عجب .. مادامت له هذه اليد الخفيفة !! وقد تعودت ان أقوم بمثل هذه الالعاب الورقية لتسلية الضيوف فى بعض الحفلات الدينية التى كانت تقام ، كما تعرف ، فى العهد الماضى .. »

فقال الضابط وقدارتسمت على وجهه امارات الازدراء الشديد ؟

« اننى أذكر هذه الحفلات »

« عندما كنت صبيا ؟ ؟ »

« كنت فى سن تسمح لى بادراك ما يجرى أمامى ... »

« نعم .. »

« الخداع ... »

وقطع حديثه فجأة وهو أشد مايكون غضبا ، ووضع يده على مقبض مسدسه كأنما خطر له أن يطلق النار على هذا « الوحش » الجالس أمامه وينتهى من أمره نهائيا .

واستطرد يقول :

« بأى عذر يمكن أن تبرروا خداعكم .. وزيفكم .. تجمعون التبرعات ، وتعطون الفقراء ؟ أليس هذا هو الدرس ؟ أليس كذلك ؟ ثم تأتى السنيورة فلانة ــ زوجة الصيدلى ــ وعضو الجمعية ، وتقرر أن هذه الاسرة ليست فقيرة الى حد استحقاقها الاعانة ، ويأتى السنيور فلان أو فلانة ، ويقول ان هؤلاء الفقراء جديرون بالموت جوعا لانهم شيوعيون ، وأنت ، أيها الراهب ، تجعل عينك دائما على من يؤدى واجباته الدينية ومن يدفع التبرعات باسم الدين .. »

وارتفع صوته الى حد جعل أحد رجال البوليس ينظر الى داخل الكوخ فى قلق ، ثم ينسحب مرة أخرى تحت وابل الامطار ، بينما أردف الضابط قائلا :

« ولا يكف الواحد منكم عن الصياح قائلا ان الكنيسة فقيرة ..

وراعيها فقير .. وهكـذا تتحول جميع التبرعات الى صـــندوق الكنيسة .. »

فقال الراهب :

« انك على صواب ... »

ثم أضاف بسرعة :

« وعلى خطأ أيضا .. طبعا .. »

فتساءل الضابط بعنف :

« ماذا تعنى ؟ على صواب ؟ ألا تحاول أن تدافع .. ؟ »

« لقد شعرت ذات مرة أنك رجل طيب..وذلك عندما أعطيتنى بعض المـال وأنا فى السجن »

« أيا كان الأمر ، فانى أتبـادل معك الحديث لأنك الآن فاقد الأمل .. ليس لك أى أمل البتة .. ومهما تقل ، فلن يغير قولك من الامر الواقع شيئا .. »

« مطلقا ! »

ولم يكن الراهب راغبا فى اغضاب الضابط . ولكن الفرصة لم تكن سانحة له خلال السنوات الثمانى الأخيرة لأن يتبادل الحديث مع أحد غير الريفيين والهنود الحمر . ويبدو أن شيئا ما فىنبرات صوته كانت تثير أشد الغضب فى صدر الضابط الذى راح يقول :

« انك شديد الخطر .. وهذا هو السبب فى رغبتنا اقتلك.. فليس بينى وبينك شخصيا حرب فهل تفهم هذه الحقيقة . . كرجل ! »

« نعم .. نعم .. أفهم ..انك لاتحاربنى ...وانما أنت تحارب الله .. أما أنا ، فلست الا مجرد شخص يمكنك أن تسـجنه فى الليل ، وأن تعطيه منحة فى الصباح .. »

« لا .. اننى لا أحارب .. وهما ... »

« ولـكننى جدير بالمحاربة ؟ أليس كذلك .. لقد قلت هـذا بنفسك .. قلت انى كاذب .. وسكير .. »

فقال الضابط والعرق يتفصد من جبينه بسبب حرارة الجو الرطيب داخل الكوخ :

« اننى أحارب آراءك . . فأنتم ، يا رجال الدين ، خبثاء ماكرون .. ولكن أخبرنى ماذا فعلتم فى المكسيك من أجلنا ..هل طلبتم يوما من احد ملاك الأراضى أن يكف عن ضرب عماله ؟ آه .. نعم لعلكم طلبتم منه هذا عند الاعتراف ، ومن واجبكم ، أليس **كذلك ، أن تنسوا فورا مايقوله المعترف لكم وما تقولونه له ؟** فأنتم تذهبون ــ بعد الاعتراف ــ مع المالك لتتناولوا معه طعام الغداء رغم أنه قد يكون اعترف لكم بأنه قتل أحد الفلاحين .. ولكن اعترافه هذا لايقلل من مكانته عندكم فقد ترك مع الاعتراف مبلغا من المال فى صناديقكم .. أليس كذلك ؟ »

« استمر فى حديثك »

قالها الراهب وهو جالس على الصندوق ويداه فوق ركبتيه ورأسه مطرقة ، ولم يكن قادرا رغم محاولته ــ أن يركز انتباهه لما يقول الضابط ــ فقد كان ذهنه مشغولا بتفكير آخر .. ان الرحلة الى العاصمة تستغرق ثمانيا وأربعين ساعة ، ونحن الآن فى يوم الأحد .. ومن المحتمل أن أكون ميتا يوم الأربعاء .. ! وخطر له أنه من الخيانة أن يكون خوفه من آلام الطلقات النارية أشد من خوفه مما سيأتى بعد ذلك .. وكان الضابط مستمرا فى حديثه قائلا :

« حسنا .. ان لنا أيضا آراءنا .. لن نسمح ببذل المال للصلاة .. ولن نسمح بأضاعة المال لبناء أماكن للصلاة .. وانما نبذل المال لاطعام الناس وتعليمهم القراءة وتزويدهم بالكتب .. وتجنيبهم العذاب فى الدنيا .. »

« ولكن .. ماذا لو أنهم يريدون أن يتعذبوا ؟ ! »

« اذا أراد رجل أن يغتصب امرأة فهل نسمح له لأنه يريد هذا ؟ان العذاب لون من الظلم .. »

فقال الراهب وهو يحدق فى وجه الضابط المنحدر من أصل هندى أحمر !

« ومع ذلك فانكم تكابدون فى الحياة وتتعذبون .. ان حديثك يبدو فى ظاهره منطقيا ، فهل هذا هو رأى مدير البوليس أيضا ؟ »

« أوه .. ان لدينا بعض الشواذ الذين لاتتفق آراؤهم معنا »

« حسنا .. وماذا بعد ذلك .. بعد أن يظفر كل انسان بنصيبه الوافى من الطعام وبالكتب المناسبة .. أعنى الكتب التى تسمحون له بقراءتها .. »

« لا شىء .. فالموت حقيقة .. ونحن لانحاول أن نغير من الحقائق »

فقال الراهب وهو يعبث بمجموعة أوراق اللعب بتكاسل :

« اننا اذن متفقون فى مواضع كثيرة .. فنحن لدينا أيضا حقائق لانحاول أن نغيرها : ومن هذه الحقائق أن الانسان شقى فى هذا العالم سواء كان غنيا أم فقيرا .. الا اذا كان قديسا .. وما أقل هؤلاء .. ولهذا فليس بالشىء الكثير أن يحتمل الانسان بعض الألم فى هذه الدنيا .. ونحن متفقون معا على أن الموت حقيقة .. وأننا جميعا سنكون موتى فى خلال مائة عام .. »

وتوقف برهة عن الحديث ، وراح يخلط أوراق اللعب وهو يحاول السيطرة على يديه المرتعدتين .. وقد قال الضابط فى خبث وهو يرى ارتعاد أصابعه !

« ومع هذا كله فأنت مهموم بسبب ما ستلقاه من ألم .. »

« لأننى لست قديسا .. بل انى لست ـ على الأقل ـ رجلا شجاعا »

ورفع وجهه فى توجس .. وكان ضوء الشمس قد بدأ يعود بعد احتجاب حتى لم يعد ثمة حاجة لضوء الشمعة داخل الكوخ . ولن يلبث الجو أن يصفو ويصلح لبدء الرحلة الى العاصمة ، وأحس

الراهب برغبة الاستمرار فى الحديث كى يؤجل ولو لبضع دقائق قرار البدء فى الرحيل . ومن ثم قال :

« هذا احد خلافات الرأى بيننا .. فما فائدة العمل لتحقيق أهدافك اذا لم تكن أنت صالحا لتحقيقها . ولن تجد دائما فى جماعتك رجالا صالحين لمعاونتك ، ومن ثم سوف تجد نفسك مرة أخرى فى الحلقة المفرغة .. حلقة الفقر .. وضرب العمال الزراعيين والجرى وراء الثراء بكل وسيلة . . أما فى حالتى أنا فليس من المهم فى كثير او قليل أن أكون جبانا ــ أو ما الى هذا ــ مادام فى مقدورى أن أبث الايمان بالله فى قلوب الناس وأحمل اليهم عفوه وغفرانه . ولن يغير من هذه الحقيقة شىء ، حتى لو كان كل رجال الكنيسة على شاكلتى .. »

« وهذا شىء آخر لا أجد له تعليلا .. فلماذا أنت ــ دونهم جميعا ــ الذى أصررت على البقاء بعد فرار زملائك كلهم ؟ »

« انهم ــ جميعا ــ لم يفروا .. فقد آثر الكثيرون الاستشهاد »

« ولكن لماذا بقيت أنت ؟ »

« لقد ألقيت على نفسى هذا السؤال مرة . والحقيقة أن الانسان عادة لايجد أمامه فجأة طريقين : أحدهما خير ، والآخر شر . وانما المعتاد أن يجد نفسه فى مأزق ، ففى العام الأول للقوانين الجديدة، لم أكن أعتقد أن هناك سببا كبيرا يدعو للهرب، فلم تكن هذه أول مرة تدمر فيها الكنائس ، كما تعلم ، وكانت هذه المحاولات للقضاء على الايمان لاتنتهى عادة الى شىء .. ولذلك رأيت أن أنتظر حتى الشهر التالى لأرى كيف تتطور الامور ، ثم .. أوه .. أنت تعرف كيف تتلاحق الأيام سريعا »

وكان الجو فى تلك الآونة قد صفا وأشرقت شمس مابعد الظهيرة عقب انقطاع المطر ، وكان على الحياة أن تستأنف الحركة والنشاط .. ومر أحد رجال البوليس أمام الكوخ وألقى نظرة فضول على الاثنين : الضابط والراهب الذى كان يقول فى تلك اللحظة :

« هل تعلم أنى اكتشفت أنى الراهب الوحيد الباقى فى هذه المنطقة الواسعة ، ان القانون الذى يحتم على الرهبان الزواج جعلهم يفرون .. وحسنا فعلوا .. وكان بينهم زميل طالما استهجن تصرفاتى ، فان لى ـ كما تعلم ـ لسانا ذربا لايكف عن الحركة .. وكان يقول ـ وله الحق ـ أنى ضعيف الأخلاق وقد هرب مع الهاربين . وعندئذ شعرت أنا ـ ولعلك ستضحك ـ بنفس شعورى عندمارأيت وأنا تلميذ ـ مدرسا كان قاسيا علينا،يفصل من المدرسة لكبر سنه . وكما ترى ، لم أعد أحفل فى قليل أو كثير بآراء غيرى . ولم يكن يزعجنى رأى عامة الناس فى . فانهم ،كما رأيت ، يحبوننى .. »

ثم ابتسم فى شحوب وهو يومىء نحو الامريكى الميت ..

وقال الضابط فى اكتئاب وتفكير :

« استمر فى الحديث »

فأرسل الراهب ضحكة خفيفة وقال :

« على هذا المعدل من الحديث سوف تعرف عنى كل ماتريد أن تعرفه حتى تصل الى ، حسنا ، الى السجن .. »

« ليس ثمة بأس فى أن يعرف الانسان حقيقة عدوه .. ! »

« لقد كان ذلك الراهب مصيبا فى رأيه عنى ـ ذلك أن أخلاقى الضعيفة أخذت تنهار عقب فراره .. شيئا شيئا .. أولا أخذت أهمل فى واجباتى الدينية ، ثم بدأت أسرف فى شرب الخمر .. وأعتقد أنه كان الافضل لى أن أهرب ايضا مع الهاربين ، لان الذى أبقانى هنا لم يكن غير الكبرياء .. لا حب الله .. »

وظل جالسا مطرق الرأس على الصندوق الخشبى ، بجسمه القصير المتلىء ، وبملابسه المستعارة من المستر لير . وعاد يقول :

« ان الكبرياء هى سبب سقوط الملائكة .. انها ألعن شىء فى الدنيا .. فقد خطر لى أننى رجل عظيم ببقائى هنا بعد فرار زملائى . ثم استبد بى شعور العظمة الى حد جعلنى أعتقد أن

فى امكانى وضع قواعد ونظم تتفق مع رغبـاتى .. فأقلعت عن الصيام ، وأهملت القداس اليومى ، والدعاء والصـلاة ، وفى ذات يوم ، عندما كنت مخمورا مهجورا من الجميع ، انجبت طفلة غير شرعية .. وأنت تعرف كيف حدث هـذا .. كل هـذا نتج عن الكبرياء .. الكبرياء الناشئة من بقائى هنا بعد فرار زملائى . ورغم انى لم أكن ذا نفع لأحـد ، فقد بقيت .. نعم .. لم أكن ـ على الاقل ـ ذا نفع كبير .. فانى لم استطع أن أضم مائة شـخص الى مذهبى كل شهر ، ولو أنى فررت لاستطعت أن أضم أضعاف أضعاف هذا العدد كل شهر .. انها أحد الاخطاء التى يقع فيها الانسان .. عندما يظن أن الثواب يتوقف على مبلغ مايتعرض له من الاخطـار والمصاعب فى نشر دعوته ... »

فقال الضابط فى غضب ثائر :

« حسنا .. لسوف تصبح بعد موتك شهيدا .. وهـذا هو عزاؤك .. »

« أوه .. لا .. ان القديسين والشهداء ليسوا مثلى .. انهـم لايستغرقون فى التفكير طول الوقت .. ولو انى شربت مـزيدا من البراندى لما شعرت الآن بأى خوف »

وصاح الضابط بحدة مخاطبا أحد رجاله الواقفين فى مدخل الكوخ :

« حسنا .. ماذا تريد .. لماذا تتلكأ بالباب هكذا ؟ ! »

« لقد هدأت العاصفة .. ونحن نسأل متى سنبدأ رحلة العودة ؟ »

« سنبدأها فورا »

ثم نهض وأعاد المسدس الى الجراب وقال :

« أعـدوا جوادا للمقبوض عليه . وليحفر بعضكم قبرا لهـذا الأمريكى .. بسرعة »

ووضع الراهب أوراق اللعب فى جيبة ونهض قائلا للضابط :

« لقد كنت واسع الصدر وأنت تنصت الى حديثى »

« اننى لا أشعر بالحزن .. من آراء غيرى .. »

وكان البخار ، خارج الكوخ ، يتصاعد من الأرض ، كالضباب بعد توقف الأمطار ، حتى كاد يبلغ الركب ، وكانت الجياد معدة للرحلة ، فركب الراهب أحدها ، ثم اذا هو يسمع ، قبل أن يتحرك الركب ، صوتا جعله يلتفت وراءه .. فقد كانت نبرات الصوت هى ، نفسها النبرات التى تجمع بين الذلة والتحدى ! انها نبرات صوت الرجل المولد ذى النابين وهو يقول :

« أبى »

« حسنا .. حسنا .. أهذا أنت مرة أخرى ؟ »

« أوه .. اننى أعرف رأيك عنى .. انه رأى خال من المحبة والود ، فقد كنت تعتقد دائما أننى سأغدر بك .. »

فقال الضابط له فى صوت حاد :

« اذهب الى سبيلك .. فقد أديت عملك »

فقال الراهب الضابط :

« هل تسمح لى بكلمة واحدة .. »

فأسرع المولد يقول مقاطعا :

« انك يا أبى رجل فاضل ، ولكن الناس جميعا فى نظرك أشرار .. اننى أريد فقط أن تباركنى .. هذا هو كل شىء »

« وما فائدة البركة التى سأمنحك اياها .. ؟ انك لاتستطيع أن تبيعها »

« أريد أن تباركنى لأننا لن نلتقى مرة أخرى ، ولست أبغى أن تمضى وأنت غاضب على .. »

« لشد ماتتعلق بالأوهام والخرافات .. أتعتقد أن بركتى لك ستحجب عين الله عنك ؟ اننى لا أستطيع أن أمنع الله من أن يعرف عنك كل شىء .. وخير لك أن تعود الى بيتك وتصلى .. فاذا شعرت بلواذع الحزن والندم ، فتبرع للفقراء بالمكافأة .. »

فقال المولد وهو يهز بيده الركاب غاضبا :

« أية مكافأة يا أبى ؟ ماذا تعنى .. ؟ ها أنت ذا مرة أخرى ... »

وتنهد الراهب .. فقد أفعمت المحنة نفسه بأشد أنواع السأم اذ انه من الممكن أن يثير الخوف المستمر مشاعر الملل فى النفس كما تثيرها الرحلة الطويلة الرتيبة . وأخيرا قال للمولد وهو يلكز الجواد ليقف به بجانب الضابط :

« حسنا .. سوف أصلى من أجلك .. »

وقال المولد له بصوت مبتهج :

« وأنا أيضا سأصلى من أجلك »

والتفت الراهب وراءه حين كان جواده يستعد للهبوط فى الممر المنحدر بين الصخور ، فرأى الرجل المولد واقفا بمفرده بين الاكواخ ، فاتحا فمه قليلا – كاشفا عن نابية الطويلين . وأنما كان فى وضع الذى يوشك أن يحتج أو يطالب بحق .. لعله الحق فى اعتراف الناس بكاثوليكيته ! وكانت احدى يديه تحك أحد أبطيه . ولوح الراهب له بيده .. انه لم يشعر نحوه بضغينة فى تلك اللحظة ، لانه لم يكن يتوقع من الطبيعة البشرية أكثر من هذا ، كما كان يشعر بلون من الرضى ذلك لانه لن يرى هذا الوجه الاصفر فى لحظة الموت ..

. . . .

وقال الضابط للراهب :

« انك رجل مثقف .. »

وكان راقدا فى مدخل كوخ يقع على طريق الرحلة ، ورأسه فوق قبعته المطوية ، ومسدسه فى متناول يده . وكان الليل قد أرخى سدوله ، ولكن كلا من الرجلين لم يستطع الاستغراق فى النوم . فكان الراهب حين يتقلب فى رقاده ، يتأوه من تصلب عضلاته وتقلص بعضها .. وكان الضابط متعجلا فى طريق العودة ، وقد ظل الركب سائرا حتى متصف الليل بعد أن خلفوا وراءهم سلسلة الجبال وبدأوا يقطعون السهل الزاخر بالاعشاب البرية والمستنقعات التى قسمته – بسبب موسم الامطار – الى ممرات موحلة ضيقة .

وقال الراهب مجيبا على حديث الضابط :

« لا .. لست مثقفا بالمعنى الصحيح .. فقد كان أبى أمين مخزن »

« أعنى أنك سافرت للخارج .. فانك تتحدث كأى أمريكى .. ولا شك انك تعلمت فى مدارس عليا .. »

« نعم .. »

« لقد تعودت أن أفكر فى الاشياء بنفسى ولنفسى .. ففى الحياة دروس كثيرة لايمكن أن نتعلمها بالمدارس .. منها وجود الاغنياء والفقراء .. »

ثم اردف قائلا وهو يخفض صوته :

« لقد قتلت رميا بالرصاص ثلاثة رهائن بسببك .. انهم مساكين .. وهذا مادفعنى الى كراهيتك .. »

وقال الراهب معترفا :

« نعم .. »

ثم حاول أن ينهض ليخفف من تقلصات عضلات الفخذ الايمن .. وانتصب الضابط جالسا والمسدس فى يده وهو يقول :

« ماذا تريد أن تفعل ؟ »

فعاود الراهب الجلوس وهو يقول متوجعا :

« لا شىء .. مجرد تقلص فى العضلات »

وعاد الضابط الى حديثه عن الرهائن فقال :

« هؤلاء الرجال الذين قتلتهم بالرصاص .. هم من رجالى الذين أريد أن أقدم اليهم كل ما فى العالم من خيرات »

« من يدرى ؟ فلعلك فعلت .. »

فبصق الضابط فجأة بغضب كأنما شعر على لسانه بشىء كريه .. ثم قال :

« أن لديك دائما اجابات لاتعنى شيئا .. »

« انني لم أكن شغوفا بالقراءة والاطلاع .. فان لى ذاكرة رديئة .. ولكنى أشعر دائما بالدهشة والعجب كلما رأيت رجلا مثلك .. فأنت تكره الاغنياء .. وتحب الفقراء .. أليس كذلك .. ؟ »

« نعم .. »

« حسنا .. فأنا اذن شعرت نحوك بالكراهية ، فلن اربى ابنتى لتكون مثلك .. ألا يتفق هذا مع المنطق ؟ »

« ولكنه منطق ملتو .. »

« ربما .. فانى لم أفهم آراءك كما ينبغى .. فنحن نقول دائما أن الفقراء مباركون ، وأن من الصعب على الاغنياء أن يدخلوا الجنة ! فلماذا نجعل دخول الجنة عسيرا على الفقراء .. أيضا ! انى أعلم ان الواجب علينا أن نحسن الى الفقراء .. ألا ندعهم يشعرون بالجوع .. لان الجوع يغرى الرجل بالشر ، تماما كالمال الكثير ، ولكن .. لماذا نزود الفقراء بالقوة والسلطان ! من الافضل أن ندعهم يموتون فى الوحل ثم يبعثون فى الجنة ؛ بشرط ألا ندفع بوجوههم فى الوحل .. »

« انني أكره تعليلاتك هذه .. ولست أريد مثل هذه التعليلات فاذا رأينا رجلا يتعذب ، فان أمثالك يفكرون ويبحثون عن التعليلات .. فتقولون مثلا .. لعل هذا العذاب خير له ، أو لعله أن يستفيد من هذا العذاب يوما .. أما أنا .. فأريد أن أجعل قلبى ـ لا عقلى ـ هو الذى يفكر ويتحدث .. »

« يتحدث بلغة الرصاص ؟ »

« نعم .. بلغة الرصاص .. »

« حسنا .. لعلك حين تبلغ من العمر ما بلغت أنا ، سوف تتبين أن قلبك هذا ليس الا وحشا غادرا . وكذلك العقل .. ولكن العقل لا يتحدث عن الحب .. الحب ..! قد تغرق فتاة نفسها بعد أن تقتل ابنها من السفاح .. ثم يهتف القلب طول الوقت انه الحب الحب .. »

وخيم الصمت عليهما وهما راقدان .. وظن الراهب أن الضابط قد استغرق فى النوم حتى سمعه يقول فجأة :

« انك لا تتحدث بصراحة أبدا .. فأنت تقول لى هذا عن الحب ثم تقول لرجل آخر أو امرأة : ان الله هـو الحب . ولانك ترى أن مثل هذه العبارات لا تؤثر فى نفسى ، فانك تقول لى عبارات أخرى .. عبارات تعتقد أنى سأتفق معك فى صوابها .. »

« أوه .. ان هذا شىء آخر يختلف تماما عما كنا نتحدث فيه .. ان الله هو الحب .. هذه حقيقة ، ولم أقل أنا ان القلب لا يشعر بمذاق هذا الحب .. ولكن أى مذاق .. ؟ ان هذا المذاق يشبه قطرة من الشراب الجيد ممزوجا بكمية من مياه المستنقع .. اننا لا ندرك هذا الحب الالهى . بل لعلنا نشعر به أحيانا كأنه كراهية .. انه لمثير لاشد الرهبة .. هذا الحب الالهى .. انه يشـعل الشجيرات نارا فى الصحراء .. أليس كذلك ؟ ويحطم أحجار القبور ويفتحها ويبعث الاموات سائرين فى الظلمات .. أوه .. ان رجلا مثلى لو شعر بهذا الحب حوله لانطلق يعدو بكل قواه من فرط الرهبة .. »

« اذن فأنت لا تثق فى الله كثيرا .. انه فى رأيك لا يحسن جزاء المخلصين فى خدمته .. فلو أن رجلا أخلص لى الخدمة كما أخلصت أنت له ، لطلبت له ترقية ، ولقررت له معاشا ، واذا رأيته يتعذب أمامى من السرطان ــ مثلا ــ لوضعت فى رأسه رصاصة وأرحته »

فقال الراهب بصوت ملهوف وهو ينحنى فى الظلام معتمدا عـلى قدمه المخدرة :

« اسمع .. اننى لست كاذبا خائنا الى الحد الذى تظنه بى .. أتعرف لمـاذا كنت أعظ الناس من فوق المنبر قائلا لهم أنهم معرضون لخطر اللعنة الابدية اذا ماتوا غير تائبين ! اننى لم أكن أتحدث اليهم عن خرافات وأساطير لا أومن بها أنا ! حقا انى لا أعرف شـيئا عن رحمة الله .. ولا أعرف مبلغ قسوة القلب البشرى بالنسـبة الى رحمته سبحانه . ولكنى أعرف شيئا واحـدا ، وهو اذا مات أى

شخص فى هذه الولاية وقد حلت لعنة الله عليه ، فسوف أموت أنا وهذه اللعنة على أيضاً .. »

ثم أردف فى بطء وهدوء قائلا :

« اننى لا أريد أن أتميز عن أحد .. انما أريد العدالة .. هذا هو كل شيء »

. . . .

وقال الضابط :

« لسوف نبلغ العاصمة قبل المساء »

وكان راكبا جواده بجانب الراهب ، وأمامه ستة من رجاله ، ومن خلفه ستة ، ولكنهم كانوا أحياناً يسيرون واحدا وراء الآخر عندما يجتازون مكانا ضيقا بين فرعى نهر . ولم يكن الضابط يكثر من الحديث فى هذه المرحلة الاخيرة من الرحلة ، وقد حدث أن راح اثنان من رجاله يرددان أغنية عن صاحب متجر بدين وصاحبته ، فطلب منهما ـ فى عنف ـ أن يلتزما الصمت .. ولم يكن الموكب ينم عن النصر المؤزر .. فقد كان الراهب راكبا جواده وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة ، كأنها قناع ملتصق عليه ، وبذلك كان فى مقدوره أن يفكر بهدوء دون أن يلاحظ أحد سمات التفكير عليه . وكانت أفكاره تدور حول .. الالم ..

وفجأة قال الضابط بوجه شديد القطوب :

« أظن أنك تأمل فى وقوع معجزة تنجيك ؟ »

« أرجو المعذرة .. ماذا تقول ؟ »

« أقول لعلك تتوقع حدوث معجزة »

« لا . . . »

« انك تؤمن بالمعجزات .. أليس كذلك ؟ »

« نعم .. ولكن ليس من أجلى .. اننى لست أفضل من اى انسان .. فلماذا يحفظ الله حياتى ؟ »

« اننى لا أدرى كيف يؤمن رجل مثلك بمثل هذه المعتقدات ؟ ان

الهنود الحمر يؤمنون بها .. ولهم العذر .. فقد ظنوا الضوء الكهربائى ، حين رأوه أول مرة .. معجزة »

فقال الراهب وهو يضحك بغموض من خلف قناعه الباسم :

« ويمكن القول أنك أيضا قد تؤمن بالمعجزات لو أنك رأيت أول ميت يبعث من قبره .. ان هذا عجيب .. أليس كذلك ، ان المشكلة ليست فى عدم وقوع معجزات وانما هى اطلاق أسماء أخرى عليها حين تحدث .. ألا ترى الاطباء وهم وقوف حول رجل مات ! انه لم يعد يتنفس .. وتوقف النبض .. وضربات القلب .. انه ميت .. ثم يجرى أحد الاطباء عملية سريعة له .. فيحيا .. وعندئذ يقولون جميعا .. ماذا يقولون .. انهم يحتفظون برأيهم لانفسهم .. انهم لن يقولوا ان ما حدث معجزة ، لان كلمة « معجزة » لا يحبونها ، ثم يتكرر هذا الحدث مرة بعد مرة .. لان الله فى كل مكان .. فى الارض وفى السماء .. انهم يقولون ان ما حدث ليس معجزة .. انما هو نتيجة لاتساع معلوماتنا عن أسرار الحياة .. واننا نعرف الآن انه يمكن أن تكون حيا بغير نبض ، أو تنفس ، أو ضربات قلب .. وانهم يبتكرون كلمة جديدة يعبرون بها عن هذه الظاهرة الجديدة من الحياة .. وهكذا يقولون ان العلم لا يعترف بالمعجزات » .

ثم أرسل ضحكة خفيفة وهو يختتم حديثه بقوله :

« وهكذا لا تستطيع أن تقنعهم بشىء »

وكان الموكب قد خرج من ممر فى الغابة الى طريق من الارض الصلبة . وهكذا لكز الضابط جواده ، فانطلق الجميع بجيادهم تجرى خببا .. وقال الضابط بصوت مغلول وقد أوشكت الرحلة على نهايتها :

« انك لست شريرا تماما .. او أن فى مقدورى أن أسدى اليك »

« ان فى مقدورك أن تتيح لى فرصة الاعتراف »

وظهرت لهم المنازل فى أطراف العاصمة .. منازل مشيدة من الطين ، آيلة للسقوط ، وبضعة أعمدة قديمة من الطين المطلى بالملاط .. وطفل قذر يلعب فى كومة الهدم .

وقال الضابط :

« ولكن لا يوجد لدينا أحد من رجال الدين »

« بادر جوزيه .. »

فبدت نبرات الاحتقار فى صوت الضابط وهو يقول :

« بادر جوزيه !! لا يصلح لك »

« انه يصلح جدا .. فليس من المحتمل أن أجد هنا قديسا .. أليس كذلك ؟ »

وازم الضابط الصمت برهة حتى يلغ الموكب ساحة المدافن حيث تماثيل الملائكة الهاوية ، المحطمة ، ثم اجتازوا البوابة الكبيرة المكتوب عليها « سكون » وعندئذ قال « حسنا .. لسوف استدعيه ليسمع اعترافاتك »

ولم يشأ الراهب أن يلتفت الى المقابر وهو يمضى بجانبها ، فقدكان بها الجدار الذى يقف اليه المسجونون عند تنفيذ حكم الاعدام عليهم رميا بالرصاص . وكان الطريق ينحدر نحو النهر .. وعلى اليمين ، حيث كانت الكتدرائية ، شاهد الاراجيح الحديدية فى مكانها خالية مهجورة لفرط حرارة الجو فى وقت الظهيرة ، وكان الشعور بالعزلة والخواء مخيما على كل شىء .. بل اكثر مما كان مخيما فى منطقة الجبال ، لان الانسان قد اعتاد أن يرى اضطراب الحياة فى هذا المكان يوما ما ، كانت المدينة خالية الانفاس ، ومن النبض .. ومن ضربات القلب .. ولكنها ، مع هذا ، موفورة الحياة .. ربما علينا الا أن نبتكر اسما جديدا لهذه الظاهرة ! وكان ثمة صبى يرقبهم وهم يمرون .. وفجأة هتف للضابط قائلا :

« هل قبضت عليه أيها الضابط » .

وطافت بذهن الضابط ذكرى هذا الوجه الصغير .. ذات يوم .. فى ساحة المدينة ، والزجاجة تتحطم عند قدميه .. والاطفال يلعبون .. وحاول ان يبتسم للصبى .. ولكن ابتسامته جاءت مريرة .. أقرب الى التكشيرة منها الى أى شىء .. فهى خالية من لذة النصر ومن متعة الامل ..

الفصل الرابع

وانتظر الضابط حتى ارخى الليل استاره ثم مضى بنفســـه الى بادرجوزيه .. فقد أدرك أنه من الخطر الشديد أن يكلف أحدا غيره بهذه المهمة ، والا انتشرت الاخبار فى المدينة فى اليوم التالى بأن بادر جوزية قد سمح له باداء بعض الواجبات الدينية داخل السجن . بل رأى ألا يخبر مدير البوليس بهذا الامر أيضا ، فليس من الحكمة أن يضع الانسان ثقته فى رؤسائه عندما يكون هو أكثر نجاحا منهم .. فهو مثلا يعلم أن المدير لم يبتهج عندما رآه ينجــح فى انقبض على الراهب .. فقد كان يفضل لو استطاع الراهب أن ينجح فى الهرب .

وشعر وهو فى الفناء الخارجى لبيت بادر جوزية أن عشرات من العيون ترقبه فى الظلام .. انهاعيون الاطفال الذين تعودوا أن يتجمهروا ويهللوا حول بادر جوزيه كلما ظهر . وتمنى لو أنه لم يعد الراهب بشىء ، ولكنه مصمم على أن ينفذ وعده أيا كان الامر ، وذلك حتى لايدع خصومه يظهرون عليه فى اى شىء سواء فى الشـــــجاعة أو الاخلاص أو العدالة ..

ولم يجب أحد على طرقاته .. وكان واقفا أمام باب الفناء كأنه رجل يلتمس احسانا او انصافا .. ولما طرق على الباب مرة اخرى سمع صوتا يقول :

« انتظر دقيقة .. دقيقة واحدة ».

ثم ظهر وجه بادر جوزيه بين قضبان النافذة وهو يسأل :

« من هناك » ..

ما معناها ، لماذا لا أقول لها عبارات تلعق بذهنها ..
وكان يبدو عليه كأنما يبحث عن شيء فى الارض ، وقال الضابط :
« ضابط بوليس » .
فهتف بادر جوزيه بصوت كالصياح :
« أوه .. معذرة .. اننى ارتدى ملابسى .. فى الظلام »
ثم راح يشد شيئا ، وسمع صوت هذا الشيء ينقطع كأنه حزام ، أو حمالة سراويل ، وارتفع صياح الاطفال عبر الجانب الاخر هاتفين حين رأوه يقبل نحو الباب :
« بادر جوزيه . بادر جوزيه .. »
وتمتم بادر جوزيه دون أن يلتفت اليهم :
« الابالسة الصغار .. »
وقال الضابط :
« أريد منك أن تأتى معى الى مركز البوليس »
« ولكننى لم أفعل شيئا .. مطلقا .. اننى حريص جدا على طاعة القانون » .
وعاد الأطفال يصيحون :
« بادر جوزيه .. »
وقال هو فى رجاء وتوسل :
« اذا كان الامر يتعلق بدفن مبت .. فان الذى وشى بى كاذب .. اننى منقطع حتى عن الصلاة .. »
« بادر جوزيه .. بادر جوزيه .. بادر جوزيه »
واستدار الضابط نحو وجوه الأطفال المتجمعين وراء سياج الفناء وهتف بهم مغضبا :
« التزموا الصمت .. عودوا الى مضاجعكم .. فورا .. هل تسمعون ؟ »
وتراجع الواحد بعد الآخر عن الأنظار ، ولكن ، ما أن استدار الضابط بظهره اليهم حتى عادوا الى أماكنهم يتفرجون . وقال بادر جوزيه :

« لايستطيع أحد أن يفعل شيئا مع هؤلاء الأطفال »

وسمع صوت امرأة تقول :

« أين أنت ياجوزيه »

« انى هنا .. يا عزيزتى .. انه ضابط البوليس »

وأقبلت عليهما امرأة ضخمة الجسم فى جلباب النوم الأبيض ، ولم تكن الساعة قد تجاوزت السابعة بكثير ، وخطر للضابط ـ من ثم ـ ان المرأة تعيش دائما داخل هذا الجلباب .. أو فوق السرير .. وقال وهو يضغط ـ بسرور ـ على كلمة « زوجك » .

« ان زوجك .. زوجك .. مطلوب فى مركز البوليس »

« من قال هذا ؟ »

« أنا .. »

« انه لم يفعل شيئا »

فقال الزوج :

« كنت أقول يا عزيزتى .. »

فنهرته قائلة :

« سكوتا .. دع الحديث لى .. »

فقال الضابط لهما :

« ليكف كلاكما عن هذه الثرثرة .. انك مطلوب يا بادر جوزيه للذهاب الى مركز البوليس لتقابل رجلا ، راهبا .. يريد أن يعترف .. »

« يعترف لى أنا ؟ »

« نعم »

« يا للمسكين ! .. »

وتململ فى قلق وهو يرسل نظرة خاطفة الى السماء حيث كانت بعض أطيار الليل تمرق فى صفحتها . وقالت الزوجة له :

« انك لن تذهب »

فقال متسائلا :

« أن هـذا مخالف للقانون .. أليس كذلك .. ؟ »
فقال الضابط :
« لاتقلق من هذه الناحية »
فقالت الزوجة :
« ألا نقلق ؟ انني أدرك حقيقة أهدافك .. انك لاتريد أن تدع زوجي وشأنه . انك تريد أن توقع به .. أنا أعرف طبيعة عملك .. فأنت تدفع الناس ليطلبوا اليه أن يصلي من أجلهم .. انه رجل هادئ شفيق ، وأحب أن أذكرك أنه رجل يتمتع بمعاش حكومي ؟ »
فقال الضابط ببطء :
« هـذا الراهب الذي يريد أن يعترف كان يجاهد ـ سرا ـ منذ سنوات في سبيل دينكم . وقد قبضنا عليه ـ طبعا ـ وسوف يعدم رميا بالرصاص غـدا . انه ليس رجلا شريرا .. وقد وعدته برؤيتك .. يبدو انه يعتقد أن الاعتراف سيفيده كثيرا .. »
فقاطعته المرأة قائلة :
« انني أعرفه .. انه مجرد سكير .. لا أكثر »
فقال بادر جوزيه :
« يا للمسكين .. لقد حاول أن يختبئ هنا ذات مرة »
فقال الضابط :
« اني أعدك بأن أحدا لن يعرف .. »
فصاحت المرأة باضطراب ؟
« لن يعرف أحد ! كيف ! ان الخبر سيعم المدينة كلها.. أنظر الى هؤلاء الأطفال ، أنهم لايتركون جوزيه وشأنه أبدا .. »
ثم أردفت قائلة :
« أن هذا الامر سيكون بداية لا نهاية لها .. لسوف يطالب الناس جميعا بحق الاعتراف .. وسيبلغ الأمر الى الحكومة في النهاية .. فتحرمنا من المعاش »

فقال جوزيه :

« من يدرى يا عزيزتى .. ان واجبى .. »

فقالت له :

« انك لم تعد راهبا .. انك زوج لى .. وهـذا هو واجبك الآن .. »

« اننى لا أستطيع أن أمكث هنا حتى تفرغا من الجدل .. هل أنت آت معى ؟ »

فقالت المرأة تحذر زوجها :

« انه لن يستطيع أن يرغمك على الذهاب »

« يا عزيزتى .. ان الأمر بسيط .. ثم انى .. من رجال الدين »

فهتفت المرأة بصوت مثل قأقأة الدجاج :

« أنت من رجال الدين ؟ ! أنت ؟ ! »

وانفجرت فى سلسلة من الضحكات أدهشت الأطفال المتفرجين، ووضع بادر جوزيه أصابعه على عينيه كأنهما تؤلمانه .. ثم تمتم

« يا عزيزتى .. لا .. »

وواصلت المرأة ضحكها ، بينما قال الضابط :

« هل أنت آت ؟ »

فحرك بادر جوزيه يديه فى يأس كأنما يقول : ماقيمة فشل جديد فى حياة كهذه ، ثم قال :

« أعتقد أن هذا غير .. ممكن »

« حسنا جدا .. »

واستدار بسرعة .. فلم يعد لديه وقت يضيعه فى طلب الرحمة . وسمع بادر جوزيه يقول له بضراعة :

« قل له انى سأصلى من أجله .. »

وتشجع الأطفال حينئذ فهتف أحدهم قائلا :

« هلم الى الفراش ياجوزيه »

وضحك الضابط .. ضحكة بائسة أضيفت الى عاصفة الضحك التى أحاطت ببادر جوزيه وقد أخـذ رنينها يحلق الى الجو حيث طيور الليل التى كان يأمل أن يعرف أسماءها يوما .

....

فتح الضابط باب الزنزانة .. وكان الظلام فى داخلهـا كثيفا . وأغلق الباب وراءه بعناية ، بالمفتاح ، ثم قال وهو يضع يده على مقبض مسدسه :

« لقد رفض أن يأتى معى »

وكان الراهب مكوما على نفسه فى ركن الزنزانة المظلم كأنه طفل يلعب زاحفا على الارض . وقد قال :

« هل تعنى أنه لن يأتى .. الليلة ؟ »

أعنى أنه لن يأتى اطلاقا »

وساد السكون برهة ، لم يكن يقطعه غير طنين البعوض المستمر واصطدام الخنافس بالجدران . وأخيرا قال الراهب

« أظن أنه كان يخشى ـ »

« لم تسمح له زوجته بالحضور »

« ياللمسكين ! . »

وحاول أن يضحك .. ولكنها ضحكة كانت أقرب الى البكاء ، وكانت رأسه قد طمرت بين ركبتيه ، فبدا فى مظهر الرجل الذى تخلى عن كل شىء ، وتخلى عنه كل شىء .

وقال الضابط له :

« يحسن أن تعرف كل شىء .. لقد تمت محاكمتك وصـدر الحكم بادانتك .. »

« ألم يكن من المستطاع أن أشهد محاكمتى ؟ »

« ان شهودك المحاكمة ما كان ليغير النتيجة .. »

وصمت برهة ، ثم قال فجأة وهو يتكلف المرح :

« متى .. ؟ اذا كان لى أن أسأل ؟ »

« غدا .. »

وأسقطت هذه الاجابة السريعة الحاسمة قناع المرح الزائف عن وجه الراهب ، فازدادت رأسه انحناء الى حد لم يكن يستطيع أحد أن يراه — فى الظلام — وهو بعض أظافره . وقال الضابط :

« من القسوة أن تظل وحيدا فى ليلة كهذه .. اذا أردت أن تنتقل الى الزنزانة العامة — »

« لا لا .. انى أفضل أن أبقى بمفردى .. فلدى الكثير مما يجب أن أؤديه — »

ثم تقطعت أنفاسه كأنه مصاب ببرد شديد ، وعاد يقول :

« ومما يجب أن أفكر فيه »

« انى أحب أن أسدى اليك بعض الخدمات .. لقد أحضرت لك بعض الخمر »

« رغم أنف القانون ؟ »

« نعم .. »

« جميل منك هذا .. جميل جدا .. »

ثم تناول الزجاجة الصغيرة واستطرد يقول :

« أعتقد أنك فى غنى عن هذه .. وأنا فى حاجة اليها لانى دائما كنت أخشى الالم »

« لسوف نموت جميعا فى يوم ما .. وليس من المهم فى قليل أو كثير متى يكون هذا اليوم »

« انك رجل فاضل .. ليس ثمة ما تخاف منه »

فقال الضابط بلهجة احتجاج :

« ما أعجب ما لديك من آراء .. يخيل الى أحيانا أنك تحاول أن تطوينى .. »

« أطويك ؟ »

« نعم .. لكى أدعك تهرب .. أو لكى أنضم الى كنيستك

الكاثوليكية المقدسة ، وأومن بمجمع القديسين وما الى هذا .. ؟»
« ألا تريد أن تغفر لك ذنوبك .. ؟ »
« انك شخصيا لا تؤمن كثيرا بمسألة غفران الذنوب .. أليس كذلك ؟ »
فقال الراهب بصوت كله اليقين والعناد :
« أوه .. بل أومن .. »
« اذن .. لماذا تشعر بكل هذا الخوف ؟ »
« اننى لست جاهلا كما ترى .. فقد كنت أعرف دائما ما أنا فاعل .. ومن ثم لن أستطيع أن أسامح نفسى .. »
« أكان الحال يختلف لو أن الاب جوزيه وافق على الحضور .. »
وكان عليه أن ينتظر برهة غير وجيزة قبل أن يسمع الاجابة .. فلما سمعها لم يفهمها ، ذلك أن الراهب قال :
« أمام رجل آخر .. يجعل الامر سهلا »
« أليس من شىء آخر أقدمه لك ؟ »
« لا .. لا شىء .. »
وفتح الضابط الباب ، ووضع يده على مقبض المسدس بطريقة آلية ، وخامره شعور بالاكتئاب ، كأنما القبض على آخر رجل دين ووضعه فى السجن ، قد حرمه من أى شىء يفكر فيه . لقد همدت القوة المحركة لنشاطه ، وانه ليستعيد فى ذهنه أسابيع المطاردة على انها فترة سعيدة مثيرة قد انتهت الى الابد .. لقد شعر بأنه لم يعد لديه أى هدف يحققه .. لكأنما الحياة قد انحسرت عن العالم كله وأخيرا قال فى شفقة مرة — لانه لم يستطع أن يثير فى نفسه أى لون من الكراهية للراهب — :
« حاول أن تنام .. »
وفيما هو يغلق الباب سمع الراهب يهتف به فى صوت كله الفزع :
« لفتتانت ؟ »

« نعم .. »

« لقد رأيت أشخاصا يعدمون رميا بالرصاص .. مثلى »

« أجل »

« هل كانوا يتألمون .. فتره طويلة ؟ »

« لا لا .. مجرد لحظة »

قالها بخشونة وأغلق الباب وسار فى الفناء ذى الجدران المطلية بالجير ، ومضى الى مكتبه حيث كانت صورة المجرم الامريكى . بجانب صورة الاجتماع الدينى لم تزالا معلقتين على الجدار .. وانتزعهما بعنف .. اذ لم يعد ثم داع لبقائهما ، ثم جلس الى مكتبه ووضع رأسه على يديه ، واستغرق فى النوم من فرط التعب .. ولم يستطع فيما بعد أن يذكر شيئا من أحلامه فيما عدا الضحك .. الضحك المتصل .. وممر طويل لم يجد فيه أومنه مخرجا ..

وجلس الراهب على أرضية الزنزانة ، ممسكا بزجاجة الخمر ، وبعد برهة ، فض سدادتها ورفعها الى فمه . ولكن لم يكن الكحول أى تأثير فى نفسه . وكأنما هو ماء قراح . وأعاد الزجاجة الى الارض ،وبدأ فى لون من الاعتراف الشامل هامسا لنفسه « لقد ارتكبت كل الكبائر .. » ولكن هذه العبارة المألوفة لم تكن تعنى بالنسبة اليه شيئا .. وكأنما هى جملة فى صحيفة يومية .. ومن ثم فهو لا يستطيع أن يشعر بالندم وهو يردد عبارة مألوفة مستعملة كهذه .. وبدأ مرة أخرى فقال :

« لقد اتصلت بامرأة »

وحاول أن يتخيل ما يقوله الراهب الاخر الذى يعترف أمامه « كم مرة ؟ هل كانت متزوجة ؟ » « لا ؟ »

ومد يده دون أن يشعر وتناول زجاجة البراندى وشرب منها جرعة أخرى . وعندما لمس السائل لسانه ، تذكر ابنته وهى آتية

اليه من خارج الكوخ ، بوجهها البائس ، المتحدى ، الشرير . وقال بحمــــاس :

« يا الهى .. كن فى عونها .. صب على جام غضبك ، فانى خليق به . ولكن دعها هى تعش طاهرة الى الابد »

هذا هو الحب الذى كان يجب أن يشعر به نحو كل انســـان فى الحياة : ان كل مخاوفه وكل محاولاته لانقاذ أرواح الناس تجمعت وتركزت كلها ــ بغير وجه حق ــ فى طفلة واحدة وشرع يبكى . أنه يشعر كأنما هو واقف على الشاطىء يرقبها وهى تغرق ببطء لانه نسى كيف يسبح لانقاذها . وفكر لنفسه : هذا هو ما كان يجب أن أشعر به دائما نحو كل انسان . ثم حاول أن يحول مجرى تفكيره الى الرجل المولد ذى النابين ، والى الضابط ، وحتى الى طبيب الاسنان الذى جالسه فترة وجيزة ، والى الصبية كورال فى ادارة شركة الموز والى سلسلة من الوجوه التى راحت تتزاحم فى مخيلته وكأنها تدفع بابا ثقيلا لا يريد أن ينفتح . ذلك لان أصحاب هؤلاء الوجوه جميعا فى خطر أيضا . وراح يبتهل « كن فى عونهم يا رب » ولكن تفــكيره يرتد بسرعة ــ فى لحظة الدعاء ــ الى ابنته وهى جالســـة بجانب مستودع القمامة . وهكذا أدرك أنه ــ من أجلها هى فقط ــ يبتهل بالدعاء الى الله .. وأن هذا لفشل جديد ..

وبعد برهة ، بدأ محاولة الاعتراف ، قائلا :

« وقد أسرفت فى شرب الخمر الى حد الســـكر .. لا أدرى كم مرة .. وليس هناك واجب لم أهمل فى أدائه .. وقد كنت متكبرا ، لا أعرف الكرم والرحمة .. »

وشعر بأنه عاد يردد كلمات مألوفة كثر استعمالها فى مثل هذه المناسبة .. كلمات فقدت معانيها لكثرة الاستعمال .. فليس أمامه راهب يعترف اليه ويحول أفكاره عن العبارات المـألوفة المستعملة الى الحقائق ..

وشرب جرعة أخرى من البراندى ، ثم نهض فى ألم بسبب تقلص عضلات ساقيه ، ومضى نحو الباب وراح ينظر من خلال القضبان الى الفناء السابح فى ضوء القمر وفى حرارة الجو .. والى رجال البوليس النائمين فى السرر المعلقة ، والى واحد منهم ، عز عليه النوم ، فراح يؤرجح السرير من جانب الى آخر . وكان ثمة سكون غريب يخيم على كل شيء ، حتى على الزنزانات الآخرى ، وكأنما العالم كله قد أشاح بوجهه ـ فى لباقة ـ حتى لايراه وهو يعدم .. وأخذ يتحسس طريقه بجانب الجدار الى أقصى ركن فى الزنزانة ، وهناك جلس والزجاجة بين ركبتيه . وأخذ يفكر : أو لم أكن هكذا غير ذى نفع .. غير ذى نفع ! ! ان الثمانية أعوام السود العجاف بدت له كأنها صورة شوهاء من الخدمة الدينية : مجرد اجتماعات دينية قليلة ، وقليل من الاعترافات ، وكثير من القدوة السيئة اتى كانها .. وعاد يفكر مرة أخرى : « لو انى أنقذت روح انسان واحد فقط .. حتى أستطيع أن أقول : أنظروا ماذا فعلت ! »

ولكن الناس كانوا يموتون فى سبيله ، ومن ثم فانهم جديرون بقديس . وان لذعة من المرارة والألم تنتشر فى عقله من أجلهم لأن السماء لم تر أنهم جديرون بقديس يقوم بينهم ، وانما بادر جوزيه وأنا .. وتناول زجاجة البراندى وشرب جرعة أخرى ، وفكر فى وجوه القديسين وهم يرفضونه بينهم ببرود ..

وكانت الليلة أطول من تلك التى قضاها فى السجن فى المرة السابقة لانه ، فى هذه المرة ، وحيد الا من البراندى فقط . الذى أتى عليه فى نحو الثانية بعد منتصف الليل ، والذى كان كفيلا بأن يتيح له فرصة النوم . كان يشعر بالخوف الشديد ، وكانت معدته تتلوى ، وفمه جافا ، وبدء يتحدث الى نفسه بصوت مرتفع بعد أن عجز عن احتمال السكون المطبق من حوله . وراح يشكو فى صوت بائس « ان هذا كله شيء جميل ، بالنسبة للقديسين »

ثم عاد يقول بعد برهة « من أين له أن يعرف أن الالم لن يستغرق أكثر من لحظة . ؟ وما هى اللحظة ؟ »

ثم شرع يبكى وهو يضرب رأسه برفق فى الجدار ، انهم أتاحوا لبادر جوزيه الفرصة ، ولكنهم حرموه هو من أية فرصة على الاطلاق . ولعلهم أخطأوا فى حقه لمجرد أنه اختفى عنهم هذه السنوات ! لعلهم ظنوا أنه سيرفض ــ فى اصرار ــ الشروط التى قبلها بادر جوزيه .. أى الخضوع لقانون الزواج ، لأنه معروف بالكبرياء ومن يدرى ، فلعله ينجو من الموت لو اقترح هو عليهم أن يقبل الزواج . وطامن هذا الأمل من مخاوفه بعض الشىء ، وهكذا استغرق فى النوم ورأسه معتمد الى الجدار ..

ورأى فيما يرى النائم حلما عجيبا ! رأى أنه جالس الى خوان مقهى أمام محراب مرتفع فى كتدرائية . وكانت أمامه على الخوان نحو ستة أطباق ، وكان يأكل بنهم وشهية ، وكان يشم رائحة عطر مركز ويشعر بنشوة غريبة ، أما الطعام ، كأى طعام فى الأحلام ، فلم يكن له مذاق قوى .. ولكنه كان يشعر أنه حين يفرغ من هذه الأطباق الستة ،سيقدم اليه أعظم طبق وأشهاه ، وكان ثمة قس يروح ويجىء أمام المحراب يلقى موعظة القداس ، ولكنه لم يكن ــ هو ــ يحفل به . وكأنما القداس لم يعد يهمه فى شىء . وأخيرا فرغت الأطباق مما بها ، ودق شخص جرس المذبح ، وركع القس الواعظ على ركبتيه ورفع القربان بين يديه ، ولكنه ظل ــ هو ــ جالسا، ينتظر ،غير مهتم بصورة المسيح فوق المذبح ، وكأنه مسيح خاص بأناس غيره ، وليس به ، ثم اذا بالكأس الموضوعة على خوانه تبدأ فى الامتلاء بالخمر ، فرفع رأسه ، ورأى الصبية كورال تقوم على خدمته وهى تقول له :

« لقد أتيت لك بها من غرفة أبى »

« انك لم تسرقيها ؟ »

« لا .. ليس تماما .. »

وكانت تتحدث بصوتها الهادىء المتزن .. وقال :

« جميل منك هذا .. لقد نسيت الرموز . . ماذا كنت تسمينها ؟ »

« اشارات مورس »

« ماذا كانت .. هذه الاشارات : ثلاث نقرات طوال ، وواحدة قصيرة » وفى الحال سمع صوت هذه النقرات . ورأى القس بجانب المحراب ينقر .. وجميـع من فى قاعة الكتدرائية ينقرون .. ثلاث طوال .. وواحدة قصيرة .. وسأل الصبية :

« ماهذا .. ؟ »

« أخبار »

وكانت ـ وهى تتحدث اليه ، تحدق فيه بهذه النظرات التى تنم عن الجد والاتزان وادراك المسئولية ..

وحين استيقظ كان الفجر قد تبلج .. وقد استيقظ وهو يشعر بأمل كبير لم يلبث أن تلاشى عند أول نظرة ألقاها الى فناء السجن . لقد أسفر صبح يوم أعدامـه ، وزحف على الأرض وزجاجـة الخمر الفارغة فى يده وحاول أن يتذكر فصلا من كتاب التوبة وقال « يا الهى اننى آسف .. وأسألك الغفران عن كل ذنوبى .. ومهما يكن أمرى فانى جدير بعذابك الشديد .. »

وشعر بالاضطراب ، والارتباك .. فقد كان عقله مشغولا بأفكار أخرى ، لم يكن بينها فكرة هذه الميتة الرائعة التى يتمناها كل انسان . ووقعت نظراته على خياله المرتسم فوق جدار الزنزانة .. انه ينم عن الدهشة والتفاهة المضحكة .. لشد ماكانت حماقته حين اعتقد أنه له من القوة مايجعله يبقى بعد فرار زملائه .. وأخذ يفكر : أى انسان أحمق أنا ؟ لانفع فيه ! اننى لم أقدم أية خدمة لأى انسان ، وكأنى لم أعش على سطح هذه الأرض يوما ..

لقد مات والداه .. وعما قليل لن يصـبح هو شيئا ولو مجرد ذكرى .. ومن يدرى ، فلعله ـ فعـلا ـ لاشىء .. أو مجرد شىء خلق للجحيم ..

وانهمرت الدموع من عينيه : انه لم يكن فى تلك اللحظة خائفا من عذاب الآخرة ، بل ان خوفه من ألم الموت قد تراجع عن ذهنه ،وانما هو يشعر باستياء شديد لأنه سوف يلقى ربه خالى الوفاض .. لم يفعل شيئا على الاطلاق .. وقد بدا له ــ فى تلك اللحظة ــ أنه كان من السهل عليه جدا أن يصبح قديسا .. كان الأمر يحتاج فقط الى قليل من الشجاعة ، وضبط النفس . انه يشعر كأنه شخص كان على موعد مع السعادة الأبدية ، فذهب متأخرا بضع ثوان . انه الآن يدرك أن أمرا واحدا له أهميته الكبرى فى النهاية ــ وهو أن يغدو الانسان قديسا ..

الجزء الرابع

كانت مسز فيلوز راقدة فى غرفتها الحارة بالفندق ، تنصت الى صفير زورق فى النهر . ولم يكن فى مقدورها أن ترى شيئا لانها كانت تضع على عينيها وجبينها منديلا مبللا بماء الكولونيا .. وصاحت فجأة :

« يا عزيزى .. يا عزيزى »

ولكن أحدا لا يجيب .... وهكذا أحست أنها مدفونة ــ أبدا ــ فى قبر هذا السرير العائلى الكبير ، وحيدة فوق وســادتين ، وتحت الكلة ، ومرة أخرى هتفت بكلمة « عزيزى » وراحت تنتظر ، وعندئذ سمعت صوت الكابتن فيلوز يقول لها :

« نعم يا تريكسى .. لقد كنت نائما .. أحلم .. »

« ضع مزيدا من ماء الكولونيا على المنديل يا عزيزى .. ان رأسى يوشك أن ينفجر » .

« حسنا يا تريكسى »

ورفع المنديل عن وجهها ، وكان يبدو فى سمت الرجل العجوز المتعب الملول .. رجل ليست له هواية .. وسار نحو منضدة الزينة وبلل المنديل بماء الكولونيا .

وقالت له زوجته :

« لا تضع كثيرا عليه .. فانه قد تمضى أيام عديدة قبل أن نحصل على زجاجة أخرى » .

ولما لم يجب ، قالت بحدة :

« هل سمعت ما قلت لك يا عزيزى ؟ أليس كذلك ؟ ؟ »

« أجل ... »

« انك كثير الصمت هذه الايام .. فأنت لا تدرى شعور الانسان حين يكون مريضا .. وحيدا .. »

« حسنا .. انك تعرفين السبب »

« ولكننا اتفقنا يا عزيزى ـ أليس كذلك ـ على أن نتجنب الحديث فى ذلك الموضوع اطلاقا .. يجب ألا نستسلم للعلل النفسية .. »

« نعم .. »

« ان لنا حياتنا التى يجب أن نحياها »

« أجل .. »

وأقبل نحو الفراش ، وأعاد وضع المنديل على عينى زوجته ، ثم جلس على مقعد ، ومد يده تحت الكلة وأمسك بها . وكان منظرهما كمنظر طفلين ضائعين فى مدينة كبيرة ، دون رعاية شخص كبير رشيد .

وسألته قائلة :

« هل أحضرت التذكرات ؟ »

« نعم يا عزيزتى .. »

« يجب أن أنهض بعد قليل وأعد الحقائب .. ولكن رأسى تؤلمنى جدا .. هل أخبرتهم ليجمعوا الصناديق ؟ »

« نسيت .. »

فقالت فى صوت واهن مكتئب :

« عليك الآن أن تفكر فى كل شيء : فلم يعد هناك من يفكر أو ينظم لنا »

وخيم الصمت عليهما فجأة بعد أن نطقت بعبارة لم يكن ثمة سبيل لاجتنابها ..

وفجأة قال هو :

« أن ثمة هياجا شديدا بالمدينة اليوم »

« أقامت الثورة ؟ »

« لا .. لقد قبضوا على أحد رجال الدين وسوف يعدمونه ــ أو لعلهم أعدموه ، هذا الصباح .. ياالمسكين .. اننى لا أملك نفسى من التساؤل : هل هو نفس الراهب الذى أخفته كورال .. أعنى الذى أخفيناه ذات يوم عن أعين البوليس » .

« هذا احتمال بعيد »

« لماذا ؟ »

« لانه يوجد كثير من القساوسة والرهبان »

وترك يدها ، ومضى نحو النافذة حيث أخذ يطل منها على الزوارق وهى تنساب فوق سطح النهر ، وعلى الحديقة العامة الصغيرة ذات التمثال النصفى ، وعلى عقبان الجو فى كل مكان . وأخيرا قالت مسز فيلوز :

« ليس هناك ما هو أجمل من الاستعداد للعودة الى الوطن ... فقد كان يخيل لى أحيانا انى سأموت فى هذا المكان » .

« طبعا لا يا عزيزتى .. »

« ولكن الناس يموتون .. »

فقال فى تجهم وحزن :

« نعم .. انهم هنا يموتون .. »

فقالت له بصوت حاد :

« لا !. لا تنس يا عزيزى العهد الذى قطعناه »

ثم تنهدت وأردفت قائلة :

« يا لآلام رأسى »

« هل ترغبين فى تناول بعض المسكنات ؟ »

« اننى لا أدرى أين وضعت أقراص الاسبرين .. وعلى كل حال فليس ثمة شىء فى موضعه .. »

« هل أخرج لاحضر لك قليلا منها ؟ »

« لا لا .. اننى لا أحتمل البقاء بمفردى »

ثم أردفت بصوت من البهجة المصطنعة :

« أعتقد أننى سأصبح كما ينبغى حين نعود الى الوطن .. فهناك سأجد الطبيب البارع الذى يعالجنى .. فأنا أحيانا أعتقد أن مرضى شىء أخطر من مجرد الصداع ، هل أخبرتك انى تلقيت رسالة من نورا ..؟ »

« لا .. »

« اعطنى النظارة يا عزيزى وأنا أقرأ لك .. ما يخصنا فيها .. »

« ان النظارة بجانب على السرير »

« نعم .. نعم .. »

وكان أحد الزوارق الشراعية قد أقلع عن المرساة ، وبدأ ينساب منحدرا فى مجرى النهر الطامى نحو البحر .. وسمع زوجته وهى تقرأ فى رضى :

« عزيزتى تريكسى ما أشد آلامك .. ان هذا المجرم .. »

ثم أمسكت عن القراءة بسرعة ، وعادت تقرأ بعد أن تجاوزت بضعة أسطر :

« .. وبطبيعة الحال سوف تقيمين مع زوجك العزيز تشارلس فى منزلنا حتى تجدا المسكن المناسب .. هذا اذا لم يكن لديكما مانع من دفع الايجار مناصفة » .

فقال الكابتن فيلوز فجأة فى خشونة :

« اننى لن أعود الى الوطن »

« ان نصف الايجار لا يتجاوز ستة وخمسين جنيها فى العام ، مع غرفة حمام خاصة للخدم »

« لسوف أبقى هنا »

« يا لك من عنيد ، ما هذا الذى تقول يا عزيزى ؟ »

« اننى لن أعود الى وطنى »

« لقد أكثرنا الجدال فى هذا الموضوع ، يا عزيزى ، وأنت تعرف أن البقاء هنا سيقضى على .. »

« ليس هناك ما يرغمك على البقاء »
« ولكننى لا أستطيع العودة بمفردى .. ماذا تقول نورا عندئذ ؟ ان هذا الاصرار منك يثير العجب »
« ان الرجل هنا يستطيع أن يجد عملا يقوم به »
فقالت مسز فيلوز وهى ترسل ضحكة باردة :
« جمع محصول الموز ؟! أهذا عمل ؟ ومع ذلك فأنت لا تحسنه »
فاستدار نحوها فى غضب شديد وهتف قائلا :
« انك لا تهتمين الا بنفسك .. أليس كذلك .. لقد هربت بنفسك تاركة اياها .. »
« انها لم تكن غلطتى .. فلو أنك كنت موجودا ساعة وقوع الحادث .. »
ثم راحت تبكى وهى مكومة على نفسها تحت الكلة ، وأردفت قائلة
« اننى لن أعود الى بلدى على قيد الحياة »
وتقدم فى تعب نحو السرير ، وأخذ يدها فى يده ، وهو يدرك أنه لا جدوى من هذا كله .. لقد أصبحا وحيدين فى صحراء الحياة ، فلا مندوحة من البقاء معا .
وقالت هى :
« انك لن تتركنى وحيدة .. أليس كذلك يا عزيزى ..؟ »
وكان جو الغرفة مفعما بعطر ماء الكولونيا .. وأجاب هو :
« لا يا عزيزتى .. »
« هل أدركت الآن شذوذ موقفك ؟ ! »
« أجل .. »
وخيم عليهما الصمت برهة غير وجيزة ، بينما كانت شمس الصباح تتحرك صاعدة الى كبد السماء فيزداد جو الغرفة حرارة خانقة ، وأخيرا قالت مسز فيلوز :
« يا عزيزى ؟ »

« نعم .. »

« فيم تفكر ..؟ »

« كنت أفكر فقط فى ذلك الراهب .. كان رجلا عجيبا مشغوفا بالخمر .. ترى أهو الذى صدر الحكم باعدامه اليوم ؟ »

« اذا كان هو ، فانى أعتقد أنه خليق بهذا المصير »

« ولكن العجيب فى الامر هو طريقة الحياة التى كانت تحياها بعد أن عرفته وأخفته من أعين البوليس .. وكأنما هو قد علمها شيئا .. »

فقالت فى صوت متهالك جاف وهى راقدة فى فراشها :

« عزيزى .. لا تنس العهد .. »

« نعم اننى آسف .. وانى أحاول أن أتجنب ذكرها .. ولكن ذكراها تمتزج دائما بأحاديثنا .. »

« حسب كل منا أنه مع الآخر »

وسقطت الرسالة من يدها وهى تدير رأسها الى الجانب الآخر ، بعيدا عن ضوء الصباح الساطع .

....

ونعود الى المستر بنش ، طبيب الاسنان فنراه منحنيا على الحوض الصينى يغسل يديه بالماء والصابون المعطر ويقول بأسبانيته الركيكة :

« لا داعى للخوف .. يمكنك أن تقول بصراحة أنها تؤلمك .. »

وكانت غرفة مدير البوليس قد جهزت بأدوات طب الأسنان . وقد تكلف المدير نفقات فادحة لجعلها كعيادة مؤقتة .. لأنه لم يدفع فقط نفقات احضار المستر تنش الى العاصمة لعلاجه ، وانما أحضر معه مقعد خلع الأسنان وعددا غير قليل من الصناديق الصغيرة التى يبدو أن أكثرها لايحتوى الا على كميات من القش ، كما يبدو أنها لن تعود .. فارغة !

وقال مدير البوليس :

« انى أتألم منها منذ أشهر .. ولعلك لاتتصور مبلغ الألم .. »

« لقد أخطأت فى عدم استدعائى اليك سريعا .. ان حالة فمك

خطيرة .. ومن حسن حظك أنك لم تصب بالبيوريه .. »

وانتهى من غسل يديه ، ووقف برهة يفكر والمنشفة فى يده ، فقال له المدير :

« ماذا بك ؟ »

واضطرب المستر تنش ثم أقبل على أدواته يعدها ، وراح المدير يرقبه فى جزع وهو يقول :

« أن يدك ترتعد بشدة يامستر تنش .. فهل أنت واثق بأنك على ما يرام اليوم ؟ »

« انه عسر الهضم .. وفى بعض الاحيان أرى أمام عينى بقعا سوداء كثيرة وكأنى أضع على وجهى نقابا أسود .. »

ثم وضع الابرة فى المثقاب ، وحرك مقبضه وطلب من المدير ان يفتح فمه الى مداه ، ثم دس بين الاسنان كمية من القطن حتى لاينطبق الفكان ، ثم قال :

« انى لم أر فى حياتى أسوأ من فمك .. الا مرة واحدة — »

وحاول المدير ان يتكلم .. ولكن المستر تنش استطرد يقول وهو مطمئن الى أن أحدا لن يقاطعه :

« ولكنه لم يكن مريضا جاء للعلاج . وانما كان راهبا .. ولعله قد عولج الآن ، فانكم تعالجون كثيرا من الناس فى هذه الايام .. بالرصاص .. »

وراح يعمل فى فم المدير وهو يحاول أن يجعل الحديث متصلا ، فيذكر كيف كان الحال يجرى فى مسقط رأسه بانجلترا ، فيقول :

« لقد حدث لى أمر عجيب قبل أن آتى الى هنا بزمن وجيز .. تسلمت رسالة من زوجتى التى لم أعرف عنها شيئا منذ .. منذ عشرين عاما .. ثم اذا انا فجأة »

وانحنى على فم المدير وراح يعمل بالمثقاب فى عنف .. وأخذ

المدير يضرب الهواء بيديه وهو يتوجع ، وأخيرا قال المستر تنش وهو يرفع المثقاب :

« أبصق كل ما في فمك الآن .. آه .. زوجتي .. أليس كذلك .. ذكرت في رسالتي أنها انضمت الى مذهب ديني .. أو الى جمعية في اكسفورد ، ولست أدري ماذا تفعل في اكسفورد .. وقد قالت انها صفحت عني .. وتريد أن يتخذ الامر بيني وبينها صبغته الشرعية .. أي الطلاق .. أعني .. لقد صفحت عني »

ثم ظل واقفا ، شارد الذهن ، والمثقاب في يده .. ثم تجشأ ووضع يده على بطنه وأخذ يضغط ويضغط كأنما يبحث عن ألم خفي موجود دائما في مكان ما بأمعائه . وتهالك مدير البوليس في مقعده متعبا مفتوح الفم ..

وقال المستر تنش وقد نسي تماما ما كان يتحدث فيه :

« ان هذا الألم يغدو ويذهب . . ولكنه ، طبعا ، ليس الا عسر هضم .. والا انه يحرمني من متعة الحياة »

وشرع ينظر باكتئاب الى فم المدير المفتوح وكأنه يرى قطعة زجاج لامع في السن الفاسدة . وأخيرا بدأ كأنه يستجمع كل ارادته ، ثم انحنى على الفم وشرع يعمل فيه مثقابه الذي راح يئز وينشر ، يئز وينشر .. وجمد المدير في مكانه ، وتشبث بمسندي مقعده ، بينما راحت قدم المستر تنش ترفع وتهبط وهي تحرك جهاز المثقاب . وكان المدير يرسل أصواتا غريبة وهو يحرك يديه ، فيقول له المستر تنش « تماسك وتجلد .. تجلد .. لقد أوشكت أن أنتهي .. آه .. ها قد انتهى كل شيء .. يا الهي .. ماهذا ؟ ! »

ثم ترك المدير ومضى نحو النافذة ، وأطل منها على الفناء ، حيث رأى فصيلة من جنود البوليس يشرعون بنادقهم ، فقال وهو يضع يده على بطنه :

« أهي ثورة أخرى ؟ »

فانتصب المدير في جلسته وقال وهو يبصق قطعة من القطن :

« لا .. طبعا .. وانما هو رجل سيعدم رميا بالرصاص ! »
« لماذا ؟ »
« خيانة عظمى .. »
« كنت أظن أنكم تنفذون هذه الاحكام .. هناك .. فى المقابر .. »
ودفعه لون من الفضول الرهيب الى البقاء بجانب النافذة .. فهذا منظر لم يسبق أن رآه فى حياته .. وراح هو — وعقبان الجو — ينظرون الى الفناء ، بينما قال المدير :
« رأينا أنه من الافضل تنفيذ الحكم هنا هذه المرة ، وذلك خوفا من هياج الرأى العام ، فالناس هنا جهلة — »
وأقبل رجل ضئيل الحجم من باب جانبى يمسك به اثنان من رجال البوليس ، وكان يبذل جهده ليسيطر على أعصابه ، ولكن ساقيه كانتا ترتعدان رغما عنه ، وسيق الى الجدار المواجه لفصيلة الجنود ، وربط أحد الضباط منديلا حول عينيه . وقال المستر تنش لنفسه « ولكنى أعرف هذا الرجل ، يا اله السماء .. يجب أن يفعل الانسان شيئا من أجله .. فكأنما أرى جارا لى يعدم رميا بالرصاص »
وسمع مدير البوليس وهو يقول له :
« ماذا تنتظر ؟ ان الهواء يدخل فى سنتى »
ولم يكن ثمة مايمكن أن يفعله بطبيعة الحال .. كان كل شىء يجرى بسرعة آلية رتيبة : فقد تراجع الضابط جانبا ، ورفع الجنود بنادقهم وصوبوها .. وبدرت من الراهب حركات بسيطة بذراعيه كأنما يحاول أن يقول شيئا ؟ ترى ماهى العبارة المفروض أن يقولها الانسان فى هذه الحالة ؟ لاشك انها عبارة مألوفة مستعملة .. ! ولكن حلق الرجل الضئيل كان ، كما يبدو جافا .. فلم تصدر منه غير كلمة واحدة « معذرة »
واهتز المستر تنش بعنف لدوى الطلقات النارية المفاجىء ، وكأنما صدى هذه الطلقات يتردد فى أحشائه .. وأحس بالتقزز

والسقم .. وأغمض عينيه. فلما فتحهما ، شاهد ضابط البوليس يعيد مسدسه الى جرابه بينما أصبح الرجل الضئيل مجرد كومة بجانب الجدار .. مجرد نفاية مهملة تحتاج الى الازالة . وتقدم اثنان من العمال بسرعة فى الفناء .. وخيل الى المستر تنش أن ما يرى ماهو الا ساحة مصارعة الثيران بعد مقتل الثور .. فلم يبق مايستحق المشاهدة .

وتأوه مدير البوليس فى مكانه قائلا :

« الالم .. ما أقسى الالم .. »

ثم أخذ يرجو المستر تنش ليسرع اليه ، ولكن هذا كان واقفا بجانب النافذة ذاهلا كالمعتاد ، شارد الذهن ، وقد وضع يده فوق بطنه كأنما لايزل يبحث عن الالم الخفى ، وكان فى تلك اللحظة ، يذكر هذا الرجل الضئيل نفسه وهو ينهض من مقعده فى العيادة ليمضى ، فى ذلك الاصيل الحار الملتهب ، مع الصبى الذى جاء يقول ان أمه مشرفة على الموت وفى حاجة الى طبيب .. واختلطت بذهنه ذكريات صورة ولديه .. ورشاشة الزرع الخضراء ، والقالب الذى أراد أن يصنعه من الرمل لطاقم أسنان مكسور ..

وتوجع مدير البوليس قائلا :

« متى ستبدأ الحشو .. ؟ »

وتحولت نظرات المستر تنش الى الذهب الموضوع على الصحن الزجاجى .. انه العملة الدولية .. لسوف يصر على أن يكون أجره بعد اليوم عملة أجنبية .. ففى هذه المرة ينوى أن يرحل .. يرحل نهائيا ..

وعاد كل شىء الى موضعه فى الفناء ، وراح رجل ينثر الرمال بالجاروف كأنما هو يردم قبرا .. ولكن لم يكن ثمة قبر هناك .. ولا أى أحد .. وغمر المستر تنش شعور بالوحشة والرهبة ضاعف من آلام عسر الهضم ، فقد كان الرجل الضئيل يتحدث الانجليزية ويعرف بعض الشىء عن أبنائه ..

واحس المستر تنش فجـأة انه ـ أيضـا ـ ترك وحيـدا فى صحراء الحياة ..

. . . .

وكتمت الفتاتان أنفاسهما من فرط اللهفة عندما سمعتا الام وهى ترفع صوتها برنين الفوز قائلة :

« والآن .. قد حل يوم الاختبار العظيم .. »

وحتى الغلام » الذى كان واقفا بجانب النافذة ، ابدى شيئا من الاهتمام وهو ينظر الى الشارع المظلم الخالى ، فقد كان يعرف أن هذا هو الفصل الاخير .. والاحـداث عادة تجرى فى الفصل الاخير بعنف وسرعة .. ولعل أن تكون الحياة هكذا .. ملل فى أولها » ثم بطولة واهتياج فى النهاية ..

واستأنفت الام قراءتها قائلة :

« وعندما دخل مدير البوليس زنزانة جوان ، رآه راكعـا على ركبتيه يصلى ، انه لم يذق النوم فى ليلته الاخيرة .. وانما قضاها يعد نفسـه للاستشهاد .. كان هادئا » سعيـدا ، مبتسما لمـدير البوليس وهو يسأله : هل جاء ليمضى به الى الوليمة الالهية » وحتى ذلك الرجل الشرير، الذى أعدم الكثيرين ، لم يملك نفسه من التأثر .. »

وفكر الغـلام لنفسـه : آه لو انها أسرعت بالقـراءة الى الموقف الاخير .. الى تنفيذ حكم الاعدام بالرصاص .. ان اخبار اطـلاق الرصاص تثيره دائما .. وانه دائمـا ينتظر فى شـوق .. الضربة القاضية .. الخاتمة !

« وسيق جوان الى فناء السجن .. وفى خلال هذه المسـافة القصيرة بين الزنزانة وجدار الاعدام ، ترى هل حاول جوان الصغير أن يتذكر تلك السنوات القليلة السعيدة التى عاشها بشجاعة ؟ هل تذكر أيامه فى المعهد العالى » وزجر المعلمين ونصائحهم » والنظـام التام ، وأيام المرح عندما كان يقوم بدور نيرون أمام الاسقف العجوز .

لقد كان نيرون بجانبه الآن .. وساحة الاعـدام هى ملعب الرومان القديم »

وتهدج صوت الام وهى تتحسس فى سرعة الصفحات الباقية ، ورأت أن فى مقدورها الفـراغ منها ، فراحت تقـرأ بسرعة مطردة :

« وعند وصول جوان الى الجدار ، استدار وبدأ يصـلى .. لا من أجل نفسه ، وانما من أجل أعدائه .. من أجل هذه الفصيلة من الجنود ــ الهنود الحمر ــ الابرياء الذين يواجهـونه ، بل ومن أجل مدير البوليس نفسه .. ورفع الصـليب الى مدى المسـبحة الموضوعة حول عنقه وأخذ يبتهل الى الله ليغفر لهم ، وينير قلوبهم ، ثم يهديهم فى النهاية ــ كما هدى سول جلاد المسيح ــ الى مملكته الابدية »

وسأل الغلام أمه :

« هل حشى الجنود البنادق بالرصاص .. »

« ماذا تعنى بقولك هذا ؟ »

« أعنى لماذا لم يطلقوا النار عليه ليوقفوا دعاءه ؟ »

« لان الله لم يكن قد أذن بعد »

ثم تنحنحت واستطردت فى القراءة قائلة :

« واصدر الضابط امره باعداد السلاح .. وعندئذ اشرق وجه جوان بابتسامة كلها السعادة والحب والتقديس .. وكانما هو يرى مملكة الله تفتح ابوابها لاستقباله .. وقد كان دائما يخـبر والدته واخواته انه سيدخل الجنة قبلهم . وكان يقول باسما لامـــه ، تلك الزوجة الفاضلة : « لسوف اعد لك مكانا فى الجنة » وجاءت اللحظة الاخيرة ، واصدر الضابط الامر باطلاق النار »

وراحت الام تقرأ بسرعة متزايدة لان موعد نوم الفتاتين قد فات، ولان نوبة من الفواق « الزغطة » قد أصابتها واستطردت تقول

« واصدر الضابط الامر باطلاق النار »

وظلت الفتاتان جالستين فى هدوءجنبا الى جنب ، يكاد النوم يغلب

عليهما . فقد كان هذا هو الجزء الذى لم تهتما بامره كثيرا . وكانتا تتحملان سماعه من أجـــل الاجزاء الاخرى التى منهـــا كيف كان جوان يهوى التمثيل المسرحى بالمدرسة ، والاجتماعات الدينيةالاولى والاخت التى اصبحت راهبة وجاءت تودع اهلها فى الفصل الثالث .

وعادت الام تكمل قراءتها قائلة :

« الامر باطلاق النار .. ورفع جوان يديه الى اعلى راسه وصاح بصوت ثابت قوى شجاع للجنود وللبنادق المشرعة « سلاما ياسيدى المسيح .. » وفى اللحظة التالية سقط مصابا باثنتى عشرةرصاصة وانحنى الضابط فوقه . ووضع فوهة المسدس على اذنه وضغطعلى الزناد . »

وانساب من ناحية النافذة صوت الغلام وهو يتنهد . وعادت الام تقرأ « ولم يكن ثمة داع لاطلاق رصاصة اخرى ، لان روح البطل الصغير كانت تركت مسكنها الارضى . وكانت الابتسامة السـعيدة المرتسمة على الوجه الميت تخبر اولئك الرجال الجاهلين اين ذهب جوان الان . وقد بلغ تاثر احد هؤلاء الرجال من موقف جوان ان راح – سرا – يغمس منديله فى دم الشهيد . وقد تحول هذا المنديل الى مئات من الاحجبة والتمائم المقدسة التى وجدت طريقها الى بيوت اهل الورع والتقوى – والان .. »

واسرعت الام تقول وهى تصفق بيديها :

« الى الفراش ! »

وقال الغلام :

« والراهب الذى اعدموه اليوم .. هل هو بطل ايضا ؟ »

« اجل .. »

« الراهب الذى قضى الليلة معنا فى ذلك الحين ؟ »

« نعم .. انه احد شهداء الدين .. »

فقالت احدى الفتاتين :

« لقد كانت تنساب منه رائحة عجيبة »

« يجب الا تقولى هذا مرة اخرى ، أبدا ، فربما كان هذا الراهب احد القديسين »

« هل نبتهل لالتماس بركاته اذن ؟ »

فترددت الام برهة قبل ان تقول :

« لابأس .. ولكن .. يجب طبعا ان تقع بعض المعجزات قبل ان تثبت قداسته »

وقال الغلام :

« هل صاح عند موته قائلا : سلاما ياسيدى المسيح ؟ »

« نعم .. فانه احد ابطال الدين »

« وهل بلل احدهم منديله بدمائه .. ؟ »

فقالت الام فى تجلد :

«لدى من الاسباب مايجعلنى اعتقد هذا .. فقد اخبرتنى السيدة جيمنيز .. » ـ واعتقد لو ان اباك اعطانى بعض المال لامكننى شراء قطعة من هذا المنديل .. »

« وهل تشترى مثل هذه القطعة بالمال ؟ »

« نعم .. هذا مايجب ان يكون .. فليس فى وسع كل انسان ان يحصل على قطعة منه »

« اجل .. »

وتربع جالسا على قاعدة النافذة ، يمد بصره الى الخارج ، ويسمع وراء ظهره حركات اختيه الصغيرتين وهما تستعدان للنوم . وشعر بمختلف الانفعالات تجيش فى صدره وهو يذكر انه شاهد ، فى هذا المنزل بطلا ، وان لم يبق بينهم غير اربع وعشرين ساعة .. وكان آخر الابطال .. فلم يبق بعده رجال دين بالولاية .. لا ولا ابطال .. وشرع ينصت فى استنكار الى وقع اقدام احد رجال البوليس يقترب على طوار الشارع .. ان الحياة العادية تضطرب حوله . وانه يهبط من قاعدة النافذة ويتناول شمعته : زاباتا .. فيللا ..

ماديرو .. والباقون ، لقد ماتوا كلهم .. وان الذين قتلوهم رجال كهذا الشرطى المقبل ..

لقد شعر انه خذل وخدع ...

وكان السائر على الطوار فى تلك اللحظة هو ضابط البوليس نفسه . وكان وقع اقدامه ينم عن الخيلاء والعناد وكانما هو يقول فى كل خطوة « لقد فعلت مافعلت » ورفع عينيه الى النافذة ونظر الى الغلام الواقف والشمعة فى يده ، وبدا عليه انه يعرفه .. ثم قال لنفسه « لسوف افعل اكثر من هذا لاجله .. ولاجلهم ، نعم .. أكثر من هذا .. لن تكون الحياة ــ أبدا ــ بالنسبة لهم كما كانت بالنسبة لى . » ولكن الحب النارى الذى كان يحرك اصبعه دائما على زناد مسدسه، تلاشى فجأة وأصبح كأنه لم يكن .. وقال لنفسه : لسوف يعود هذا الحب الى صدرى مرة اخرى .. انه كحب النساء ، يدور فى حلقة مفرغة ، هكذا اقنع نفسه فى الصباح .. انه مجرد شعور بالشبع . ! وابتسم فى شحوب الى الغلام الواقف فى النافذة وقال له « طاب مساؤك » وكان الغلام فى تلك اللحظة ينظر الى جراب المسدس وكان الضابط يستعد فى ذاكرته ما حدث فى ساحة المدينة ذات يوم حين سمح لأحد الغلمان بأن يلمس مسدسه .. ولعله أن يكون هذا الغلام نفسه .. وابتسم مرة اخرى ولمس المسدس بيده كانما يقول للغلام انه يذكر ايضا ماحدث فى ذلك اليوم بالساحة . وجعد الغلام وجهه ثم بصق من خلال قضبان النافذة فى قوة ودقة ، بحيث سقط جزء من بصقته على مقبض المسدس .. !

. . . . . .

وعبر الغلام الردهة الى غرفة النوم التى كانت تحتوى على سرير حديدى ينام فيه مع والده . وكان ينام هو فى ناحية الجدار وينام ابوه فى الناحية الخارجية بحيث اذا جاء متاخرا فى الليل ، نام دون ان يوقظ ابنه . وخلع الغلام حذاءه وراح ينضو عنه ملابس النهار فى اكتئاب وهو يسمع همسات الصلاة فى الغرفة الاخرى . لقد شعر

انه خدع وأنه شديد الاستياء لانه فقد شيئا ما .. وراح يحدق فى السقف وهو راقد على ظهره فى الجو الحار وقد خيل اليه انه لم يعد فى الدنيا شيء غير متجر ابيه ، وامه القارئة ، والالعاب التافهة فى ساحة المدينة .

ولم يلبث غير قليل حتى استغرق فى النوم . فراى فيما يرى النائم أن ذلك الراهب الذى أعدموه رميا بالرصاص فى الصباح ، قد حمل الى المنزل فى الملابس التى كان أبوه قد أعارها له ، ووضع على الفراش جثة هامدة ، استعدادا للدفن ، وجلس الغلام بجانب الفراش بينما راحت أمه تقرأ فى كتاب كبير جدا كيف كان الراهب يمثل دوريوليوس قيصر أمام الأسقف . وكان ثم وطاب من السمك عند قدمى الأم ،وكانت الدماء تنساب من سمكة ملفوفة فى منديل يدها . . وشعر هو بالملل وبالتعب الشديد وبأن شخصا مايدق المسامير فى تابوت موضوع بالدهليز،وفجأة رأى الراهب القتيل يغمز له بعينه . . انها حركة مؤكدة من جفن العين تشبه الغمز تماما . .

واستيقظ من نومه على صوت طرق مستمر على سماعة الباب الخارجى ، ولم يكن والده على الفراش بجانبه، وكان السكون مخيما فى الغرفة الأخرى ، ولم يكن شك فى أن بضع ساعات من الليل قد انصرمت . وظل راقدا ينصت وهو يشعر بالخوف ، وبعد فترة وجيزة ، سمع الطرق مرة أخرى على الباب الخارجى ، ولم يتحرك احد داخل المنزل . . وهبط من الفراش فى تكاسل . فلعل ان يكون الطارق والده وقد نسى مفتاحه الخاص . وأوقد شمعة ، ولف بطانية حول جسمه ، ووقف ينصت مرة اخرى . . فلعل ان تسمع أمه الطرق وتمضى لفتح الباب ، ولكنه كان يوقن فى نفسه أن عملية فتح الباب تقع على عاتقه هو . . فهو « الرجل » الوحيد بالبيت . .

وراح فى بطء يقطع الردهة الخارجية نحو الباب الخارجى . . لعله ضابط البوليس جاء يثأر منه لبصقه على مقبض المسدس .

ورفع القضيب الحديدى الثقيل الخاص بأغلاق الباب من الداخل ، وفتح الباب .. ورأى رجلا غريبا يقف فى الطريق .. طويلا شاحبا نحيل الجسم ، وقور السمات ، يحمل حافظة أوراق صغيرة ،وذكر الغلام اسم والدته وسأله هل هذا هو بيت السيدة ؟ ورد الغلام بالايجاب ثم قال انها نائمة . وشرع يغلق الباب ، ولكن الرجل الغريب حال دون اغلاقه بحذائه المدبب وهو يقول :

« لقد هبطت المدينة الآن ، وقد جئت اليها الليلة عن طريق النهر، وخطر ببالى .. حسنا ، ان معى خطاب تعريف من صديقة لها حميمة .. »

« انها نائمة .. »

وقال الرجل وقد ارتسمت على شفتيه بسمة غريبة تنم عن الخوف :

« لو أنك تسمح لى بالدخول .. »

ثم أردف قائلا وهو يخفض صوته :

« اننى راهب .. »

فهتف الغلام قائلا فى دهشة :

« أنت ؟!. »

فقال الرجل فى رفق :

« نعم .. اننى أدعى الأب .. »

ولكن الغلام كان قد بادر بفتح الباب على مصراعيه ثم وضع شفتيه على يد الراهب قبل أن يذكر هذا اسمه ...

« انتهت »

أهداف هذه المجموعة

* تكوين مكتبة عربية متكاملة ، يجد القارىء العربى فيها كل ما هو بحاجة اليه من المعلومات فى شتى الموضوعات ، معروضة عرضا سهلا ، يتقبله القارىء العادى ، ويجد فيه المتخصص الحقائق والنظريات والآراء مبسوطة بغاية الدقة ، متمشية مع آخر ما وصل اليه العلم فى تلك الموضوعات .
* نشر هذه المكتبة فى أوسع نطاق ممكن ، وذلك بتخفيض السعر قدر الامكان ، واشراك اكبر عدد من الناشرين فى نشرها .
* النهوض بالكتاب العربى من حيث الشكل والموضوع .
* تشجيع عادة اقتناء الكتب وقراءتها .
* الافادة بصورة عملية من جهود العلماء والادباء فى شتى الامم ، باتاحة الفرصة أمام القارىء العربى للاطلاع الواسع على ما عندهم .
* افساح المجال أمام الشباب الطامح الى الاشتغال بالعلم والادب للمساهمة بصورة ايجابية فى النهضة العلمية والادبية .
* تشجيع الناشرين فى مصر والدول الشقيقة على الاقبال على نشر كتب العلم والثقافة العالمية ، وتعويضهم تعويضا مجزيا .
* تجديد النشاط الفكرى فى العالم العربى عن طريق الكتب القيمة التى تحمل اليه العلم والمعرفة .

